أحمد خالد توفيق



مثل إيكاروس

رواية

دار الشروق

مثل إيكاروس

مثل إيكاروس

أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف: وليد طاهر

لوحة الغلاف: شيماء عزيز

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب:أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٦٧٨ / ٢٠١٤
ISBN 978-977-09-3332-2



أحمد خالد توفيق

مثل إيكاروس

رواية

دار الشروق

إهـــداء

أهديها للأعزاء: الأديـب والفنان أحمد مـراد، ود. أيمن الجندي، ود. رائف وصفي (حسب الترتيب الأبجدي)، فقد أرهقتهم كثيرًا طلبًا لرأيهم الصائب. لولا امتلاكهم قسطًا وافرًا من الحكمة وتذوق الفنون لكنت تركتهم في سلام!

وشاع الزهو في أعطاف إيكاروس، فكان يرتفع قليلاً أو يهبط قليلاً عن سمت أبيه، ثم تشجع وتشجع وبهرته زرقة السماء وأديمها الصافي، فجازف وارتفع ارتفاعًا شاهقًا ونسي وصية أبيه، فعلا وذهـب في السماء صعدا، وكان يغريه أن يصغر العالم الأرضي في عينيه فيعلو ويعلو.

وا أسفا!.. لقد دنت ساعة الانتقام لك يابردكس!. فقد صهرت الشمس شمع الجناحين، وهوى إيكاروس إلى الأعماق!. صرخ صرخة هائلة دوت في أذن أبيه، فالتفت الشيخ ليرى ولده يغوص في الماء ويبتلعه مرة ويلفظه أخرى.

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

دريني خشبة

تمهيد

رائحة الدم المسفوك تذكرك بشيء ما.. ربما شيء عرفته في الماضي، ولربما عرفته في عصر الكهف أو في حياة أخرى كنت فيها سفاحًا يتلذذ بالدم. لا أدري بالضبط..

بعد دقائق لم تعد رائحة الدم صافية، بل امتزجت بروائح العرق.. روائح الأنفاس الثقيلة.. روائح التبغ.. روائح عطرية رخيصة وعطرية باهظة وعطرية مقززة وعطرية دسمة...

هناك كانوا يزدحمون. يتزايدون.. تزداد كثافتهم كذباب يحتشد فوق لوح زجاجي ملوث بالعسل. وكانوا يتكلمون ويلتقطون الصور... إبراهيم بيه. أسامة بيه. عادل بيه.. اختر أيّ اسم وضع بعده لفظة (بيه)..

كنا في مكان قصي.. مكان يبدو خارج حدود الزمن... وأيقنت أن اسمي ورقم هاتفي تكررا في مذكراته عندما كان يقدر على الكتابة. ما كان لهم أن يجدوني بطريقة أخرى.

ثمة شعور يغمرني أن كل هذا غير حقيقي.. الأمر أقرب لحلم ثقيل. هناك ظاهرة «الديجا فو» التي تجعلك تشعر بأن هذا مألوف، وظاهرة

«جامي فو» التي تشعرك بأن كل ما حولك غريب.. غير حقيقي.. أنت لا تعرف هؤلاء ولا تألف هذا المكان، وهم لا يعرفونك.. الآن أنا أمارس ظاهرة «جامي فو» بنجاح...

الجثة وسط المكان غارقة في الدم. تذكرت ذلك الرجل الذي رأيته في طفولتي يركض في الدرب، وكانت ثيابه ملوثة بالدم وكذا وجهه.. خطر لي أن هناك من مزقه بالسكين، ثم عندما دققت أكثر أدركت أنه هو الذي مزق شخصًا آخر.. لم يكن الدم دمه بل دم من قتله.

رائحة الدم المسفوك....

رائحة الدم المسفوك....

خطر لي هذا وأنا أراقب الجثة.. الدم دمه بلا شك هذه المرة.. هذا الجرح القطعي في العنق، وهذا اللحم الممزق عند الصدر فوق الثدي الأيمن.. وهذا الجرح النافذ في أعلى البطن. سوف يقيم الأطباء الشرعيون حفلًا وهم يدرسون أنواع الجروح المختلفة. سيأتي طلبة الطب أفواجًا ليروا هذا العرض الثري.

يقترب مني أحد البهوات.. لعله أسامة بيه.. يسألني وهو يلوك لفافة التبغ:

- «أنت تعرف القتيل..».

في ظروف معقدة تحول محمود السمنودي إلى قتيل.. ربما يتحول إلى مرحوم كذلك. لكني سأكذب عليك لو زعمت إنني مندهش أو مصدوم. لقد عرفت النهاية منذ اللحظة الأولى، وهي النهاية التي سار لها بخطى ثابتة كبطل إغريقي. كنت أرى الموت في جبهته. كتب بين

عينيـه «أموت غدًا». كلنا محكوم علينا بالإعـدام كأبطال كافكا، لكني كنت أدرك أن محمود السمنودي سيموت قبلنا جميعًا، ويموت بأبشع الطـرق طـرًا.. لقـد تلقى عشـرين طعنة علـى الأقل. لن أذكـر الأمعاء المتدليـة مـن فجوة في بطنه، كأنها حبل سـري لجنيـن دموي جاء من بطن كابوس. لن أذكر اقتلاع عينيه ولا العظام التي تهشـمت لأن هناك من وطأها بحذائين ثقيلين مرارًا كأنه يطفئ عقب سيجارة. كأن الفاعل كان يحاول تفريغه من بشريته...

- «أنت تعرف القتيل..».

أهو سؤال أم اتهام؟.. أهي حقيقة أم رجم بالغيب؟. بالفعل أعرف القتيـل لكنـي لا أعرف عنه إلا أقـل القليل كأنه الجـزء البارز من جبل جليد.. الجزء الأعظم من محمود السـمنودي كان تحت سـطح الماء فلم أره. أو للدقة أعرفه لكن لا أعرف ما يعرفه.

- «أنت تعرف القتيل..».

لابد أنه يقرر ولا يسأل.. لا توجد علامة استفهام في نهاية الجملة.. هو يعرف أنني أعرف القتيل.

أقول نعم... هنا ينقض الآخرون عليّ:

- «متى رأيته آخر مرة؟..».

ستتكلم.. سـوف تحكي كل شيء. سوف تحكي لنا كيف انفردت به وكيف رحت تسدد له الطعنات في العنق.. في الصدر. في البطن... سـوف تحكـي عن حقـدك الدفيـن عليه ورغبتـك في السـطو عليه أو اغتصـاب امرأته. حتى لو كنـت بريئًا كالأطفال فنحن سـوف نجعلك

تعترف بهذا.. سوف نغير الماضي فتصير أنت من قتله. هذا عملنا ونحن نحبه..

قال أحدهم:

- «التمثيل بالجثة يوحي بحقد دفين.. يوحي بقاتل مخبول.. يوحي بثأر قديم.. ».

قال آخر:

- «لا أحد يقطع لسان القتيل ويهشم أصابعه بهذا الأسلوب السادي المروع ما لم يكن شيطانًا رجيمًا».

قلت وأنا أبلل شفتي بلساني:

- «هذه ليست إصابات حديثة.. إنها قديمة».

- «ومن الكافر بن الكافر الذي فعل هذا به؟».

- «من سواه؟.. هو طبعًا!».

بالفعل يصعب أن تجد من يقطع لسان القتيل ويهشم أصابعه بهذا الشكل الوحشي الطقسي، ما لم يكن الفاعل هو القتيل نفسه. هذا رجل أراد أن يعاقب نفسه بقسوة وأراد أن يخرس فلا تتاح له فرصة الكلام. هذا رجل أراد أن يصدم الموت عندما يلقاه.. هذا رجل كره الحقيقة وكره ما يعرفه وكره نفسه..

- «أنت تعرف القتيل..».

الإجابة هي نعم برغم أنه ليس سؤالًا..

- «أنت تعرف القتيل.. ».

وبالطبع سوف يسألونني عن القصة كلها...

- «أنت تعرف القتيل.. ».

أعرف القتيل.. لكن لا أعرف ما يعرفه. لو كنت أعرف ما عرفه محمود السمنودي لكنت أتشحط في الدم مثله الآن. الجهل قد ينقذك.. ما لا تعرفه لن يؤذيك.. الظلام يفيد....

- «أنت تعرف القتيل.. ».

أعرفه وأعرف أنه مات لأنه اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم. لم يتحمل واحترق وذاب جناحاه..

مثل إيكاروس.....



١ - البدايـات

سـيدي المحقق.. دعنا نتجاهل الصيغ الرسمية الكئيبة للمحاضر، وطريقة «هل لديك أقوال أخرى؟» و«اسمك وسنك وعنوانك». إلخ.. ليكن كلامنا حميمًا، لأن الموضوع معقد يسـتعصي على الوصف كما تعلم. عندما تحاول أن تؤرخ حياة **محمود السمنودي** منذ مولده حتى العام ٢٠٢٠، فأنت تجد قصصًا كثيرة متناقضة، فتدرك المشـكلة التي يلاقيهـا كل مـؤرخ مدقـق. المؤرخ مرتـاح الضمير فقط هـو المؤرخ المنحـاز أو غيـر العـادل أو النصـاب، فهـو لا ينتقـي سـوى حقائـق معينـة ووقائع محـددة، ولا مانع من بعض التلفيق ما دام هذا سـيؤدي الرسـالة المطلوبة. لكن المؤرخ الأمين سـوف يلاقي عسـرًا أي عسر في معرفة شـخصية محمود السمنودي. كأن هناك خمسة منه يتباينون تباينًا شديدًا.

العزلة. دومًا العزلة.

هنـاك مـن ينسـبون ما حـدث لنشـأته. لقد نشـأ في إحـدى القرى الصغيـرة المجـاورة لبنهـا، لكنـه قضـى هنـاك فتـرة قصيرة جـدًّا في

طفولته، وسـرعان ما وجد نفسـه يعيش في القاهرة. لم يسمع أحد عن كونه زار قريته أو كان ذا اتصال من أي نوع بجذوره هناك، لكنه كذلك لـم يكن ابن المدينة. إنه القروي الـذي لم يزر القرية يومًا واحدًا، وهو ابن المدينة الذي يمضي مرتبكًا في الشارع شاعرًا بالذعر من الصخب والسـيارات والزحام، ولا أحسـبه دخـل مطعمًا أو كافتيريـا إلا مرغمًا مفتقرًا للارتياح. هكذا هو غريب دومًا حيثما حل.

«حكايـات الغريـب».. القصـة الجميلة لجمـال الغيطاني. هذا هو العنوان الأنسب الذي يصف حياة صاحبنا.

هل أعرف أسـرته؟.. لا أعرف إلا أقل القليل. أحسـبهم من الطبقة المتوسـطة فلم يشـتهروا بثراء أو عوز، ولم يشـتهروا بمجون أو تدين، وليس بينهم وزراء ولا متسـولون... أسـرة صغيرة فـي بيت صغير في حي صغير.. الغبار الذي تقذفه المكنسـة عن يمين ويسـار الطريق فلا يذكره أحد ولا يزيله أحد.. إنه موجود فحسب.

هذه النشـأة لن تقودك إلى محمود السـمنودي الذي نعرفه اليوم.. ربمـا تقودك إلى موظف مذعـور في إدارة حكوميـة متداعية الجدران رطبة تعبث فيها الفئران. ربما تقودك إلى معلم مكتئب غارق في دوامة الـدروس الخصوصيـة. هذه لعمـري بدايـة عادية جدًّا لشـخص بهذا التأثير والحجم.

فـي المدرسـة الابتدائية كان أقـرب إلى الصمت والشـرود، وهذه نشـأة تشـتبه كثيرًا مع الذكاء المحدود. دعك من أن الصبية لا يغفرون لهذا النوع من الزملاء.

هنـاك في الفناء الخلفي لمدرسـة العباسـي الابتدائيـة يقف وحده بانتظار أبيه الذي يعود به للدار. متخشبًا راجفًا يهاب العالم ويتحسسه عبر لوح زجاجي سميك يحيط به.

يقترب منه هشام. هشـام البدين الذي يترجرج ردفاه ولغده. هشام الـذي ينتمي لعالمنا هذا، راسـخ القدمين ثابـت الخطى فيه. في عالم الطفولـة لا توجـد أسـباب.. لا يوجـد تحرش أو صـدام. لا يجب أن يسبب لك خصمك أذى فتكرهه.. يكفي أنه موجود وحيّ... يتصرفون كالحيوانات التي تحافظ على نطاق مملكتها...

هكـذا ينقـض عليه هشـام... ويمد سـاقه من خلفه ليخـل بتوازنه، فيصيح محمود بصوت المظلومين:

- «إيه؟».

وهو ما يعتبره هشام إهانة، فيمسك بشعر محمود يعتصرد كأنه يريد انتزاعه، وهو يردد في غضب:

- «إيه اللي إيه؟ إيه اللي إيه؟».

ثـم يهوي بقبضته بين لوحي كتفه ويرفع ركبته ليضربه في ذقنه قبل أن يسـقط. فـم محمود يمتلئ بالتـراب والرمال فيبصـق، ثم يدرك أنه يبكي.. أيّ عينين خائنتين هما هاتان! لا يجب أن يبكي أبدًا..

يكون المشـهد قد بلغ ذروة النشوة بالصبية الواقفين، وقد استبدت بهم نفس المشـاعر التي أسكرت جماهير السيرك الروماني وهم يرون الأسـود تمـزق المسـيحيين. ينفجـرون فـي الصفير والضحـك بينما ينهي هشـام المأسـاة... ركلات.. ركلات.. بصقات. بصقات.. لماذا

يكرهني لهذا الحد؟ لو كنت قد أحرقت بيته وسـرقت ماله واغتصبت أمه فما كان ليكرهني لهذا الحد...

في النهاية يرحل هشام واعدًا بالمزيد في الغد. ومحمود يعرف أنه لـن يشـكو لأبيه – أبي محمود – أبدًا... يفضـل أن يتلقى نفس العلقة كل يوم على أن يشـكو. سـوف يلومه أبوه ويتهمه بأنـه أفرط في اللهو أو أنه لا يحافظ على ثيابه.. هذا بالطبع لو لم يسـتطع أن يزيل كل آثار المعركة عن نفسه في دورة المياه قبل قدوم الأب.

الصبية لا يغفرون لهذا النوع من الزملاء.

لكـن مع الوقت بـدأت تلك النظـرة تتضح أكثر فـي عين محمود. نظرة حادة متهمة لا تطرف العين معها.. نظرة قل أن يتحملها من يبادل الفتى النظر. وهنا فقط قرر الرفاق وقرر المدرسون أن الفتى مخيف.. يحسن أن نتركه وشأنه. هذه القوة النفسية غير المحدودة تثير الذعر في أقسى القلوب..

قال لهم المدرسون وهم يرتجفون، ويخفون أنهم يرتجفون:

– «لا تضايقوا زميلكم..».

ويقول مدرس لآخر:

– «حقًّا كل ذي عاهة جبار..».

فيقول زميله:

– «لكنه ليس ذا عاهة!».

هـل هذا صحيـح؟ للمرة الأولـى يتذكر هـذا ويلاحظـه. محمود يـنسحـك دومًا الانطبـاع بأنه ذو عاهة.. لا تعرف السـبب أبدًا لكنك لا تقدر على أن تعتبره سليمًا..

هـذا وجه مـن الوجوه التي أعرفها عن محمود السـمنودي. أعرف قصته عندما كان صبيًّا في المدرسـة وكان معظم الصبية يتحرشـون به، ثم - لسـبب مـا - كفوا عن ذلك. ومـع الوقت صارت حولـه هالة من الهيبة والتوجس.

في سـن المراهقة كان يحيط نفسـه بذات الدائرة. صموت دائمًا.. ولـم يُعرف له أصدقاء على الإطلاق. لا أحد يعرف بيته ولا يذكر أحد أنه رأى فردًا من أسرته في المدرسة. كذلك كف الجميع عن التحرش به لأسباب لا يمكن فهمها. كان الصبية يتحدثون عن الفتيات ويجلبون المجلات العارية للمدرسـة ويتبادلون النكات البذيئة، ويتكلمون عن مغامراتهم أو عن الاسـتمناء هواية الصبا الكاسـحة، لكن السـمنودي كان صموتًا لا يتكلم عن شـهواته قط. هذا مخيف في حد ذاته. إما أن يكون الفتى خاليًا من المشاعر الآدمية كالدمى المعروضة في واجهات المحـلات، أو هو قديس، أو هو يملك أعتى وأقذر الرغبات الدفينة.. السـفاحون الذيـن يمزقـون النسـاء كانوا الأكثـر صمتًا بيـن جيرانهم، وكانوا الأقل كلامًا عن الجنس بين رفاقهم. عندما لا تتكلم عن الشيء فأنت لا تبالي به فعلًا، أو أنت غارق فيه لدرجة المرض..

بالتأكيد زاد هذا من جدار العزلة حول محمود..

* * *

مـاذا تريـد يا سـيدي المحقـق؟.. أن أحكـي لك عـن مغامراته مع الخادمـة؟.. لم تكـن هناك في دارهم خادمة. أحكـي عن مغامراته مع جارتـه؟.. لـم تكن له جـارات. عـن قصته مع تلـك الأرملـة الظامئة للحـب مع مراهق مفعم بالفحولة والحيوية؟.. للأسـف لم تكن هناك أرملـة ظامئـة للحـب، وهو بالتأكيـد لم يكـن مراهقًا مفعمًـا بالفحولة والحيويـة.. كان يعطيـك انطباعًا غامضًا بأنه مسـن مراهق، وأنا طبيب وأعـرف أن هناك أمراضًا تدعى «البروجيريا» تسـبب هذه الشـيخوخة المبكـرة، لكنني أعرف يقينًا أنـه لم يكن مصابًا بها. مريض بلا مرض.. أليس هذا مخيفًا؟

لقد كانت حياته جافة تمامًا ولابد أنه قضى سـاعات قاسـية وحده بـلا صديق، فـي دار ضيقة حـارة.. لابد أنه كان يحلم بـلا توقف، ولا شك أن شخصيته كانت تزداد تفردًا وغرابة.

هـذه تقريبًـا هي الفتـرة التي وجـد فيها تلـك الكتب تحت حشـية الفـراش. أنت تعرف تلك الأسـرّة الأقـرب إلى صنـدوق يضعون فيه الكتب القديمة. تفتح الصندوق وتسـعل مرتين بسـبب الغبار، وتبصق مرة، وتجري سمكة فضية على يدك فارة من هذا الصخب..

هنا تجد الكنز الشبيه بكنوز علي بابا.. الكثير من المجلات العتيقة التـي بليت واصفرت وثقبتها العث.. كتب قديمة.. أعداد من مجلات لا يذكـر أصحابهـا أنهـم أصدروها. صور مـن زمن كانت كل النسـاء المغريات فيه نسـخة من هيدي لامار. أما الجزء الأهـم مما وجده فهو تلـك الكتب الغامضة التي خيل لـه أولًا أنها كتب دينية، ثم عندما دقق

عرف أنها كتب سحر.. كتب ملأى بالطلاسم والأحجبة ولا توجد فيها علامة ترقيم واحدة. هناك كتب بالإنجليزية لم يستطع فهم ما فيها.

عرف من أبيه أن هذه الكتب جاءت من جد ورثها عن جد عن جد.. لا يعرف أبوه كنه هذه الكتب، لكنه يعرف يقينًا أنه سيورثها لابنه. هذه أشياء تبدو ثمينة أكثر من أن تمزق أو تحرق أو تباع.

يمكن القول يا سيدي المحقق إن هذه هي اللحظة التي أدرك فيها محمود مشروع عمره، وعرف أنه سيقضي ساعات لا حصر لها مع هذه الكتب يفك طلاسمها.

يجب أن نعترف هنا أنه لم يكن يملك ذكاء خاصًّا، ولا ثقافة متميزة، لذا لم يبد له الأمر سخيفًا كما يبدو لأي واحد فينا. عندما تطالع هذه الأمور متعاليًا مشمئزًّا محتقرًا فأنت لا تظفر منها بشيء، ولسوف تجد الأمر مضنيًا بلا طائل. أما محمود فقد كان يملك الخيال كله والوقت كله.

لقد اقترنت حياته بهذه الكتب، وإن ظل سره مجهولًا لفترة لا بأس بها. لا أحد يعرف تفاصيل هذه المرحلة من حياته سواي، ومن كلماته فيما بعد.

هل كانت هذه هي الفترة التي تعرض فيها للتحرش (وربما الاغتصاب؟). لا أعرف بالضبط ومن الخير أن نبقي هذه القصة مجهولة. المدرس الوغد الذي يتحرش بطالب صبي عنده في غرفة مظلمة منسية أمر يحدث من وقت لآخر، ولو آثر الصبي الصمت خوفًا ورعبًا فلن نعرف أي شيء عن القصة. فيما بعد حكى لي محمود هذه

الحكايـة، وأثار رعبي أنه لم يبد مشـمئزًّا أو مصدومًـا.. كان يعتبر هذا من حقائق الحياة. السمك الكبير يلتهم السمك الصغير بلا مناقشة ولو لم يفعل لبدا الأمر غريبًا.

لـن أطيـل السـرد هنـا، لكنـي أردت أن أنقـل لـك أنـه ازداد خوفًا وانكماشًـا وتوحـدًا. وأعتقـد أنـه بحث فـي الكتب كثيرًا عن وسـيلة تجعله قويًّا. وسيلة تجعل من العسير أن يغتصبه شخص آخر. هنا يدرك المرء أن الطرق الطبيعية المادية بطيئة جدًّا ونتائجها غير مضمونة، من ثم يفكر في حل ميتافيزيقي سـريع. طه حسـين حكى فـي رواية الأيام عـن محاولاته المرهقـة للاتصال بالجان، وكيف قضـى الليالي يردد: «يـا لطيـف.. يا لطيف» على رائحة البخور، ولا أحسـب هذا الفتى إلا فاعلًا الشـيء ذاته. وفي النهاية تعلم الدرس بالطريقة الصعبة: السمك الصغير لا يصير كبيرًا لمجرد أنه يردد بعض التعاويذ.

هل تسـمح لـي بأن أشـعل لفافة تبغ يا سـيدي؟.. شـكرًا لك.. إن الدخان يساعدني على جمع أفكاري ونسجها.

لقـد كبر محمـود ودخل كلية الحقوق. لمـاذا دخل كلية الحقوق؟ هـل كان مولعًـا بأسـرار القانـون ودهاليـزه ومعرفـة كيف تعيـد الحق للمظلوميـن؟ بالطبـع لا.. دخـل كلية الحقـوق لأنها الكليـة الوحيدة التي استطاع اللحاق بها. وهناك استطاع لحسن الحظ أن يذوب وسط حشـد الدفعـة الرهيـب حتى فقد أي شـيء يميزه. انزلـق كبصقة على زجاج الحياة اليومية فلم يشعر به أحد.

مـا عرفته عـن تلك الفترة مـن القليلين الذين عرفـوه هو أنه مارس بنجـاح ذات البرنامـج الذي عرف عنه. كان يثيـر رعب الزملاء بصمته

ونظراته الحادة المتهمة الصموت. وبالطبع تحاشته الفتيات تمامًا لأنه بدا لهن غريب الأطوار مرعبًا. الفتيات يعشقن الحيوية سواء كان الفتى وسيمًا و قبيحًا.. لكن كما قلت لك كان محمود يشعرك طيلة الوقت أنه سقيم وذو عاهة معينة. لا تعرف ما هي لكنها موجودة.

فتاة في الدفعة اسمها مديحة ظلت تراقبه وهو يمشي في الردهة، ثم مالت على صاحبتها وهمست:

- «هل تعرفين الغريب في هذا الفتى؟.. لقد فقد ساقه الرابعة في حادث!».

قالت صاحبتها وتدعى مي:

- «أو ربما فُقئت عينه الخامسة».

- «أو بتر أحدهم أذنه الثالثة!».

كان من المستحيل كذلك أن تتبين طبقته الاجتماعية، ففي لحظة بعينها تشعر بأنه ريفي جاء من قريتهم مفعمًا بالآمال، ومعه سلة فيها الفطير الذي خبزته أمه والجبن القديم المدوّد.. سوف يعمل في مكتب محام ثم يفتتح مكتبًا صغيرًا جل زبائنه من قريته. في لحظة أخرى تجد فيه سمت المثقفين المتحذلق وتشعر أن هذا الفتى يملك عقلًا ثائرًا.. بل إن في عينيه جنون الشيوعية وتمردها. في لحظة بعينها هو أرستقراطي مشمئز لا يعرف كيف قذفت به الحياة إلى تلك المدرجات التي تفوح برائحة العرق والأقدام.

لكن من يعرفونه يعرفون أن هذه هي الأعوام التي انكب فيها على دراسة اللغة الإنجليزية بعمق. كان يملك الكثير من الوقت

وعقـلًا فارغًا يمكن أن يملأه بأي شــيء. ولا نعـرف بالضبط الظروف التــي جعلته يهتم بتعلم اللغة لهذا الحد، لكن من مســار حياته بعد هذا أرجح أن الهدف الوحيد له كان قراءة تلك الكتب التي وجدها، والتي اعتقد أنها تحوي سـر الكون ذاته. ولهذا يمكننا فهم نطقه المضحك لأبسط الكلمات الإنجليزية.. لـم يكن مهتمًّا بالمحادثة ولا النطق على الإطـلاق. كان قاموسًــا حيًّا فيـه آلاف المفردات لكنه لم يســمع كلمة منطوقة واحدة.

ذات مـرة نطق لفظة Constitution أي الدســتور أمام أحد أســاتذة الكليـة هكذا: كونسـتيتيون. وقد انفجر الزمـلاء في الضحك وغطت الفتيات أفواههن بالمناديل الورقية، بينما وصفه الأسـتاذ بأنه أبو جهل وأنه ينطق الإنجليزية بطريقة الترجمانات.

لكن الحقيقة أن لغة الفتى غير المنطوقة كانت تتحســن بلا توقف، وجاء اليوم الذي أمســك به بأول تلك الكتب وراح يطالعه في نهم فلم يحتج إلى أن يستعمل القاموس قط.

* * *

لا أعرف التفاصيل بعد ذلك يا سيدي.

شــخصية محمود لم تكن من الطراز الذي يتزوج، وقد خلق ليموت وحيـدًا ككلب عقور. لكنـه في الواقع تزوج. مـن جديد لا أعرف كيف وقعت فتاة في حب هذا الكائن العجيب، أو على الأقل قبلت به عريسًا.

أعتقـد أن هنـاك ضغوطًـا هائلـة وقعـت عليه مـن أبيـه.. ولم تكن الأسـرة فقيـرة.. أن تكـون من الطبقـة المتوسـطة لا يعني أنـك معدم

عاجز عن الزواج.. لكنه زواج متوسـط من فتاة من الطبقة المتوسطة.. تعيشـان في بيت متوسـط بأثاث متوسط... ويأتي للعالم طفل آخر من الطبقـة المتوسـطة. كانت هناك شـقة صغيرة بها أثاث رخيص تسـمح لـه بالحيـاة، مع دخل شـهري بسـيط من عملـه كمحام في شـركة، مع مساعدة شهرية من أبيه.

كيـف جعلوه يتـزوج؟ هذا لغز آخر من ألغاز محمود السـمنودي. لـم يظهـر الفتى قـط غريزة جنسـية أو رومانسـية أو غريـزة أبوية. كان يتصرف ويشعر مثل كرسي الحمام، فلماذا تزوج؟. على الأرجح كان هذا اسـتجابة لضغط أم من الطبقة الوسـطى تشـتهي أن ترى أبناء ابنها الوحيـد. ما كانت لتسـمح له بالموت وحيدًا. والفتـى قد تأخر.. تأخر كثيرًا في الزواج، أكثر مما يدعوها للاطمئنان.

وهكذا رضخ للضغط.. وأعتقد أنه ارتكب خطأ فادحًا عندما قبل.

كانت سـلوى عمران محامية شـابة تحت التمرين تعمل في مكتب الأستاذ أنور مينا المحامي. رشيقة على قدر من الجمال، ثيابها رخيصة بسـيطة لكـن تحسـن اسـتغلالها، وكان عـدد لا بـأس به مـن موظفي المحكمـة والمحامين الشـبان يرغبونها أو يميلون لها أو يشـتهونها أو يرتاحون لها أو يحلمون بها. إلخ. أعتقد أنها كانت ستكون أكثر توفيقًا وأسعد مع أي واحد فيهم، لكن كان قدرها أن وافقت على هذا الفتى.

لا أعـرف الكثيـر يا سـيدي عن تلك الزيجـة. لكن أعـرف يقينًا أن شـخصية مثل شـخصية محمود عاجزة عن أن تجلب السـعادة لامرأة تقاسـمه الحياة. هذا ذئب متوحـد أرغم على أن يقبل وجود فتاة تحت سقفه، وبالتأكيد اعتبرها عدوًّا دخيلًا لفترة لا بأس بها. أما عن علاقات

الزوجية فأمر متروك لخيالكم. أعتقد أن جرح ما تعرض له في صباه كان داميًا وكان يؤلمه بلا توقف، ولا شك أن هذا جعل العلاقة بينهما مضطربة أو عدوانية أو سادية أو ربما غير موجودة على الإطلاق. إن زوجته لا تحكي الكثير عن هذه المواضيع.

هذه هي البدايات يا سيدي.. ما يدور في الكواليس قبل الدقات الثلاث ورفع الستار. وقد كان لي الحظ أن عرفت طرفًا منها، بينما جاء العالم كله ليرى المسرحية بعد ما ارتفع الستار فعلًا.

٢ - التبــدل

أعتقد يا سـيدي أنك ستجد المحاضر الكاملة، والتي تحكي بعض تفاصيـل ذلك اليوم الدامي. لكن المحاضر لا تحكي كل شـيء طبعًا. لن تحكي عن قاعة السـينما الصاخبة التي امتلأت بالشـباب، بينما نقد العشـاق موظف السـينما مالًا ليجد لهم مكانًا في الظلال تحت شعاع العـرض بالضبـط، حيث يمكنهم اختـلاس القبلات. لـن تحكي عن الفيلـم المليء بالمطاردات، والرجال أقوياء الشـكيمة الذين يفجرون معسكرًا كاملًا وهم يمشـون نحو عدسة الكاميرا بالحركة البطيئة دون أن ينظـروا للخلف إلى اللهب المتطاير. لن تحكي عن جهاز التكييف التالـف وكل العـرق الـذي سـال مـن الجالسـين. لن نحكـي عن عم مصطفى البلاسـير الذي يمـارس هذه المهنة منذ أيـام مصباح القوس الكهربائي، وعمله هو تقاضي البقشـيش مقابل ترك العشـاق وشأنهم، يقتربـون من حـدود الزنا جدًّا لكنهم بالطبع لا يجسـرون على عبورها هنـا.. وهـو يتذكـر التقاليـد والأخلاق فقـط عندما لا يدفعـون. رجل شـرس له شارب كث، وطريقة تعامله تذكرك بالمخبرين. تلك اللمسة التي تميز كل من يتعلق عملهم بالسـيطرة على الجماهير. هل ستصف لك المحاضر شارب عامل السينما؟ بالطبع لا.

تعرفون يا سيدي من المحاضر أن العرض انتهى وغادر الناس مقاعدهم، مكومين تحتها علب الفيشار الفارغة وعلب المياه الغازية. لكن ظل ذلك المقعد بمن يجلس فيه.. لم ينهض أحد. اتجه عم مصطفى نحو شاغل المقعد عالمًا أنه سيجده غافيًا كالعادة. لماذا يختار رجل وحيد ليست معه امرأة هذا المكان القصي البعيد عن العيون؟

- «انتهى العرض يا أستاذ..».

لكن الجالس لم يرد. دنا منه أكثر وهزه فلم يستجب. صاح مناديًا عامل العرض وعامل الإضاءة أن أعيدوا الأنوار كاملة.. توهجت أنوار النيون راقصة وأزَّ منها ما اعتاد الأزيز، وعلى الضوء الراعش أدرك أن المشهد غير مألوف. هذا رجل ميت على الأرجح.

كان الميت - لو كان ميتًا - مسنًّا أشيب الشعر تمامًا.. ويبدو أنه حاول جاهدًا أن يبدو الأمر كأنها نوبة قلبية بسبب أحداث الفيلم المثيرة، لكن شريط الدواء الفارغ على الأرض وزجاجة المياه المعدنية.. كلها أشياء تشي بالقصة. المحاضر لن تحكي عن رائحة الفم المفتوح الكريهة.. لكني أحكي لك.

مد يده - برغم أن هذا ليس من حقه - ينقب عن هوية الرجل في جيبه. اسمه محمود سيد السمنودي. مقيم بالجيزة - محام - في الأربعين من العمر. الأربعون؟.. تأمل الشعر الأبيض وهز رأسه.

عندما جاء رجال الإسعاف بعد ساعة أدركوا أن الرجل ما زال حيًّا. كأنه ذلك الرجل الذي يسقط من فوق ناطحة سحاب في الأفلام فيتشبث بإفريز نافذة.

في المستشفى أعادوه إلى الحياة بشكل ما. ولم يكن هناك طفل لا يشك في أنه انتحر. كما هو واضح قد دخل إلى السينما وابتلع شريطًا كاملًا من دواء مسكن معين، غير عالم - الأحمق - أن هذا الدواء غير فعال ولا يحدث الموت. فقط غيبوبة أمكن استعادته منها. ابتلع الشريط في الظلام وتلاه بجرعة ماء، ثم أزاح الشريط الفارغ بعيدًا على أمل ألا يجده أحد. وجلس ينتظر الموت وهو يتابع أحداث الفيلم بنصف عين. لابد أنه رأى حياته كلها على الشاشة وقتها. في مصر يمكن أن تنفذ هذا السيناريو فلا يشرح أحد جثتك ولسوف يفترضون أنها نوبة قلبية. لو أطلقت الرصاص ففجرت جمجمتك فلربما افترضوا بشيء من الحظ أنها نوبة قلبية أخرى.

هكذا يمكننا أن نستنتج أنه غير راغب في أن يعرف أحد أنه انتحر. ربما لم يكن راغبًا في أن يستجلب اللعنات والاتهامات بالكفر، ولربما لم يرد الفضيحة لأسرته وزوجته.. لا نعرف التفاصيل وأحسبني لا أعرفها يقينًا لكني خمنتها.

لم يبال أحد بالقصة بعد ذلك.

حاول جاهدًا أن يقنع كل من عرف القصة بأنها نوبة قلبية أو استعداد لجلطة دماغية، وقد كانوا على استعداد لتصديقه. برغم المحضر وتقرير النيابة لم يجد أحد سببًا واضحًا لانتحار هذا الرجل..

لكن الزوجة كانت تملك شكوكها الخاصة، وكانت تدرك أن هذا بالضبط هو ما حدث: انتحار.. الزوجة التي تعرف لماذا شاب شعر زوجها بهذه السرعة، تدرك كذلك متى ينتحر ومتى يموت بنوبة قلبية.

بعد هذا بأسابيع وقع الحادث التالي. استيقظت في منتصف الليل شاعرة بتوتر خانق غريب. لم تجده جوارها في الشقة. كانت سلوى عمران امرأة منظمة التفكير وكانت تعرف أن زوجها لا يتمتع بأي نشاط هرموني يدفعه للخيانة الزوجية أو الفرار للسهر مع الرفاق. هكذا فتشت الشقة بدقة بحثًا عنه متوقعة أن تجده في ركن غرفة مظلمة وقد فارق الحياة.

لكنه لم يكن في الشقة كلها، وهكذا فتحت الباب ووقفت للحظات تعب الهواء بجرعات كبيرة وتنصت لصوت الليل. رائحة المساء الذي غفا وراح يحلم. كانت تدرك يقينًا أن زوجها على سطح البناية.. هي تعرف هذا بشكل ما. هرعت إلى السطح وهي تلهث وقلبها يرتجف. هناك كان ضوء القمر الشاحب الفضي ينعس في استرخاء فوق معالم المكان. هناك أكثر من قالب قرميد مهشم وأكثر من طبق فضائي وأكثر من كومة رمل لا يعرف أحد ما يفعلونه بها. هناك كان واقفًا على السور حافي القدمين، متمسكًا بصارية الهوائي العتيق الذي لم يتخلصوا منه بعد. كان في لحظة الصراع النهائية قبل اتخاذ القرار. قبل الخطوة الأخيرة التي ستجعله جثة راقدة في المشرحة، وخبرًا في الصحف، وضيفًا جديدًا في الجحيم.. كان عاجزًا عن اتخاذ القرار، أو هو اتخذه لكن قبضته تمردت وتمسكت بالحياة فلم تتخل عن الصارية.

عندما هرعت نحوه وهي تصيح:

- «محمود!.. هل جننت؟».

كانت تتوقع رد فعل أعنف وأكثر شراسة. كانت تتوقع أن يفلت يده على الفور ويصرخ الصرخة الطويلة المتلاشية التي تسمعها في

السينما. هناك من قال لها يومًا إن الساقط من حالق في عالم الواقع لا يصرخ على الإطلاق.. تقتله الصدمة العصبية فلا ينطق أصلًا. إن زوجها نظر لها تلك النظرة التي صارت تحفظها مؤخرًا.. انهزمت عيناه الحادتان منذ زمن سحيق. صارتا تذكرانها بعيني أرنب مذعور لا يعرف مصيره. كان مرتخيًا تمامًا وقد منحها كفه بسهولة وعندما جذبته لأسفل انجذب معها..

لم تحك الزوجة الكثير. لكني عرفت أن محمودًا كان يلبس ثيابه كاملة، وقد لف قطعة من السلك على ساعده.. وكان يحمل في جيب القميص مفكًّا و(بنسة) بينما تخرج من جيب السروال يد مطرقة. كانت هي تعرف يقينًا أن هذا كلام فارغ... الهوائي لم يعد يستعمل ولا قيمة له، وهو لم يحاول إصلاحه من قبل. فقط هو وضع هذه الأدوات للتمويه. كانوا سيجدون جثته المحطمة فيقول رجل الشرطة في ذكاء: «كان يحاول إصلاح الهوائي عندما انزلقت قدمه فهوى من حالق.. ليرحمه الله.. لقد كان أحمق.. لا أحد يصلح الهوائي في عصر الفضائيات، ولا أحد يصلح الهوائي في الثالثة صباحًا...».

هذا كله خداع.. محاولة أخرى لإقناع من يجد الجثة أنه لم ينتحر..

لقد كان يعلق على الأمر أهمية بالغة حقًّا. هو لا يريد أن يحرق مبنى السجن بعد فراره، بل يريد أن يتذكره السجان في احترام وتوقير.

* * *

أعتقد أن هذه المحاولات تكررت مرة أو مرتين. من العسير ألا تنظر لمن يعتبر الانتحار هواية كمريض نفسي يحتاج إلى العلاج.

ثمة ظاهرة جديدة بدأت تتكرر؛ هي أنه يمنع زوجته من الخروج.. لا تذهبي لأمك.. لا تقصدي السوق.. لا تذهبي لعملك في مكتب المحاماة.. لا تزوري جارتك...

الطريق مظلمة موحلة، والغابة مفزعة تترصد فيها الذئاب تتشمم بحثًا عن رائحة الدم، فمن لم تظفر به الذئاب وجدته الأشباح وامتصت دمه لتتركه مفرغًا بلا قطرة دم في العروق. الطريق تغص بمن فقدوا السبيل فاستحالوا كالغيلان. في الخارج يتربص مولوخ وبعل ينتظران الضحايا البشرية. في الشارع ألف عاهرة أتى بهن للعالم ألف مغتصب صنعهم ألف متحرش بالأطفال.

لا تذهبي.. أوصدي الأبواب.. الحياة خطر داهم. ألم تدركي هذا يا حمقاء؟.. لو خرجت فلا تعودي لأنهم سيلوثونك ولسوف تصيرين منهم. أنا لن أسمح لك بأن تنقلي لي الوباء.

في النهاية وجدت الزوجة نفسها مضطرة لأن تطلب رأي الطبيب النفسي، وقد كان الطبيب النفسي سعيد الحظ هو أنا، وكان لقائي الأول مع محمود في المصحة التي أعمل بها. بدا لي أميل إلى الاستسلام، ولابد أنها لم تلق جهدًا في جلبه لي. إنه يمر بلحظات من الذعر ثم يدخل لحظات من الهدوء المطلق يجعله يقبل أي شيء...

هل تريد رأيي في محمود يا سيدي؟.. أعرف أنك رأيت وجهه وتعرفه تقريبًا، لكن ما نتحدث عنه هنا هو انطباعي الأول عنه. هذا هو الشيء المهم. سوف أقول إن الانطباع الأول لي عنه هو الذعر.. هذا رجل يموت رعبًا..

الانطباع الثاني هو الاشمئزاز.. هذا رجل مشمئز كأنه التهم فضلات بشرية..

الانطباع الثالث هو القنوط.. هذا رجل يائس كأن السكين على وريده الوداجي هو مقيد...

الانطباع الرابع هو الضياع... نفس نظرة الأطفال الذين يجدونهم في المولد وقد أضاعوا أهلهم..

نحيل هو.. في الأربعين من عمره، لكنك لا ترى في رأسه شعرة واحدة سوداء، وهناك الكثير من تجاعيد قدم الإوزة حول عينيه وحول فمه...

يلبس ثيابًا مهندمة، لكن من الواضح أنه لم يبدلها منذ فترة لأن رائحة العرق وياقة القميص المتسخة تدلان على ذلك، ومن الواضح أنه فقد وزنًا كثيرًا لأن عنقه النحيل المجعد يذكرك بعنق سلحفاة يطل من درقتها. نظرت له وقلت لنفسي:

- «ما الموجود في هذا الرجل ولا يتمشى مع الاكتئاب؟».

الإجابة كانت تلك الخيوط بين أنامله، وهي تشبه خيوط العنكبوت نوعًا.. كأنه حاول تمزيق بيت عنكبوت بأظفاره، وخطر لي أنه مصاب بعدوى فطرية لا أعرفها..

لاحظت فيما بعد أن انتزاع هذه الخيوط هي متعته الوحيدة في الحياة، وهو مولع بأن يكلمك وهو ينزع هذه الخيوط طيلة الوقت. كانت لي خالة تهوى تقشير الكوسة ثم تقضي الوقت في تقشير المادة اللزجة المتصلبة حول أناملها، وكانت تقول لي إن هذه من أعظم لذات الحياة. يبدو أن الرجل يملك لذة مماثلة.

أجريت له عدة اختبارات نفسية، وعرفت منه ما استطعت معرفته.. لكنه لم يفدني قط. كان جدارًا مصمتًا لا يمكن اختراقه، وخطر لي أنه يجب أن يدخل المصحة تحت مراقبة لصيقة حتى لا يكرر تجربة الانتحار. علمتني التجارب أن معظم محاولات الانتحار هي محاولات صبيانية تقوم بها شخصيات غير ناضجة تنتقم من الآخرين في نفسها، مع لمسة من (والله لأوريكم). سوف أحرمكم مني.. سوف تشعرون بالندم والأسى..

لكن هذا الرجل كان جادا على قدر علمي.. كان صادقًا في رفض الحياة، والدليل هو محاولات الخداع التي قام بها حتى ينتحر دون أن يعرف أحد أنه انتحر. من أعرفهم يبتلعون قرصًا من الأسبيرين ثم يكتبون رسالة وداع ويملئون الدنيا صراخًا، ويشهد استقبال المستشفى حشدًا من الأقارب المذعورين لكن أسرعهم وأكثرهم ذعرًا هو هذا المنتحر الذي يركض بالمعنى الحرفي للكلمة، ثم ينهار باكيًا أمام الطبيب:

- «انقذني!.. أنا ابتلعت قرصًا من الأسبيرين.. سأموت.. افعل شيئًا!».

وينادي من حوله ليعلن أنه سامحهم وغفر لهم. رأيت هذا السيناريو ألف مرة، لكن محمود السمنودي كان صادقًا بحق.. مشمئزًا بحق.. راغبًا في الرحيل فعلًا.

الزوجة على نقيض ذلك كانت تعتقد أنه غير جاد.. لو أراد الانتحار فعلًا لنجح في ذلك. ظل شيء ما يقيده للأرض.

- «أحسبه لم يرد ذلك حقًا.. لو أراده من سويداء قلبه لفعله بنجاح.. أؤمن أن باب الموت واسع مفتوح لمن يشتهي الموت. ثمة خيط واه لا يراه ولا نراه ظل يربطه بعالمنا».

طلبت منه ومن زوجته دخول المصحة لفترة، وطلبت أن يراقبوه بعناية. ودعوت الله ألا يفعلها هنا..

* * *

هذا الجزء أنا متيقن منه يا سيدي. لقد تم كل شيء أمامي وكنت شاهدًا عليه. مع الوقت بدا أن حالة محمود تتفاقم. هناك الصمت.. هناك الشرود.. هناك النظرة الحادة التي تخيف الآخرين. كان قادرًا على أن يجلس في الظلام بضع ساعات بينما تتوهج حدقتا عينيه من انعكاس الضوء القادم من خارج الغرفة، وكان التأثير شيطانيًّا..

عواطف الممرضة قالت لي وهي ترتجف:

- «أنا أخشاه يا دكتور. هذا الرجل مجنون».

قلت لها باسمًا:

- «بالتأكيد هو مجنون.. هل نسيت أين نحن؟».

- «ليس مجنونًا كالآخرين.. أعتقد أنه ممسوس..».

وهو كلام فارغ طبعًا. لو قبل الطب النفسي نظرية المس فلسوف ينتهي بتمزيق كل الكتب التي قام عليها. كل مريض نفسي أو مريض صرع يمكن أن يعطيك هذا الانطباع، لكن من أجل هذا وجد علم النفس والطب النفسي ورسم المخ الكهربي و الأشعة المقطعية

وأشـعة انبثاق البوزيتـرون. قطعة أخرى تقتطع مـن مملكة الخرافات لتنضم إلى مملكة العلم، حيث الشمس الساطعة وحيث الحقائق.

ليست الإجابة هي أنه ممسوس.

عباس الممرض قوي البنية قال وهو يرتجف:

- «أنا أخشاه يا دكتور.. هذا الرجل يعرف الكثير».

- «ماذا تعني بأنه يعرف الكثير؟».

- «عيناه تشيان بكل شيء. إنه يعرف لكنه آثر الصمت».

ما الذي عرفه؟.. العامل لا يعرف لكنه يخشى الرجل كالعقارب..

ليست الإجابة هي أنه يعرف أكثر.

الدكتور نصرت الطبيب الشاب قال وهو يرتجف:

- «أنا أخشاه يا دكتور.. هذا الرجل يملك قوة هائلة».

نظرت لجسـد محمـود الواهن وعضلاتـه الضامرة وبـدا لي الأمر مضحكًا.. قلت له:

- «حاول الانتحار مرارًا. المنتحرون أضعف الناس طرًّا» .

- «بـل هـو أراد الانتحار لأنه لم يتحمل كل هذه القـوة..! هذه قوة لم تخلق ليملكها بشري. لذا آثر أن يموت مع الديناميت الذي يحشو جسده».

راق لي التشبيه برغم أنه غير مقنع..

ليست الإجابة هي أنه قوي باطش.

جلست جواره في الغرفة وفي الظلام الذي لا يبدده إلا ضوء خافت يزحف من الردهة والكوة. كانت غرفة جميلة مريحة ولا تشبه تلك الزنازين التي تراها في السينما. كومود ودورق ماء ومزهرية وكتب وتلفزيون. لم يكن جنونه من الطراز الذي يوجب ارتداء قميص الكتفين أو البقاء في زنزانة مبطنة. هذا إذا كان مجنونًا أصلًا، فأنا أراه مجرد مريض اكتئاب. كما أن معظم التقارير كانت تعتبره هادئًا مسالمًا. فقط كنا نبعد عنه المدي والحبال والمقصات ومصادر النار على سبيل الحذر. لكن لو قرر أن ينتحر فلسوف يجد ألف طريقة وطريقة بالطبع. يكفي أن يحطم كوبًا ويمزق بشظايا الزجاج شرايين معصمه. القردة العليا تنتحر بالتهام برازها! كنت أرمق تلك الخيوط اللزجة التي تحيط بكفيه ومعصمه والتي ينزعها طيلة الوقت. خطر لي أنني بحاجة لاستشارة طبيب في الأمراض الجلدية ولكن فيما بعد.

قلت له العبارة المملة التي أبدأ بها في كل مرة:

- «محمود.. أنا أبغي مساعدتك».

ظل صامتًا ينظر للسقف..

- «يجب أن تثق بي».

ظل صامتًا ينظر للسقف...

- «أنت حاولت الانتحار مرارًا، وعليَّ أن أعرف السبب.. عليَّ أن أمنع المحاولة القادمة..».

ظل صامتًا ينظر للسقف...

ثم جلس فجأة متربعًا على الفراش.. مد يده إلى الكومود فتناول كتابًا ثم راح يعبث بين الصفحات، وفي النهاية بدأ صوته يخرج عميقًا رتيبًا أثار الرهبة في نفسي:

«رعب أكبر من هذا سوف يجيء

«لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت

«أو ببطون الغابات

«لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم

«أو تحت وسائدكم، أو في بالوعات الحمامات».

أعرف هذه الأبيات الرشيقة.. مأساة الحلاج.. صلاح عبد الصبور.. يمد يده ليلتقط كوب الماء.. يبلل شفتيه ويشرب عدة جرعات، ثم يعاود القراءة، وهذه المرة أصاحبه أنا بصوتي الذي جعله التدخين خشنًا:

«لن ينجيكم أن تلتصقوا بالجدران

« إلى أن يصبح كل منكم ظلًّا مشبوحًا عانق ظلًّا

«لن ينجيكم أن ترتدوا أطفالًا

«لن ينجيكم أن تقصر هاماتكم حتى تلتصقوا بالأرض

«أو أن تنكمشوا حتى يدخل أحدكم في سمّ الإبرة

«لن ينجيكم أن تضعوا أقنعة القردة

«فانفجروا أو موتوا».

أقنعـة القردة وبالوعات الحمـام.. لهذا يمكنك أن تعرف أشـعاره وسـط ضجيج الشـعراء في سـوق عـكاظ ذاتهـا. لا أحـد يتكلم مثل صلاح عبد الصبور سوى صلاح عبد الصبور.

قلـت لمحمود وقد عمّدت الأبيات صداقتنـا.. كأن حفظنا لها معًا أدنانا من بعض بضع خطوات:

- «مأساة الحلاج.. مسرحيتي المفضلة. لماذا اخترتها بالذات؟».

لكنه لم يكن يصغي. كان مطرقًا يفكر.. شفتاه تتحركان، ثم أدركت بعد لحظة أنه يردد همسًا: «فانفجروا أو موتوا» مرارًا لا حصر لها.

هذه النغمة مألوفة.. نغمة الفلاسفة والأنبياء الذين لم يفهمهم أحد في مجتمع كافر أو جهول. هل أشم رائحة البارانويا في هذا كله؟. هل يظن أنه المهدي المنتظر مثلًا؟. نصف مجانين العالم العربي حسـبوا أنهم المهديّ المنتظر، والنصف الآخر جنوا بسبب هاجس الماسونية. في كل مصحة في الغرب هناك من يعتقد أنه براد شاي، وفي كل مصحة عندنا هناك أكثر من واحد يعتقدون أنهم المهدي المنتظر.

ساد الصمت لفترة ثم عاد يتكلم:

- «١ - ١٣ - ١٢ - ٥ ------- ٦ - ١٦٠ - ١٩ - ٧ ------ --- ٢٢ - ٢٠٠ - ١٠ - ٣ .. لا تفعل.. لا تفعل.. لا تخضع للإغراء. لا تلتهم تفاحة الحب الآثم فتندم».

ما الذي يقوله بالضبط وما معنى هذا ولماذا يكرره؟

يتكلـم بصوت ثابت وثقة ضاغطًا علـى كل رقم... يذكرك بأجهزة الهاتف التي تنطق برقم المتصل بصوت آلي بارد..

كان الهاتف المحمول في جيبي، فمددت يدي أخرجه. لم يكن ينظر لي. ضغطت على زر التسجيل.. سوف أصغي لهذه الكلمات فيما بعد.. ربما كان لها تفسير ما...

النيولوجيزم شيء يعرفه الأطباء النفسيون جيدًا مع حالات السكيزوفرنيا. المريض يبتكر لغة جديدة تمامًا لها قواعدها وتصاريف أفعالها، لكن من قال إن هذه حالة سكيزوفرنيا؟ نحن في مملكة الاكتئاب ولم نعبر الحدود بعد. هناك سور عالٍ مخيف بين عالم الشعراء والفلاسفة الذين يشعرون بأن الحياة هباء، وعالم من يضعون كسرولة على رأسهم ويعتقدون أن المخابرات المركزية الأمريكية تتجسس عليهم. محمود ما زال في الجانب الأول.

راح يدندن أغنية غريبة لم أسمعها من قبل تقول كلماتها:

«حتقولي بالصوت الحزين:

مش عارفه إيه معنى الحياه؟

وتقولي: بتمر السنين

من غير حبيب أحلم معاه...».

شيء آخر جدير بالملاحظة عرفته من الصحف التي كان يحرص على قراءتها يوميًّا... كان يطالع الصحيفة في الصباح ثم يلقيها بإهمال على الأرض...

خطر لي ذات مرة أن أطالع واحدة من هذه الصحف، فأنا أهوى الأخبار البائتة.. هواية قديمة لي تشعرني كأنني قوي كالقدر. أقرأ عن

زواج الفنانة فلانة من الفنان فلان فأضحك.. لا يعرفان أن الطلاق سيتم بعد شهر. أقرأ عن الوزير فلان الذي يضع خططًا للعام القادم، وهو لا يعرف أنه سيفارق منصبه خلال شهرين بفضيحة مدوية. الإعلامي الذي يتكلم عن الغد بحماسة ولا يعرف أنه سيموت بعد أسبوع. مطالعة هذه الأخبار تمنحني سخرية سوداء لا شك فيها، مع شعور بالتفوق. وتقدرون فتضحك الأقدار..

كنت أطالع بعض هذه الصحف البائتة، تلك التي جلبوها من غرفة محمود جوار فراشه.. كانت الصفحات بالية مهترئة، وقد انسكبت فوقها بقع من شاي أو قهوة. ثم لاحظت أن هناك أخبارًا عدة تم قصها.. ليس بالمقص لأننا لا نسمح به كما تعلم حتى لا ينتحر، لكن تم تمزيقها باليد. نفس الشيء ينطبق على صفحة الوفيات.. هناك أكثر من نعي تم تمزيقه يدويًّا.

الفضول يخنقني لمعرفة ما كان في تلك القصاصات المنزوعة..

بحثت عن بعض الصحف القديمة التي لديّ في داري، وبدأت أقارن بين الصفحات بحثًا عن الأخبار التي تم قصها. فقيد أسرة الشوربجي وعزاء في قاعة كذا.. والصلاة على الفقيد في مسجد كذا..كل نفس ذائقة الموت.. المتنيح مينا إسكندر رحل إلى الأمجاد السماوية.. مع المسيح ذلك أفضل جدًّا... المهندس محمد حسين عم المهندس فلان ونسيب عائلات كذا وكذا في منيا القمح...

هل يوجد شيء مهم في هذا كله؟ هذه أخبار لا تهم سوى المتوفى وأقاربه وبالتاكيد لا تغري بجمعها.

وماذا عن الأخبار؟... فيضان في بنجلاديش.. زلزال في الدومنيكان... حادث مروع وأسرة كاملة تُقتل لدى اصطدام ميكروباص بشاحنة في وادي النطرون. جماعة بوكو حرام بنيجريا تقتل مجموعة من الشباب، وانفجار لغم في سيارة أمريكية في أفغانستان. طائرة تسقط فور إقلاعها في أستراليا. هذا حشد للكوارث لا أكثر. ربما كان يعتقد أنه من يسبب هذه الكوارث. هذا وارد ولن تكون المرة الأولى.

ماذا يفكر فيه؟ أعتقد أن الزوجة قد تملك مساعدتي.

٣ - مسألة خيال

عندما سمحوا له بالدخول، كان قد وصل إلى أسوأ الاحتمالات في خياله، فلو أن فرقة من حاملي البنادق أوقفته لصيقًا بالجدار وأفرغت الرصاص فيه الآن، لما شعر بغرابة. كان يخشى الهواء ويخشى الجدران ويخشى هذه العيون الباردة.

إنه في قلب الرحم النابض... هذا هو المكان، ولربما تلك هي الليلة.

جفف عرقه، بينما دنا منه ضابط شاب حليق الشعر وسأله عما يفضل شربه، فقال إنه راغب في بعض الويسكي بلا ثلج. من مكان ما ظهرت كأس وضعت في يده.

كانت القاعة ممتدة إلى ما لا نهاية، وهناك خارطة عملاقة للعالم على الجدار الغربي. الصورة التي رسمت في مخيلته عن الغرف المشابهة. ربما هي ظلال من فيلم دكتور سترينجلاف...

ربما كان زر التفجير النووي في مكان ما. ربما هناك الكمبيوترات العملاقة التي تبدأ عملية يوم القيامة. حاول أن تهدأ.. لا تبدُ عصبيًّا..

يتوقعون منك أن تكون عصبيًّا ولسوف يسعدهم هذا جدًّا. لا تمنحهم هذا النصر الصغير.

ثم سمع صوت الخطوات النشطة ومن مكان ما ظهر الجنرال...

لم يكن رجلًا مخيفًا.. لم يبد عسكريًّا على الإطلاق، بل يمكنك أن تحسبه بائعًا في محل. وكان في الخمسين تقريبًا له شعر حليق بالطريقة العسكرية المميزة، ويلبس بذلة مدنية عادية.

الجنرال أندرو هيل.. ليس هذا اسمه بالطبع. هنا لا يحمل الناس أسماءهم الحقيقية، ولربما كان لهم اسم جديد في كل يوم.

عندما اقترب الجنرال مد كفه مصافحًا. له يد باردة قوية صارمة، وكانت عيناه جديرتين بهذه اليد. لكن ابتسامة دافئة كانت تغمر وجهه. ابتسامة حقيقية من التي يضيق لها ركنا العينين، وكان ريتشارد قد تعلم أن يميز ابتسامة (دوكان Duchenne) المصطنعة التي لا تحرك تجاعيد ركني العينين.

- «مستر دواير.. يسرني لقاءك في مكتبي المتواضع».

وهي دعابة بالطبع.. فالمكتب قد يوصف بأي شيء عدا التواضع. هكذا تخيل ريتشارد مرارًا المكاتب المماثلة في البنتاجون، ولكنه اعتمد بالكامل على ما يراه في أفلام من طراز د. سترينجلاف وألعاب الحرب.. للأسف لا يمكن أن تجد صورًا لتلك الأماكن، لكنه عرف أن ستانلي كوبريك استعان في تصميم غرفة العمليات في فيلم د. سترينجلاف بصور مسروقة من المكان الحقيقي. هكذا يمكن القول إنه النموذج الأكثر دقة.

هـذا هو البنتاجـون.. مكتب مجهول غامض فـي البنتاجون. رجل غامض اسمه الجنرل أندرو هيل يريد لقاءه. لماذا؟

ريتشارد دواير رجل في الأربعين من العمر، له لحية قصيرة مشذبة بعناية، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه، وله عينان واسعتان متسائلتان.. يضع عوينات شفافة بلا إطار تضيف لمظهره فخامة لا تعرف مصدرها.

ريتشارد دواير مطلق. ريتشارد دواير نموذج لرجل منتصف العمر الأمريكي، لكنه كذلك عبقري. ريتشارد دواير فقد زوجته الأولى في مركز التجارة العالمي، وقد اتصلت به في مكالمة أخيرة دامعة.. قالت له وهي تنشج:

- «قبّل سارة من أجلي. إن الفولاذ يحترق. المصعد صار بئرًا للشيطان.. لا أقدر على الفرار ولا أقدر على الوثب من النافذة كما فعل محظوظون آخرون. تمن لي أن أموت الآن.. تمن لي أن تقتلني الصدمة العصبية قبل أن تتمسك النار بلحمي فيذوب. قل لي إن العالم الآخر أكثر رحمة.. قل لي إنني لن أحترق في هذا العالم والعالم الآخر كذلك... ».

ثم انقطعت المكالمة، وحتى هذه اللحظة ظل يدعو الله ألا تكون قد ماتت حرقًا.. ربما بالصدمة العصبية كما تمنت. أو خنقًا بأول أكسيد الكربون، أو هوت عارضة فولاذية على رأسها فمنحتها نهاية مختصرة. كان ينهض في منتصف الليل ويصرخ:

- «اهربي يا كاتي!».

زوجته الثانية جانيس لم تتحمل هذا الجنون وتم بينهما طلاق متحضر مفعم بالتفاهم، أقرب طلاق للحب منذ اخترعوا الطلاق.

لكن دواير لم يعتقد قط أن القاعدة فعلتها. ظل الموضوع أكثر تعقيدًا وتقدمًا من أن يقدر عليه هؤلاء الملتحون المتوارون في كهوف أفغانستان.. لم يجسر على الاعتراف بهذا لأنه كذلك يمقت نظريات المؤامرة وكل الهراء المماثل عن الماسونية والنورانية.. إلخ. لو رفضت نظرية الانتحاريين الإسلاميين فعليك أن تجلب نظرية أفضل.. أفضل من نظرية جنرالات الجيش الأمريكي الذين يريدون مبررًا لاحتلال العراق، وزرعوا شرائح الكترونية في الطائرات ليتم توجيهها عن بعد. لن يعرف أحد أبدًا ما تم في سبتمبر ٢٠٠١.. سوف تظهر عشرات الكتب لكن أحدًا لن يعرف الحقيقة أبدًا. لقد فر الفاعل الحقيقي بما اقترفه.

ما يهم هنا هو أنه تنبأ بهذا السيناريو قبل وقوعه بعشرة أعوام.

الكل في أمريكا قرءوا روايته (الشيطان في التفاصيل) وهي رواية محكمة مثيرة وثبت باسمه إلى قوائم أفضل المبيعات، وقوائم كتاب الخيال العلمي البارعين.

لم تكن هذه هي الزيارة الأولى للبنتاجون. لقد أدرك أن روايته ألقت علامات استفهام كثيرة من حوله. حتى خطر للبعض أن الإرهابيين قرءوها ونفذوا ما فيها حرفيًا.

وكان بشكل ما يعرف ما سيقوله الجنرال.. يعرف ما سيقوله لكنه لا يعرف ما سيطلبه.

على دخان السيجار المتصاعد الذي يصنع دوائر لا تتوقف، والكأس في يده يبدو الرجل مستمتعًا بنفوذه والقوة الهائلة التي يشعها حوله، لكنه برغم هذا لا يبدو مخيفًا. ينظر أندرو هيل إلى ضيفه مفكرًا ثم يقول:

- «قرأنا قصصك المتعددة في الخيال العلمي، وبعضها ينتمي لقصص ما بعد المحرقة. دعني أؤكد لك أنني أحببت كل حرف كتبته وتعلقت بخيالك الجامح جدا».

كان الواقفون ينظرون لدواير في اهتمام.. في فضول... في قلق.. النظرة التي نراقب بها حشرة خطرة تحت المجهر. هي لن تؤذينا ولا تقدر، لكن ينبغي أن نكون حذرين.

واصل الجنرال:

- «الرئيس يقرأ أعمالك ومعجب بها جدًّا وهو من أوصى بأن تكون معنا».

تساءل دواير:

- «معكم؟».

قال الجنرال ورماد السيجار يتساقط دون وعي:

- «القرن العشرون كان أمريكيًّا.. وعلى الأرجح سيكون القرن الواحد والعشرون أمريكيًّا.. على الأقل لأول خمسين عامًا منه، لكننا لا نقدر على التفاؤل للأبد.. هناك قوى ستنمو وتزيح أمريكا من على عرشها. لعبة الكراسي الموسيقية التي تلعبها الأمم مستمرة للأبد.

لا تنس أن الإمبراطورية الرومانية التي زلزلت العالم صارت اليوم هي إيطاليا البائسة الضعيفة. الإمبراطورية البريطانية الرهيبة التي لا تغيب عنها الشمس صارت إنجلترا الغارقة في مشاكلها الاقتصادية. الدولة الإسلامية التي غزت شبه جزيرة إيبريا وبلاد ما بين النهرين وشمال أفريقيا وكادت تبلغ فرنسا، هي اليوم تلك المجموعة المتشرذمة من الدول العربية التي تنتمي للعالم الخامس.. يجب أن نكون واقعيين ونعرف أن الدور آت علينا حتمًا، وعلينا أن نحافظ على مكانتنا وموضعنا لأطول فترة ممكنة. يجب أن نتحدى الإعصار».

قال دواير:

- «سيدي... كل هذا جميل، لكن الموضوع أكبر مني بمراحل.. لا تتصور انني سأحفظ لأمريكا مكانتها».

ابتسم الجنرال في وهن وقال:

- «مهمتك هي الخيال. الخيال ولا شيء سواه. عليك أن تتخيل السيناريوهات الممكنة التي يمكن أن تجعل أمريكا تفقد موضعها المتميز. ما هي الكوارث التي يمكن أن تحل بنا وبحضارتنا في المستقبل القريب والبعيد؟. لن تردد كلام رجل الشارع حول الصين والهند القادمتين وانتصار التنين والفيل.. لن تتكلم عن نهضة ألمانيا أو الخطر القادم من جنوب شرق آسيا. أريد سيناريوهات معقولة مثل ما رسمته عن سبتمبر ١١ ... ».

مهمة غريبة. أن تتخيل كيف سوف تنتهي أمريكا. في الوقت ذاته عليك أن تبتعد عن السخف، على غرار الأطباق الطائرة التي تنسف

البيت الأبيض في فيلم يوم الاستقلال. هناك ضرب من الخيال العلمي اسمه «الأوكرونيا» أو الخيال البديل Allohistory وهو قائم بالكامل على لعبة «ماذا إذا؟». على طريقة كيم ستانلي روبرتسون في «أيام الأرز والملح»... ماذا لو فشل الهجوم على بيرل هاربور؟ ماذا لو لم تنفجر قنبلة هيروشيما؟ ماذا لو عاش كنيدي؟..

ولكن هذه ليست بالضبط مهمتك. هناك نماذج محاكاة بالكمبيوتر يمكنها أن توصل الخطوط إلى أبعد مدى ممكن.. لماذا لا يستعينون ببعضها؟ البنتاجون لا يفتقر للمبرمجين.

قال الجنرال بعد ما سمع السؤال:

- «لدينا هذا وأكثر، لكننا بحاجة لخيال بشري عبقري.. وأنت تملكه. الآلة تفكر بسرعة وإتقان لكنها غبية ولا تبتكر.. الآلة لا تملك خيالًا.. ابني يلعب الألعاب الإستراتيجية طيلة الوقت لكنه لم يمنحني فكرة واحدة خلاقة أو مهمة».

فكر دواير قليلًا ثم قال:

- «تريدون مني أن أجلس وأكتب وأرسل لكم ما كتبت؟».

- «تقريبًا..».

وأشار الجنرال لأحد الرجال كي يقدم له ملفًّا مكتنزًا:

- «سوف يكون لك مكتب صغير في البنتاجون.. لديك سكرتارية وعدد من الباحثين.. يمكنهم أن يغطسوا في أي واقعة أو معلومة تريدها. عليك أن تتخيل.. وهذه التخيلات ستتحول لتقارير ترفعها لنا وللرئيس».

- «مثلًا.. هل أتخيل أن ماليزيا صنعت قنبلة اسمها مرديكا وألقتها فوق واشنطن؟.. هل هذا هو ما تريدون؟».

- «تقريبًا.. لكنك ستفسر لنا الأسباب والقدرات التي جعلت ماليزيا تتوصل لهذه القنبلة. لماذا أطلقت عليها اسم مرديكا؟ لماذا ألقتها علينا؟ ما غرضها؟ هل فهمت قصدي؟ نحتاج لما هو أعقد من الرجم بالغيب».

- «مرديكا معناها الحرية».

- «أعرف هذا».

بدا لدواير أن الأمر سيكون مسليًا..

المشكلة هي أنه لن يستطيع الكشف عن هذا الجانب من حياته المهنية أبدًا. سوف يكون مثل «الكاتب الشبح» الذي يستثمر عبقريته كلها كي يسجل أحد المشاهير الحمقى مذكراته. الكاتب الشبح ينال المال لكنه لا ينال ذرة من المجد الأدبي، ولو اعترف أنه من كتب الكتاب فلن يصدقه أحد، مع البنتاجون سوف ينال دواير مالًا ونفوذًا لكنه لن يحقق أي شهرة أو مجد..

قال الجنرال وقد خمن ما يفكر فيه:

- «هذه مهمة وطنية.. العم سام يريدك... كان سومرست موم جاسوسًا لبلاده آناء الحرب العالمية، وله أن يفخر بهذا. لا أعتقد أنه كان سيرفض عرضًا مماثلًا، ولا أحسبك سترفض عرضي فأنا أعرف الأمريكي الحق عندما أراه».

لكـن موم كتـب عن تجربته هـذه فيما بعد وافتخر بهـا... ترى هل يكتب لي أن أكتب عن مهمتي هذه؟.. موم كتب «كنت جاسوسًا» فهل أكتب أنا «كنت أتخيل سيناريو النهاية»؟؟

ستكون مهمة شاقة حتمًا لكنها بالتأكيد مجزية...

دواير تخنقه أسئلة بلا جواب..

٤ - التحولات

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. هي لا تملك طموحات خاصة سوى البيت والأسرة.

اسمها سلوى عمران. محامية شابة.. أعتقد أنها جميلة لكن رأيي ليس مهمًا على كل حال..

اسمها سلوى عمران. وقد كان كثيرون يرغبون في التقدم لها، أو التورط في علاقة معها.

اسمها سلوى عمران. لكنها تزوجت الأخ غريب الأطوار محمود السمنودي.

لا يمكن فهم كيف تمت هذه الأمور، فشخصية محمود السمنودي لم تكن من الطراز الذي يتقدم لامرأة للزواج. يصعب عليَّ أن أتخيل أن هذا الشيء يملك قلبًا أو هرمونات أو رغبات جنسية. على الأرجح كانت تلك مرة جاءت فيها الوالدة للمحكمة ورأت تلك المحامية الشابة النشطة تتواثب هنا وهناك، وهي تطالع الرول وتقف خارج قاعات الجلسة تنتظر دورها، وتهمس لشهود القضية ناصحة بما يجب

أن يقولوه، ثم تهرع لتشرب بسرعة كوبًا من الشاي ثم تعود. رأتها الأم مكتملة الأنوثة ومحجبة - لم يخف الحجاب أنوثتها - ذات وجه قسيم ويبدو أنها بنت ناس، فلابد أنها وضعت الخطط وراحت تتخيل وحيدها وسط أطفاله. الحق أن الفتاة راقت لها جدًّا، فلو تزوجتها هي بدلًا من ابنها لعمت السعادة الجميع!

لابد أن الفتى قاوم كثيرًا جدًّا.. لابد أنها بكت كثيرًا وضربت صدرها، وتمنت أن تموت أمام عينيه ما دام لا يريد أن يسعدها.

في النهاية بدأ يلين وسمح لأمه أن تسحبه كالبقرة إلى دار سلوى عمران، حيث دار كلام كبير عن النصيب والناس الطيبين والأصل.. وفي النهاية وجد نفسه يطوق إصبعها بدبلة.

لابد أن هذا البائس عانى كثيرًا جدًّا. هناك شيء مرعب اسمه الذهاب للسيالة في دمياط لشراء أثاث، وهناك شيء مخيف اسمه تشطيب الشقة، وشيء مفزع اسمه حفل الزفاف. لن يسمحوا لك بالنوم مع زوجتك إلا إذا رحت تتواثب كالقرود ليلة كاملة، على صوت الموسيقا الصاخبة ودقات الطبول.. كلما عرقت أكثر اقتربت لحظة الخلاص.. الأقسى أن تتحمل هذا كله من أجل شيء لا تريده.

أما عما حدث لدى انغلاق الباب عليهما فأمر متروك لخيالنا جميعًا، لأن محمودًا لم يحك حرفًا لي وهي كذلك لم تفعل. يقتلني الفضول كي أعرف ما تم وكيف مرت اللحظات المحرجة الأولى. هل قال إنه يحبها أو إنه سعيد؟.. هل داعب شعرها أو لامس بشفتيه شفتها السفلى؟.. مستحيل..

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. واعتقادي الخاص أنها لم تجرب الجنس قط... لماذا أعتقد ذلك؟ لأن طبيعة محمود لا تسمح سوى بهذا ولأنني قد اقتربت منها كثيرًا فيما بعد.

ما يدفعني لقول هذا أيضًا هو اكتئابه ومحاولات الانتحار. هل كان العجز الجنسي سببًا؟ لم يقل هذا قط لكني قادر على استنتاجه.

كانت في الفترة الأولى التالية للزواج، لا تعرف أين الشاطئ، ولا تعرف إن كانت ستعود له - الشاطئ - أم تتوغل في البحر قليلًا. بدا لها اتخاذ قرار أمرًا مربكًا وعسيرًا.

وعندما كانت أمها تسألها عما تم مع زوجها كانت تردد:

- «إن شاء الله».

هذا حق يراد به باطل.. كل الأمور بمشيئة الله لكن هل هذه إجابة معقولة لسؤال كهذا؟ ..

كانت لا تفهم كذلك الجانب المظلم من شخصية محمود، وهو الجانب الذي كان يدفعه للسهر ليلًا لساعات طويلة وهو يطالع كتبًا غريبة.. بعض الكتب كان بالعربية وكانت له عناوين ورائحة تثير القشعريرة في جسدها. جو الغبار والخرافات والجهل الشبيه بكابوس.

بعض الكتب كان بالإنجليزية ويبدو عتيقًا... وكان محمود يطالع تلك الكتب بسهولة واستغراق ويضع خطوطًا ويدون أرقامًا على الورق.

كان يحتفظ بتلك الكتب في (النيش) الخشبي الرخيص الذي يحتفظون فيه بالأطباق. يخرجها عند المساء ويجلس لساعات إلى

مائدة الطعام يطالع ويضع خطوطًا.. وكانت تتساءل عن الوقت الذي يخصصه للقضايا ما دام ليله كله وسط هذه الألغاز.

ذات مرة فتحت (النيش) وأخرجت كتابًا غليظًا مكتوبًا بالإنجليزية منه. راحت تتأمل الغلاف ثم قلبت الصفحات.. لا تفهم معظم المكتوب لكنها رأت صورة امرأة مسنة شمطاء نوعًا، وحركت شفتيها محاولة نطق الاسم:

- «بـ... ل... ا... ف.. ا.. ت..س... ك...ي... بلافاتسكي».

تبًّا لهذه الأسماء!.. كل شيء معقد في الحياة حتى الأسماء. لكن الكتاب كان يحوي صورًا لأهرام ومعادلات معقدة وجداول فيها أرقام. هذا ضرب من العلم لكنها لا تعرف ما هو.

أثناء تناول الغداء سألته عن هذا العلم الذي يدرسه كل ليلة فأبطأ في سرعة المضغ كمن يفكر، وقال وقد صارت نظرته حادة أكثر:

-« هل ترين ما يدور خلف ظهرك؟».

أجفلت وكادت تستدير، فقال:

- «دون أن تستديري..».

قالت على الفور:

- «مستحيل أن أراه.. لابد من مرآة..».

ابتسم ابتسامة ثقيلة وقال:

- «لقد قلت الحقيقة.. لابد من مرآة.. أنا أبحث عن هذه المرآة... أبحث عنها منذ عقدين».

- «أنت تدرس السحر؟».

- «ليس هذا هو السحر.. ما أطالعه هو محاولة الإنسان لفهم الكون من حوله. سنموت دون أن نعرف.. سنعرف بعد الفناء، ووقتها لن يفيدنا هذا العلم. ما حاوله هؤلاء هو محاولة النظر في المرآة لرؤية ما استغلق علينا.. ما يدور في الأركان المظلمة.. نعرفه ونحن بوعينا هذا».

بدا لها هذا الكلام نظريًّا أكثر مما ينبغي، خياليًّا أكثر مما يطاق، ولكنها المرة الأولى التي بدأت تتساءل فيها: هل تزوجت مجنونًا؟. تعرف عوالم الصوفية جيدًا وقرأت عنها، لكن زوجها لم يكن يتكلم من عوالم الصوفية. كان يتكلم من عوالم مبهمة تشبه كلمات الكهان والعرافين الغامضة، حتى توقعت أن يقول: إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة..

* * *

أعتقد أن التجربة تمت في إحدى ليالي فبراير.

كانت سلوى في زيارة لأمها في الجيزة، ثم عادت للدار نحو الثامنة مساء. لسبب ما كانت السماء مربدة بالغيوم، وبدأت الأمطار تهطل بغزارة.. في مصر يكفي سنتيمتران من المطر حتى تتبدل كل قواعد الحياة، وتصير الشوارع أكثر ازدحامًا والبحث عن مواصلة أعقد، والماء يرتفع حتى ليغرقك تمامًا، والسيارات تبعثر البلل في كل صوب. رائحة الهواء الرطيب كأنه كلب فرغ من الاستحمام، مع ذلك التقلص في معدتها. منذ طفولتها كان الجو الماطر والليل المبكر يشعرانها بدنو مصيبة ما. كأنه الحشد الذي يتجه إلى الحساب في يوم الدين.

أخيـرًا وجـدت الميكروبـاص البطل الـذي حملهـا لدارها، وهي تشعر بالدفء الخانق داخله وتحمل هم البرد القارس بالخارج.

- «محموووود!».

قالتهـا وهي تفتح باب الشـقة بيدها الراجفة والمفتـاح الذي يدور بصعوبة..

- «محموووود».

وللحظة حسـبت أنه خارج البيت، ثم أيقنت من الأنوار أنه موجود بالداخـل.. حسـبت أنه في غرفتـه يطالع تلك الكتب السـخيفة.. لكنه لـم يكـن هناك. أخيرًا هرعت لغرفة النوم فوجدته على الفراش.. كان راقـدًا وقد فتح قدميه وذراعيه ليبـدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سـقط فوق الفـراش على ظهـره. عيناه مفتوحتـان زجاجيتان تحدقان في السـقف ولا تريان. هناك عصابة يبدو أنه كان يحجب بها عينيـه مـن النور كما يفعل من يريدون أن يغفوا فـي طائرة، وكذا كانت هناك سـدادات فـي أذنيه.. لا يريد أن يسـمع حرفًا.. هـذا رجل وضع نفسه في حالة حرمان حسي شبه تامة.

- «محموووود!».

وهي تنزع سدادات الأذن.

لم يكـن نائمًا.. منظره الأقـرب للصحو منه إلى النـوم أثار هلعها، وتذكـرت تلـك النظرة المخيفـة الجامدة فـي عيون دمـى المحلات. مخيفـة لأنهـا لا تنتمي لحياة ولا موت. هناك اسـم لهـذه الظاهرة هو Uncanny valley لكن سلوى لا تملك هذه المعرفة.

وثبت جواره على الفراش وراحت تهزه.. لم يستجب.. شدته من ياقة المنامة وواصلت الهز. ليلة سيئة جدًّا للموت.. ليلة سيئة للبحث عن طبيب وسط هذه العواصف، واحتشاد الجيران والاتصال بالأقارب.. ليلة سيئة للفزع... ليلة سيئة لتصير أرملة بهذه السرعة.

- «محمووود!».

لكنه حي.. يتنفس بانتظام ولا يوجد شيء غريب سوى هذه الغفوة العميقة، وسوى العينين المفتوحتين. بحثت جواره عن أقراص.. أقراص انتحر بها أو شيء من هذا القبيل فلم تجد.

لا يوجد تفسير.. كانت تدرك يقينًا أن شعرها يشيب في هذه اللحظات. ثمة شعور غامض يباغتها ويشعرها أن هناك من يراقبها.. يراقبهما معًا. نظرت لأعلى شاعرة بعدم الراحة.. لو أن هناك كاميرا في السقف مسلطة تتبصص عليها لما اندهشت، لكن هذه شقتها وتعرف كل ركن فيها.

الدكتور الشاب محيي في الشقة العلوية.. ليس أستاذًا عبقريًّا لكنه يملك معرفة ما يحدث، أو يعرف أين بداية الطريق، وهكذا هرعت تدق الباب وهي تتهانف بلا توقف، وبعد دقيقة كان الطبيب حديث التخرج بثياب النوم يقيس ضغط زوجها ويصغي لدقات قلبه، ويدق بالمطرقة على أوتار ركبته. وخزه بالدبوس مرارًا فلم يستجب...

- «إنه حي..».

- «أعرف هذا..».

- «وهو في غيبوبة مفتوحة العينين».

- «أعرف هذا..».

- «لابد من عون».

- «أعرف هذا..».

وهكـذا جلس الطبيب الشـاب الذي يرتدي منامتـه، وراح يحاول طلب الإسعاف بالهاتف الأرضي، ثم راح يجرب بالهاتف المحمول. هـذه ليلة طويلة مـن العناية المركزة والأشـعة المقطعيـة وربما الرنين المغناطيسـي... هذه ليلة قد تنتهي بالمشـرحة والغسل والأكفان على الأرجح...

كانـت هي فـي الوقت ذاته قد بـدأت تتصل بالأهـل.. بالأقارب.. بمن تعرفه ومن لا تعرفه... البعض يرد والبعض لا.. الشبكة متدهورة تمامًـا بفعـل العاصفة... لو كان عـلاء هنا.. علاء.. تتذكـره الآن وهو يرمقهـا بتلـك النظـرة المتعبدة الخاشـعة.. ومـن أجل هـذه النظرة لم تسـتطع أن تكـون له. كانـت بحاجة لزوج لا لعبـد مخلص... لو كان هنا لفعل.. فعل ماذا؟... لا تعرف...

كانت تحاول بلا توقف عندما سمعت صراخًا من غرفة النوم..

هل حانت اللحظة بهذه السرعة؟ هل شهق محمود شهقته الأخيرة وارتجـف صدره ثـم رحل؟ ترى هل أغمض عينيـه؟ الصرخة جاءت من جارتها أم الطبيب...

هرعـت لغرفة النـوم وللحظـة وقفت على البـاب لا تتبين شـيئًا.. الجـارة وجارة أخرى والطبيب يحيطون بالفراش، وسـمعت سـعلة.. هذه سعلة محمود بلا شك....

دنت أكثر فرأته جالسًا مستندًا على صدر الطبيب وهو يواصل السعال.. إنه حي!... أفاق من الغيبوبة قبل أن تبدأ..

هرعت نحوه، وضمت رأسه المترنح إلى صدرها.

عيناه بلون الطماطم وقشور تلصق شفتيه ببعضهما... والأغرب هي تلك الخيوط اللزجة كخيوط العنكبوت تحيط بأنامله وتغلف تجاعيد وجهه. ثم أدركت أن هناك ما هو أغرب... شعر رأسه الفاحم قد صار أبيض كله!

* * *

لعل هذه يا سيدي المحقق هي اللحظة التي بدأت فيها كل مشاكلها. المراقب غير المدقق سيحسب إفاقة الزوج نهاية متاعبها، بينما من يعرف القصة كاملة مثلي سيتمنى لو كان محمود قد هلك.. لو حملته دوامات الغيبوبة إلى المحيط الذي لا يرجع منه أي مسافر. لو أنه لفظ الجسد المتحلل والعفن لتتحرر روحه وحدها وترحل. لكن هذا أجمل من أن يكون حقيقيًّا.

سألتْه مرارًا عن الغيبوبة فقال:

- «لم تكن غيبوبة.. كانت رحلة.. ».

عادت تسأله:

- «هل هي نوع من تواجد المتصوفين؟».

- «قلت لك إنها رحلة وقد عدت منها».

وراح ينزع الأنسجة اللزجة التي تحيط بأنامله. فقالت له:

- «لابد أنها استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات».

نظر لها في دهشة واتسعت عيناه ثم عاد يواصل ما بدأه، وقال:

- «بالنسبة لي استغرقت الرحلة شهرًا».

تأملت رأسه وقالت بحذر:

- «شعرك قد صار أبيض.. ألم تلحظ هذا؟».

- «لو لم يصر شعر من رأى الهول أبيض كالثلج، فقلبه أسود كظلام القبور».

- «أي هول رأيت؟».

- «ما من ألفاظ تصف الهول، وإنما هي محاولة احتواء الأعاصير في رئتيك. قلما تفلح».

ثم نظر في عينيها وقال:

- «لا تفعلي.. لا تستسلمي لنسيج العناكب يلتف حول نقائك وفضيلتك».

أهي الكوابيس؟ هو نام وغاب عن عالمنا ورأى كوابيس. هذه الكوابيس بلغ من بشاعتها ومن صدقها أن التجاعيد غزت وجهه، وأن شعره استحال أشيب في ساعة.. ماركيزات الثورة الفرنسية كن يشبن تمامًا في ليلة الذهاب للمقصلة. هذا شيء معروف...

المهم أن يستعيد وعيه ومزاجه القديم. ليته يعود هو.. الغريب أن الزوجة كانت تمقت حياتها الأولى وغرابة أطواره، واليوم هي تتوق إلى لحظة واحدة من ذلك الماضي.

لم يكن يأكل..

لم يكن يشرب تقريبًا..

لم يكن يغفو..

لم يكن يعمل..

لم يكن يضاجعها (وهو الشيء الوحيد الذي لم يتغير في طباعه).

كان يمضي الساعات وحيدًا يرمق الحائط بعينين جاحظتين وترتجف شفتاه بكلمات لا تفهمها. وأحيانًا كانت تسمعه يردد أرقامًا.. أو يهمس: «فانفجروا أو موتوا» مرارًا لا حصر لها. أحيانًا يجلس وحيدًا ليكتب.. يكتب ثلاث أو أربع ساعات..

نعم.. يومًا بعد يوم يدنو أكثر فأكثر من حافة نهر الجنون.. سوف يغطس فيه ولن يعود ثانية. بل ربما هو الآن غريق بالفعل لكنها لا تعرف.

ميزانية البيت تنهار وقد اعتادت أن تقترض المال من أمها، ثم راحت تقترض اللبن والدجاج.. ثم لم تعد تقترض لأن زوجها لا يأكل تقريبًا وهي تكتفي بشطيرة من الفول...

تكنس الشقة فتجد الكثير من تلك الخيوط اللزجة التي لا تعرف كنهها. تتخلص منها في اشمئزاز عارفة أنه يملك مخزونًا لا ينتهي منها.. صديقة لها قالت إن هذه عدوى فطرية ما وعليها أن تسأل طبيبًا..

ثم لاحظت أنه يمضي وقتًا طويلًا مع الصحف..

عندما كانت تحمل الصحف من حجرته رزمة ثقيلة لتتخلص منها، كانت تلاحظ أنه قص بعض المربعات من الصفحات. ولاحظت أن معظم هذه المربعات هي من صفحات الوفيات...

سمعت من قبل عن وسواس قهري كهذا. هناك قوم يتلذذون بالموت جدًّا، وملاحقة صفحات النعي تمنحهم لذة أكيدة كأنهم انتصروا على الهلاك. هذا المزاج شائع جدًّا ويكفيك أن ترى المحتشدين حول حادث سيارة مروع على جانب الطريق.. ليس هؤلاء جميعًا ممن يرغبون في مد يد العون أو الباحثين عن مصابين.. إنهم متشفون لا أكثر. نحن أحياء وهؤلاء ماتوا.. مرحى!. لكنها لم تسمع أن زوجها من هؤلاء ولم تعهد فيه هذا المزاج من قبل.

طلبت منه مرارًا أن يخرج ويرى الشمس بعض الوقت، وبرغم اكتئابه المروع فإنه كان على استعداد لأن يطيعها.. هي الطاعة المطاطية التي صار يتعامل بها مؤخرًا.. هو الاستسلام المطلق.. هو سلوك الشاة التي يقودونها للذبح...

راحت تراقبه وهو يرتدي ثيابه.. هزيل نحيل اضطر إلى أن يضيف ثقبين إلى الحزام ليتمسك بخصره، واختار أضيق قميص عنده.. الياقة متسعة حول عنقه الناحل كأنه عنق سلحفاة يطل من درقتها. هذا سرطان... خطر لها الخاطر المروع عدة مرات.. لا يوجد ما يفسر القصة سوى السرطان، ولكن كيف تعرف؟

أوصته بالاحتراس... بدا لها مرشحًا لأن يتدحرج على الدرج ويهشم عنقه في أول لحظة. وعندما سمعت الباب ينغلق، هرعت إلى حجرته..

فتحت (النيش) الخشبي الرخيص الذي ابتاعاه يومًا ليتظاهرا بالسعادة وبأنهما من الأسر التي تملك (نيش). النيش الذي تعرف

أنـه يضع أوراقه فيه. بيـد راجفة راحت تقلب بين الكتـب الكئيبة التي حفظتها جيدًا... وجدت مفكرة صغيرة.. وفي المفكرة وجدت حشدًا من الخطوط والعلامات، ثم قائمة أسماء:

١ ـ عباس أمين الخولي.

٢ ـ مينا وديع إسكندر.

٣ ـ نادية أبو المجد.

٤ ـ محمد سعد أبو حامد.

٥ ـ رامي وجيه أسطفانوس.

٦ ـ مصطفـ................

مـن هؤلاء؟ ماذا يربط بينهم ؟ فهم ليسـوا من أقاربهم ولا أصدقاء الأسـرة، وبالتاكيد ليسـوا زملاءه في العمل. لم تسمع عن محام اسمه عباس أمين الخولي قط. لا يمكن العثور على عامل مشترك كأن تكون أسماء ذكور أو أسماء إناث أو أسماء مسلمين أو أسماء مسيحيين.

لاحظت كذلك أن هناك أسـماء مشـطوبة بقلم أحمـر. كأنها قائمة بمـن هو مديـن لهم وقد قام بشـطب من سـدد دينه لـه. راحت تقلب الصفحات أكثر وهي ترتجف.. لو عاد الآن لكان موقفها عسـيرًا على التبرير..

ثم كراس رسـم كبيـر يبدو أنه يسـتخدمه للصـق القصاصات التي يجمعهـا. فتحته وراحت تتابع القصاصات.. مجلس إدارة شـركة كذا يشـاركون السـيد المديـر العزاء لوفاة خالـة عمة زوجته.. أفـراد عائلة الشـشـماوي يعلنـون أنهم هم الأقـوى والأعز نفرًا وهـم الأكثر سـطوة

وسيطرة على مناصب البلاد كلها.. شعث مفارقنا تغلي مراجلنا.. نأسو بأموالنا آثار أيدينا.. أو لا نأسو...

ثمة ملاحظة مهمة.. بعض الأسماء الموجودة في القصاصات وجدتها من قبل في المفكرة. عباس أمين الخولي في قصاصة ورامي وجيه في قصاصة أخرى.. بل تم الشطب على اسميهما في المفكرة كذلك بالقلم الأحمر. وابتسمتْ.. يذكرها الأمر بأفلام الانتقام، عندما يكتب البطل قائمة بأسماء أعدائه ويشطب اسمًا كلما مات واحد منهم. ولكن.. شعرت بتقلص في معدتها...

هل هذا ممكن؟ هل يكون زوجها هو القاتل؟ طبعًا هو سخف واضح.. كل هذا العدد من الموتى ومنهم من مات في حادث أليم أو بعد معاناة طويلة مع المرض.

هذا لغز أكيد.. لو كانت القصاصات جاءت بعد المفكرة فمعنى هذا أنه أعد قائمة بمن سيموتون في الفترة القادمة، وكلما مات واحد شطب اسمه. المزيد من السخف. ولو كانت المفكرة بعد القصاصات فمن أين جاءت الأسماء التي لم يشطب عليها؟

على كل حال لا وقت لمسح القصاصات كلها. ربما كانت جميعًا في المفكرة، وهذا يعني أن زوجها يمارس هواية كئيبة هي جمع أسماء الموتى من الصحف. هواية تدل على خلل نفسي أكيد لكنها ليست جريمة لو أردت رأيي.

كانت قد أعادت كل شيء لمكانه عندما سمعت باب الشقة يفتح.

دخل زوجها إلى الشقة وهو يترنح. يبحر كالسفينة التائهة وسط ثيابه.. ألقى بنفسه على الأريكة وفك زرين من ياقة قميصه وهتف:

-« لنداء الأبالسة لا تخضعي. في الطرقات يتوارى الخطر.. في المنعطفات.. في السهول.. في الأخاديد وكل خور منسي. شر الأكوان يمضي في موكب النصر مرتديًا أكاليل الغار كل يوم، بينما لا يبقينا أحياء سوى أمل واه في أن ننتصر نحن يومًا. منذ الخليقة والضعفاء ومهيضو الجناح ومعدومو الحيلة يشتهون نصرًا واحدًا وكذا استمرت الحياة.. خدعة تلو خدعة.. جزرة تلو جزرة.. ولولا الأمل الخافت لقطع كل منا حلقوم أخيه».

ثم شهق وأردف:

- «هنالك في كوخ قفر عند أطراف برية منسية، يغفو مفتاح اللغز، بينما تترصده الضباع وجيوش المغول وجواسيس الوالي. لو تجاسر على الخروج من الكوخ لمزقه ألف ناب وألف سوط وألف سيف».

ثم نظر لها نظرة طويلة أربكتها... نظرة طويييييييييلة جدًّا. ثم همس:

- «لا تعبثي بأوراقي فلن تفهمي!».

هتفت في رعب وهي تضرب بكفها على صدرها:

- «أنا أعبث بأوراق.....؟ ».

إصبع سبابة يحذرها وشفتان مطبقتان:

- «صه.. لا أطيق الكذب. فقط قولي إنك ستمتثلين!».

- «لكني لم..........».

- «صه.. لا أطيق الزيف.. لكني أعشق الطاعة».

لم ترد أن تجازف بالمزيد من الإنكار. واضح أنه يعرف. في عينيها «نيش» مفتوح ومفكرة وكراس رسم مليء بالقصاصات. هذا جلي.

* * *

بعد هذا يا سيدي بدأ زوجها يمارس - كما قلت لك - هواية مسلية عجيبة هي الانتحار.

كما قلت لك كان يستفيد من أي وقت فراغ، وأي مكان منعزل ليجرب الانتقال للعالم الآخر. لكنه كان في كل الأحوال يفعل هذا جاهدًا حتى لا يترك لزوجته سمعة انتحار زوجها المهينة. كان يريد الرحيل بنعومة دون أن يترك على حذائها قطرات دم.

فيما بعد اعترفت لي سلوى عمران وهي تسعل بسبب دخان سيجارتي:

- «كنت أخشاه كثيرًا. صار غريبًا عني، ولو كانت جذوة حب قد ولدت في روحي فجنونه قد داسها وأطفأها. لقد فقدني قبل أن يكسبني. برغم هذا ظللت أخشى أن ينتحر.. لا توجد فرص كثيرة أمام امرأة انتحر زوجها بعد أشهر من الزواج. هي في نظر المجتمع قاتلة لم يُقبض عليها، أو مجنونة لم يشخص الأطباء حالتها، أو عاهرة لا يعرف سرها سوى زوجها، أو نحس يمشي على قدمين وقد تعلم زوجها هذا بالطريقة الصعبة. نعم.. كنت أنانية، لكني خشيت كثيرًا أن يفعلها».

سألتها:

- «هل كرر المحاولة؟».

- «مرارًا».

- «وكان يفشل دائمًا؟».

- «أحسبه لم يرد ذلك حقًّا.. لو أراده من سويداء قلبه لفعله بنجاح.. أومن أن باب الموت مفتوح لمن يشتهي الموت حقًّا. ثمة خيط واه لا يراه ولا نراه ظل يربطه بعالمنا».

- «ولهذا استجاب لك عندما طلبتِ معونتي».

- «أعتقد هذا.. جذبه الخيط لعالمنا من جديد، وكان حريًّا به أن يقطعه».

«لا تذهبي لأمك.. لا تقصدي السوق.. لا تذهبي لعملك في مكتب المحاماة.. لا تزوري جارتك...».

«الطريق مظلمة موحلة، والغابة مفزعة تترصد فيها الذئاب تتشمم بحثًا عن رائحة الدم، فمن لم تظفر به الذئاب وجدته الأشباح وامتصت دمه لتتركه مفرغًا بلا قطرة دم في العروق. الطريق تغص بمن فقدوا السبيل فاستحالوا كالغيلان. في الخارج يتربص مولوخ وبعل ينتظران الضحايا البشرية. في الشارع ألف عاهرة أتى بهن للعالم ألف مغتصب، صنعهم ألف متحرش بالأطفال».

«لا تذهبي.. أوصدي الأبواب.. الحياة خطر داهم. ألم تدركي هذا يا حمقاء؟.. لو خرجت فلا تعودي لأنهم سيلوثونك ولسوف تصيرين منهم. أنا لن أسمح لك بأن تنقلي لي الوباء».

٥- زلــزال

في ســن الســابعة والأربعين، كان الزلزال قد هز كل شيء في حياة **مصطفـى أبـو حســن**. بنايات شـامخة قد تهدمت، وأسـوار تشـرخت وتشـققت، ومن السـماء هوت الثريا لتتهشـم فتتناثر شـظاياها وتدمي قدميك. قدميك غير الثابتتين اللتين بدأت الأرض تذوب من تحتهما.

مصطفـى حاليًا صيدلـي في هيئة حكومية، لكنه يحمـل خلفه تراثًا هائلًا من العمل الإسلامي منذ كان في الكلية، وقد عرفه زملاؤه هناك مناضلًا صادقًا شـديد الإيمـان. ولا يعرف كثيرون أنـه اعتقل مرتين.. المرة الأولى كانت بعد اغتيال السـادات، عندما انتهى شهر العسل مع الجماعات الدينية.

في العام الأول لدخوله الكلية كان كأي شـاب آخر... تقريبًا: أغان غربية، سينما يوم الخميس، صور عارية في درج المكتب مخبأة تحت علبـة عطر البروت، وكُتب مصطفى محمـود التي يقرؤها وينبهر بعقل الرجـل، لكنـه ينسـى ما قرأه بعد سـاعة.. المشـي في شـوارع المدينة

ومعاكسة الحسناوات، قراءة الشعر، أسرة محترمة متدينة تدين الستينيات، أي صلاة وزكاة وصوم وحج فقط.

في هذا الوقت أدرك أنه يهتم بالفن جدًّا.. ويهتم بالصحافة جدًّا.

في السنة الأولى تعاون مع صديق له وأقاما معرضًا في الكلية، يحكي تاريخ الفن التشكيلي منذ رجل الكهف حتى سلفادور دالي..

استغرق هذا الكثير من الوقت والجهد، لكنه كان يشعر بسعادة لا حد لها. عندما يرى خطوط جويا أو إضاءة رمبرانت القادمة من اليسار أو إضاءة ديجا القادمة من أسفل، كان يشعر بأن روحه تزداد شفافية وأنه يُغسَل من الداخل.

قام بتعليق اللوحات التي تحمل حشدًا من التصريحات والتوقيعات، بدءًا بتوقيع البواب الذي يقف على باب الكلية وانتهاء بتوقيع العميد شخصيًّا: يصرح بالتعليق. لا مانع من التعليق.. نوافق على التعليق.. لا غبار على التعليق...نتحفظ على التعليق لكننا سنوافق لأننا طيبو القلب... إلخ..

في مصر كل شيء ممنوع ما لم تحصل على تصريح واضح يسمح لك به.

هاهو ذا المعرض يكتمل، وها هم أولاء الطلبة يسبحون كالأطياف وسط أطياف رافائيل وروبنز وبيكاسو ورينوار. كلمة ديجا والفن التأثيري تتردد على الشفاه..

إنه الفن.. إنه البحر المقدس الذي غاص فيه الجميع...

لعـدة أيـام صار يغفـو ليلًا وهو يحلـم باللحظات التي تشـرق فيها الشمس فيعود للمعرض.

* * *

المعرض قد تم تدميره بالكامل..!

أخبـره بهـذا صديقـه الملهوف الشـاحب. لقـد تم تمزيـق معظم اللوحات.

كان قـد وضـع شـريطًا لاصقًـا علـى معظـم الأجـزاء العاريـة في اللوحـات، لكن هذا لم يشـفع لـه. مجموعة من الطالبـات المنتقبات جئن أمس ومزقن معظم اللوحات.

لما هرع إلى المعرض رأى الخراب..

خيـام بنـي عبس قـد هاجمهـا الغـزاة فتناثـرت الأوتاد والأقمشـة المحترقـة.. هنـاك يقـف رجال أمـن الكليـة يرقبون هـذا الخراب بلا مبالاة، ورأى على الجدار عبارات بقلم جاف تقول:

- «هل أنتم طلاب علم أم عبيد شهوة؟».

نظـر لمـن حولـه بعينيـن لا ترياان، ثـم جرى إلـى الحمام ليغسـل وجهه... أسـند جبينه إلى الجدار فوق المغسـل وراح يبكي بحرارة.. لقـد تـم تمزيق كل هذا الجمـال، وفي النهاية اتهموه بأنه عبد شـهوة.. ربما ديوث كذلك.

رمبرانـت.. جويا. مانيـه.. لوتريك.. هل هم خطـاة حقًّا؟ لم تكن هناك أي مناظر عارية في المعرض فلماذا أثار حفيظة الشباب؟ الإجابة التي لم يكن يفقهها في ذلك الوقت هي أن الرسم في حد ذاته خطيئة.

عندما غسل وجهه وغادر الحمام اتجه إلى مكتب قائد الحرس في الكلية ليقدم شكواه.

قائد الحرس ضابط في الخامسة والثلاثين، له شعر بدأ يتساقط عن مقدمة الرأس، وتنم عيناه عن كثرة ما رآه، وله طريقة مهذبة تثير رعبك.

كانت القصة واضحة والمتهم معروفًا... معروفًا لكن لا يمكن الإمساك به لأنه لا توجد أسماء.

كتب الضابط ما قاله مصطفى بعناية، ثم أشعل لفافة تبغ وقدم له واحدة. كان مصطفى يدخن في ذلك الوقت.. سأله الرجل:

- «هل تريد أن يكون هذا محضرًا رسميًّا؟».

وهل توجد محاضر حبية أو غير رسمية؟.. ما جدوى هذا الذي تكتبه إذن؟

عيناه المتسائلتان تفحصتا وجه الضابط فقال وهو ينفث سحابة كثيفة:

- «أنصحك بألا تفعل. لن نجد الفاعل أبدًا لكنك ستثير شوشرة شديدة حول نفسك!».

لهجة التهديد جلية.. يجب أن تكون أصم أو أبله كي لا تدركها.

هذه حقيقة.. الرجل لا يبتغي مشاكل تحيط بالإسلاميين. في تلك الفترة كان السادات يحتاج لهم بشدة ليضرب اليساريين والشيوعيين، لذا كانوا هم سادة الجامعة... والحقيقة هي أن أمن الجامعة كان يحميهم في ذلك الوقت. هي نظرية الملح والسكر.. الملح كثير إذن

زد السكر... السكر كثير فلتزد الملح.. النتيجة هي أن الطبيخ صار لا يؤكل من كثرة ما أضيف له..

عندما غادر مصطفى المكتب أدرك أن عليه أن يقترب من فكر هؤلاء أكثر...

حدث الصدام الثاني مع مجلة أصدرها مع أصدقائه.. مجلة طلابية من تلك المجلات المألوفة: حوار مع أستاذ.. قصيدة ركيكة.. هل تعلم أن في جسم المرء من الحديد ما يكفي لصنع مسمارين؟ كاريكاتور سخيف يقلد رسوم وشخصيات مصطفى حسين... إلخ.

بدأ الصدام بشكل واضح عندما وجد تجمعًا مريبًا من الطلبة أمام المدرج. عندما دقق النظر وجد أن هذه الأشياء الممزقة على الأرض هي أشلاء المجلة.. المجلة التي أصدرها بالذات.

وسط زحام الطلاب الغاضبين رأى عثمان الفقي، وهو طالب ريفي شديد التدين يحمل واحدة من تلك المجلات ويرتجف غضبًا حتى ليوشك على الاختناق:

- «يريدون أن تغزو العلمانية الشباب وأن يعود الغرب لغزونا.. لقد تمت الصحوة الإسلامية ولا عودة عنها إلا مع دولة الخلافة».

كان يعرب الكلمات ببراعة ويتقن مخارج الحروف ويقلقل منها ما يجب أن يقلقل.. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه خطيب الجمعة في قريتهم.

شعر مصطفى بساقه ترتجف تلقائيًّا..

من الذي يريد أن تغزو العلمانية الشباب؟ لم يمس المجلة سواه هو وأصدقاؤه، ولما لم يكن خطيبًا بارعًا فقد انتحى بأحد الطلاب الواقفين الغاضبين وسأله همسًا:

- «ماذا تحتويه تلك المجلة؟».

قال الفتى وهو يمزق مجلته الخاصة:

- «فيها شعر عاطفي يدعو للرذيلة وفيها صور فتيات غير محجبات وفيها مقالان كتبهما نصرانيان.».

الوقائع دقيقة تمامًا، لكنها ليست بهذا الحجم... بالفعل هي مجلة فيها شعر عاطفي.. وعمَّ يكتب الشباب في سن كهذه إن لم يكن شعرًا عاطفيًّا؟ فيها رسوم لفتيات هفهافات كفراشات يتطاير شعرهن مع نسائم الليل، وهي صور مسروقة من ألف ديوان شعر.. فيما بعد سيكون مصدر هذه الصور هو المنتديات العربية على النت. هناك مقالان لشابين مسيحيين.. ومنذ متى منعوا المسيحيين من الكتابة؟

لقد كان مصطفى يقف على حافة عالم آخر تمامًا.. عالم يختلف عن كل المسلمات التي عرفها من قبل.. عالم يشعرك بالذنب والنقصان والإثم في كل لحظة.

كان عثمان الفقي قائدًا بالفطرة، فلو كانت هذه إمارة لصار هو أمير المؤمنين.

كان يتصرف كداعية حقيقي فيصادق هذا ويرافق ذاك، ويدعو هذا للمسجد، بل إنه رآه ذات مرة يجلس مع فتى يدس السيجارة بين شفتيه ويتحسس جيوبه بحثًا عن ثقاب. مد عثمان يده وأشعل عود

ثقاب وقربه من سيجارة الفتى. لما لامه مصطفى على ذلك فيما بعد، قال له:

- «التدخين إثم.. لكنه إثم بسيط بينما نحن جئنا من أجل عظائم الأمور. الخطوة الأولى هي أن يثق بك حتى لو اضطررت لأن تشعل له لفافة التبغ. بعد هذا سوف يطيعك في أي شيء، وأهون شيء وقتها أن تطالبه بنبذ التدخين».

دنا منه مصطفى وطلب منه أن يتناقشا معًا. أخبره ببساطة أنه من أقام ذلك المعرض الذي أتهموه بإثارة الشهوات، وهو محرر المجلة التي قالوا إنها أداة غزو غربي.

- «أحسنت إذ جئت لي.. لقد كاد الأوان يفوت إذن».

لو كنا في الغرب الأمريكي - (نطاق التوراه) - لقلنا بلغتهم إن مصطفى ممن ولدوا ثانية.

ومنذ ذلك اليوم اعتاد مصطفى التردد على المسجد. اعتاد كذلك سماع شرائط كاسيت سجلت عليها دروس لدعاة مهمين. سمع اسم الشيخ كشك واسم وجدي غنيم وسواهما، وعرف ذلك الأداء الزاعق الغاضب دائمًا الذي ينذر بالويل. وجدي غنيم كان يجيد السخرية من حال المسلمين اليوم حتى لتدمع عيناك من الضحك، وكان خطيبًا بارعًا.

كانت الجماعة الإسلامية متباينة الأصول الاجتماعية والمنشأ، لكن ثمانين بالمئة من أعضائها كانوا طبقة واحدة من الفتية الريفيين. الفتى الريفي الذي يقيم في قرية قريبة، أو جاء من قريتهم ومعه الفطير

الذي خبزته الحاجة. تثير المدينة رعبهم... السيارات سريعة.. الشوارع متسعة.. الفتيات ساحرات.. الزملاء في الكلية أثرياء.. المغريات كثيرة. رد الفعل الطبيعي هو استحضار الدين باعتباره الملاذ الأخير المطلق. سوف ندرس أكثر.. سوف نفهم ديننا أكثر. أبناء المدينة منحلون ناعمون كالفتيات، ولا يقدر أحدهم على تجويد واحدة من قصار السور بلا خمسة أخطاء، ولا يقدر على القيام بركعتين دون عشرة أخطاء. لقد أهلكهم الفحش ودخان السجائر.

بينما نحن رجال حقًّا.. نعرف ديننا.. مترابطون. نحن لسنا وحيدين.. نحن أقوياء ولسوف تكون المدينة بمن فيها لنا.

وكان يجلس معهم في جلسات الاستذكار فيتأمل ملامحهم المتقاربة، واللحية الصغيرة (السكسوكة) المشذبة.. يحرصون على أن يكون طعامهم عندما يلتقون من الخبز الجاف والملح والشعور بالتفوق.

في هذا العالم يبدو التلفزيون شيئًا قصيًّا مبتذلًا.

في هذا العالم تبدو الأغاني نشاطًا دنسًا.

في هذا العالم يبدو العقاد ضالًّا، بينما طه حسين هو الشيطان الأكبر الذي جاء من فرنسا ليهدم الأزهر والإسلام.

في هذا العالم تدرك أن أهلك قوم طيبون لكنهم ضالون فعلًا، وأمك ترتكب خطيئة أكيدة عندما تزور مقام هذا الولي أو ذاك لتشعل شموعًا أو توزع أرغفة مليئة باللحم والأرز.

لقد توغل مصطفى في عالمهم أكثر فأكثر. وعرف الجلباب الأبيض القصير والعطر القوي والسواك والمشي بسرعة الهرولة نحو المسجد للصلاة ثم هذا الدرس أو ذاك بعدها.

لأول مرة حضر زفافًا إسلاميًا كما يصفون، حيث لا وجود للنساء ولا الموسيقا وإنما هو ضرب الدفوف و(أتيناكم أتيناكم).. ولأول مرة سمع عن العقيقة بدلًا من (السبوع)... ولأول مرة تعلم ألا يضع الواو بعد لفظة الجلالة بل يقول (ثم)، وتعلم ألا يقول رمضان كريم لأن هذا شِرك.. وتعلم ألا يقول المرحوم إلا وبعده (بإذن الله). كما صار يجود نطق الأسماء فينطق عبد الله بالفصحى المفخمة لا كما ينطقها العامة، ولا يقول (بابا) وإنما (أبي). وعندما تسأله عن حاله يقول إنه (في نِعَم)..

في بطء يتكون نسيج سميك مجتمعي من الأسر التي ترفض فوائد البنوك، وصارت محلات اللبن اسمها «ألبان الصفا والمروة» جوار سوبر ماركت «المدينة المنورة» و«طيور الرحمن».. الحجاب في كل مكان والفتيات يقمن بمظاهرات للمطالبة بالمزيد منه، والكل يرسل أولاده لدروس التحفيظ في المسجد القريب.

تعلم أن ينهض لصلاة الفجر في موعدها. كان يؤمن أن المستقبل لهم... كل شيء يقول ذلك. بعد أعوام سوف تصير مصر كلها ملتحية تقرأ القرآن وتلبس الجلباب وتستعمل السواك، وسوف تبعث دولة الخلافة من جديد وتتمدد وبعدها ربما يقدر الجيل القادم على استعادة القدس وإفناء اليهود، وبعدها تعود الأندلس.. من يدري؟

لم يكن يحمل أي ضغينة ضد المسيحيين، وكان يعتبرهم أشخاصًا يحملون وجهاتَ نظر أخرى لا أكثر، لكن عثمان الفقي اعتبر هذا خطأ فادحًا...

- «هل سمعت عن الولاء والبراء؟».

هؤلاء - قال له - يكرهون الإسلام بجنون ويشتمون المسلمين، وقساوستهم يأمرونهم بأن يصيروا أطباء ليروا عورات نساء المسلمين، ويصيروا صيادلة ليسمموا المسلمين، ويصيروا محاسبين ليستولوا على أموال المسلمين. هؤلاء يقولون عن نبيك إنه كذاب. هؤلاء لن يرضوا عنك أبدًا حتى تتخذ ملتهم، وواجبك هو ألا تفسح لهم المجال في أي شيء...واجبك ألا تتنازل لهم.. واجبك ألا تحييهم.. أما عن تهنئتهم في الأعياد فجريمة كبرى. إنه النفاق بعينه.

وبالفعل لاحظ ذلك المناخ العام من الاضطهاد في الكلية وقتها. يخرج الفتى المسيحي من لجنة الامتحان الشفوي ممتقعًا مسود الوجه، ويعرفون أن الممتحن سخر منه لأن اسمه بطرس وسأله عن ألغاز لا يقدر أحد على حلها، عندها يضحك الجميع في سعادة شاعرين بالتفوق.

يقول عثمان الفقي باسمًا:

- «ليس هذا ظلمًا.. لو أنهم وصلوا لمراكز قيادية لفعلوا بنا هذا وأسوأ.».

- «إذن فالخير أن نظلم ولا نُظلم؟».

- «الحق ما تقول.».

بعض الظلم قد يكون عادلًا.. تعلم هذه القاعدة وطبقها في السنين التالية بحرص.

الحق أن بطرس ميخائيل هذا بالذات كان أنبغ طالب في الدفعة. كان له عقل عبقري، ولهذا كان إيذاؤه عسيرًا مؤلمًا للضمير، لكنه في الوقت ذاته كان ضروريًّا.

أما عن الفتيات فكان يراقب في انبهار لابسات الخمار في الدفعة وهن يختلين بتلك الزميلة حاسرة الرأس أو تلك.. بينهن نسخ أنثوية من عثمان الفقي. وبعد قليل تأتي الفتاة التي كانت حاسرة الرأس وقد ارتدت الحجاب، ويعرفون أنها تحضر دروسًا في المسجد القريب وتحفظ القرآن.

سوف يتزوج أخت أحد زملائه بالتأكيد.. فتاة محجبة نقية تعرف كيف تربي أطفاله ليكونوا مسلمين حقًّا، ولن يثقل أهلها كاهله بالأعباء الاقتصادية والمطالب.

لقد صارت أفكار سيد قطب وأبي الأعلى المودودي والبنا حية.. أكثر حيوية من أي شخص آخر، وراحت تجول في الجامعة. لقد ذكره الأمر بالأفلام الدينية القديمة عندما كان الإسلام ينتشر في مجتمع جاهلي، ليجد الجميع أنهم يصلون خفية.

تعلم من عثمان الفقي الشك في كل شيء، والتفتيش في الضمائر. إنهم ضدنا جميعًا يحاولون هدم ديننا بلا توقف. مؤامرة الغرب لا تتوقف لمنع الصحوة الإسلامية وسلاحه هؤلاء الكتاب الذين ازدهروا في عصر عبد الناصر لأنهم يساريون ملحدون. هناك نغمة

زاعقة في كلام عثمان الفقي هي نغمة «أنا ضد العالم»... نغمة شعور بالاضطهاد زاعقة وشعور بالحصار جارفة، مع مرارة لا تخفى.. وكان يكرر على مصطفى:

- «ولد الإسلام غريبًا ويعود غريبا.».

وكانت هناك طريقة مضمونة لنيل إعجاب الشباب والإسلاميين بالذات؛ هي السخرية من حال الأمة وما انحدرت إليه. أمس كانوا يقضون وقتهم في سماع القرآن والعلم والجهاد.. اليوم يضيع الشباب أعمارهم مع السجائر ومشاهدة السينما وسماع الغناء والمعازف.

دائمًا تلك النغمة من الحنين لعصر ذهبي كان ثم ضاع....

مع الوقت تشعر بأنك كالضمير، تراقب الآخرين طيلة الوقت وتشعرهم بالذنب، ومعظم الناس يحرصون على كسب رضاك أو عدم إثارة حفيظتك. مع الوقت واللحية التي تبرز ملامح وجهك وتمنحه هيبة، تتخذ سمت القاضي الذي يسمو على كل شيء، ويتهِم ولا يُتهَم.. إن شخصيتك التي كانت باهتة مذعورة تلمع وتتألق.

لم يسافر لأفغانستان لكنه رأى شبابًا مسلمًا كثيرين يسافرون، وهم يستحضرون كل صور الجهاد التي حلموا بها. عندما تواجه الاتحاد السوفيتي رمز الإلحاد فإن الخيارات تكون سهلة جدًّا... هذه موقعة بدر ببساطة. المؤمنون ضد الكفار. لكن ما أثار دهشته هو أن هؤلاء الشباب الذين سافروا برعاية الدولة ومباركتها قد عوملوا كإرهابيين خطرين عندما عادوا.

كانت الدولة قد شعرت بالهول الذي أطلقته من عقاله، وعرفت أن السيطرة على الدين مستحيلة. لقد حررته من قيوده ليحارب الناصريين

والشيوعيين بدلًا منها، فإذا به يوشك على التهامها.. وجاءت ثورة إيران لتبرهن على أن الخطر حقيقي وقريب وملموس وداهم، ثم سقط السادات مضرجًا بدمه في مشهد درامي جدير بالمسرحيات الإغريقية.

الدولة هي التي سمحت بهذا وتركت مؤلفات قطب والرفاعي تملأ الجامعات. صار في كل مكان رجل يخبرك أن الإسلام هو الحل، والغرب يريد تدميرنا لينشر الشذوذ. كل أسرة تحفّظ أولادها القرآن في المسجد وتحجّب بناتها في سن مبكرة، وعندما ترزق بمولود تقيم له «عقيقة»، وتصلي العيد في الخلاء، وتحذف مقطع «صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده» من ترنيمة العيد. انتشرت أسماء مثل (شيماء) و(تسنيم) و(إسلام).. كرد فعل تلقائي بدأ المسيحيون يسمون أولادهم (مينا) و(بشوي). لقد انقرض رامي وأشرف وعادل بالتأكيد.

كانت هذه هي اللحظة التي تغيرت فيها المصائر. لم يعد الإسلاميون هم سادة الجامعة الذين يحميهم الأمن، وإنما صاروا مضطهدين مطاردين، وفي فترة من الفترات صارت اللحية قضية أمن دولة.

- «هم يريدون أن يدخلونا الجنة باضطهادهم لنا.. زادهم الله وزادنا».

هذه هي الفترة التي أدرك فيها أنه محاط بالمخبرين في الجامعة. طلبة تعرفهم بالاسم والسلوك المريب ولا يتورعون عن التقليب في كراس محاضراتك إذا نسيته على المنضدة.

المعتقل.. الاقتياد من دارك في البرد الساعة الرابعة صباحًا.. بكاء الأم.. السجن.. الضرب.. هذه ذكريات يجدر بك أن تنساها إذا أردت أن تحيا...

لكن الاعتقال أعطاه مزية مهمة هي أن جدار الخوف انكسر في روحه. قضى حياته يخشى الاعتقال وهو ذا قد اعتقل فعلًا. كانت الأمور واضحة جلية بالنسبة له.. هؤلاء شباب متدين طاهر يبحث عن صحيح الدين، وتلك دولة عاصية مجرمة تخشى الإسلام وتعتمد في اقتصادها على الربا.

* * *

مرت السنون بين كر وفر..

أدرك في عهد مبارك أن أوان اللعبة قد انتهى.. لقد استخدمتهم الدولة لغرض محدد بسيط وهذا الغرض قد انتهى، وحان موعد إعادة السيف لغمده.

لا يذكر عدد المرات التي استدعي فيها إلى مباحث أمن الدولة قسم النشاط الديني، واعتاد قبل أي انتخابات كبيرة أن يتم احتجازه بضعة أيام..

فجأة حدث شيء لم يتوقعه...

بين عشية وضحاها بدأ يدرك شيئًا غريبًا.. يبدو أن الفرصة سانحة. الفرصة التي انتظرها الإسلاميون طويلًا وحلم بها حسن البنا، وظنوا أنها لن تأتي أبدًا...

لاح نور في الأفق وبدا حلم عثمان قريبًا. كان هناك استفتاء ونال خيار الإسلاميين قبولًا فائقًا. في لحظة أدرك أن الإسلاميين كائنات انتخابية فعلًا قادرة على الفوز في أي انتخابات تجرى في أي زمن. إن

مقدرتهم التنظيمية مذهلة، ولديهم ورقة لعب مهمة، هي أن المصري متدين بطبعه.. ليس لدرجة أن يلتزم بتعاليم الدين طبعًا لكن لدرجة أن يتبرك به ويتعصب له في كل وقت. كما أن الإسلاميين لديهم وسيلة دعائية خارقة هي خطباء المساجد. هؤلاء يغزون القرى والنجوع التي لا تستطيع جريدة أو قناة تلفزيونية أن تصل لها أو تحدث ذات التأثير.

هناك يجلس الفلاحون بأقدامهم الحافية المتشققة يضمون جلابيبهم الممزقة ويمصمصون الشفاة، بينما الإمام يصب في أذهانهم صبًّا كلامًا عن الدولة الكافرة التي تخضع للغرب وتبيح الربا وتحارب الإسلام.

- «شباب زي الورد.. يلقون بهم في المعتقلات ويضربونهم بالسياط.. لماذا؟ لأنهم قالوا لا إله إلا الله».

كيف يمكن للتيار الإسلامي أن يفشل.. كيف؟

رأى مصطفى التجربة كاملة، ورأى كيف وصل الإسلاميون إلى السلطة بعد صراع بدأ منذ عهد حسن البنا وربما أقدم من هذا بقرون، ثم كيف فقدوها على الفور. كان هذا أقوى من تحمله وفهمه للأمور، ومحاولة تفسير ما حدث فعلًا ليس موضوعنا على كل حال.. ما يعنينا هو أن تغير الناس والشارع والعقول قد أثار رعبه.

فجأة شعر كأن الناس جميعًا قد تغيروا وبالفعل استطاع أن يرى أن رجل الشارع قد انقلب موقفه بسرعة البرق من كان يتحدث عن الدولة الإسلامية التي ستقضي على الظلم وتحرر النفوس صار اليوم يتحدث عن جماعات التخلف التي حاولت أن تعيد مصر للعصور الوسطى..

كيف كانوا ينوون أن يقيموا إمارة إسلامية على رأسها خليفة لا يجيد سوى قطع الرقاب ومضاجعة الإماء والغلمان. الأسر التي كونت تلك الطبقة السميكة عبر عشرات الأعوام لم تعد تبدي أي انتماء لتلك المرجعية.

مع الوقت بدأ يشعر بذعر. هل كان في حلم طيلة ثلاثين عامًا منذ أيام الكلية؟

كيف حلم طويلًا بهذه اللحظة ثم اكتشف أنها كابوس؟

مع الوقت اضطر إلى أن يحلق لحيته لأنها تسبب له الكثير من المشاكل. لقد اعتاد مضايقات الأمن بسبب هذه اللحية، واعتاد أن ينزلوه من السيارة في أي كمين أمني لاستجوابه. كانت هناك حقبة صارت فيها اللحية نفسها قضية أمن دولة. اليوم اندهش لأن اللحية صارت خطرًا في الشارع نفسه، أي أن الخطر لم يعد من جهة الحكومة فقط بل من المواطن العادي كذلك.

كان يمشي في الطريق غارقًا في حيرته، عندما اصطدم عند أول ناصية بشخص يعرفه.. بطرس ميخائيل.. طالب دفعتهم النابغة الذي تعرض لاضطهاد شنيع.

هذه المرة مد يده فصافحه، لكن بطرس رد التحية بشيء من البرود.

سأله عن مكانه فقال:

- «حاولت الهجرة لنيوزيلندا. لكن لم أستطع. في النهاية ذهبت إلى الإمارات.. أعمل صيدليًّا هناك منذ زمن، وقد تزوجت ولديّ طفلان».

ساد الصمت للحظات ثقيلة، ثم قال بطرس:

- «أنت تعرف أنني لم أخلق لهذا. لقد خلقت لأكون أستاذ جامعة لكنك تعرف كيف عوملت. كان الجميع ضدي، وفي فترة من الفترات كان تقدير «جيد» عندنا يساوي تقدير «امتياز» عندكم.».

يعرف مصطفى أن هذا صحيح. يعرف أن هناك الكثير من الظلم لكنه كان ظلمًا مبررًا في رأيه. كل شخص يظلم معتقدًا أنه على حق.. هذه المرة نحن على حق فعلًا!!!

عاد بطرس يقول وهو يرمقه بتلك النظرة المتهمة.. نظرة القديسين في لوحات عصر النهضة:

- «لقد دمرت حياتي بالكامل. لم أخلق لأكون آلة جمع مال، وبرغم هذا فقد جمعت الكثير منه فعلًا، ربما على سبيل التعويض.. ولكن السؤال الذي أوجهه لك هو: لماذا؟».

- «لماذا أي شيء؟».

- «أنت تعرف عما أتساءل.. لماذا؟».

لم يدر مصطفى بما يجيب.. هناك أشياء لا تقال. لكنه كان واثقًا من أن هذا هو الطريق الصحيح وقتها. بطرس أيضًا كان يحمل حكايات عن جراح القلب الذي اضطهدوه في مصر فذهب إلى إنجلترا وصار جراحًا عالميًّا، واليوم يذهب من ظلموه طالبين أن يعالجهم وينقذ حياتهم. لقد كان أيقونة أسطورية.

لم يدر مصطفى ما يقول فصافح بطرس في فتور وابتعد. تمنى أن يغضب ويحتدم فلم يستطع. والحقيقة أن بطرس أيضًا كان يمر

بلحظات صعبة. صار يؤمن أن الدين سلاح خطر يستخدمه كل الناس بشكل خاطئ، أو كلغة جاهزة للجنون. المكان الصحيح للدين هو المسجد والكنيسة أما خروجه منهما فهو التعصب الكارثي. علمانية الدول هي السبيل الوحيد للتقدم وضمان عدم إراقة الدماء.

الحقيقة أن قدمي مصطفى لم تعودا بذات الرسوخ.

عندما اتصل بعثمان الفقي، وجد أنه يرد عليه ببرود شديد..

عثمان الفقي المتحمس صادق العقيدة والذي مهد له كل الدروب التي مضى فيها.. عثمان الفقي نشر على مواقع التواصل الاجتماعي كلها سطورًا تؤكد تأييده للعهد الجديد وكراهيته للإسلاميين خوارج العصر الذين حاولوا أن يسيطروا على بلد بحجم مصر. ثم عرف أن عثمان ذهب لقسم الشرطة ليحرر محضرًا يؤكد فيه أنه لم يكن في الجماعة الإسلامية قط.. هل هناك شيء اسمه محضر تبرؤ؟ هل سمعت عنه من قبل؟..

المهم في الأمر هو أن الصدمة كانت قاسية جدًّا بالنسبة لمصطفى..

ألم يكن عثمان صادقًا؟ كل هذا البكاء والصوت الدامع في صلاة التهجد؟ كل هذا البحث النشط عن أخ جديد ينضم له... كل هذا الجهد الجهيد.. لم يكن هذا من أجل الدين إذن وإنما من أجل سلطة ونفوذ، ولما تبلج النهار وتكشفت الحقائق، كان أول من تخلى عن الحلم القديم وبدأ بمغازلة مصدر القوة الجديد..

أم تراه تعب المعادن؟.. لقد أنهك المقاتل إذن..

كان هناك أحمق ساذج واحد هو مصطفى، أما الآخرون من زملاء الكلية الذين كان يعتبرهم مبشرين بالجنة فقد فروا وتركوه وحده.

* * *

كان السوس يعبث في روحه.. عطن الشكوك يلتهم شجرة الإيمان التي حسبها راسخة.. رطوبة تشقق الصخور التي حسبها صلبة لا تفنى.

جلس أمام شاشة الكمبيوتر، بعد ما تأكد من أن زوجته والطفل قد ناما.

المشكلة أن شبكة الإنترنت كانت مليئة بالهجوم على الأديان كلها، فقد تغير العهد كثيرًا عندما كان الكل يصمت والأسئلة تموت مع سائليها. هكذا وجد صدى لكل سؤال تردد في نفسه وأهال فوقه التراب، كل سؤال قد خطر بعقل واحد آخر في مكان آخر.

شعر أن كل الناس يقبعون في أقفاص، وكل واحد يرى أن قفصه هو الأجمل والأفضل من أقفاص الآخرين. لا يحاول أن يخرج منه ليرى الأقفاص كلها..

بدأت أصابعه تجري بدون أن يتحكم فيها.

أنشأ مدونة باسم مستعار وأطلق عليها «لست أدري».. ثم راح يفرغ الصديد الذي تراكم على روحه بلا توقف.

في أيام الكلية كان كل شيء واضحًا.. كان هو وزملاؤه يستعملون لفظة «الكتالوج الرباني» بإفراط. كانوا راضين عن أنفسهم ويفهمون

الكـون أو يعتقدون ذلك.. نحن أهل الجنـة والآخرون أهل النار بإذن الله وعلينا أن نتحرك حسب الكتالوج الرباني.

هـل يوجد مؤمنون حقًّـا؟ كل هـؤلاء المنافقين يتصرفـون كأنه لا بعث ولا حساب.. كما قال أبو نواس:

ألم ترنـي أبحت اللهو نفسـي .. وديني واعتكفت على المعاصي؟
كأنـي لا أعـود إلـى معـاد .. ولا ألقـى هنالـك مـن قصـاص

هـؤلاء يتصرفون ويؤمنون أنه لا حياة سـوى حياتنا هذه، لكنهم لا يعلنون هذا حتى لأنفسهم.

في الإدارة الصيدلية كان المدير يشـاركهم صلاة الجماعة أحيانًا.. عندها كان الإمام يصلي بخشـوع وإجادة وهـو يختلس نظرات جانبية نحو المدير ليرى إن كان راضيًا. كأن المدير يحيي ويميت.. في لحظة تبـدت الحقيقة لـه: هذه الصلاة للمديـر وليس فيها حـرف لله تعالى. الشـرك قريب جدًّا، أقرب مما نتصور. الناس تعبد إلهًا خفيًّا هو الناس الآخرون، ولهم تتعبد وتخشـع وتصلي. يخشونهم ويعملون لهم ألف حساب لكنهم لا يعترفون بذلك.

قـال لنفسـه: فكـرة الدولة الإسـلامية تصحـو كل بضعـة أعوام ثم تفشـل وتعـود للسـبات بعد ما يصنـع أصحابهـا بركة عميقـة من الدم ينامون فيها متعبين. بعد أعوام يقولون لم تفشـل الفكرة ولكن لم يكن إيماننـا كافيًا ويصحون من جديد.. وهكـذا للأبد.. الفخ الذي نتحرك فيه بلا توقف منذ ١٤٠٠ سنة. هل يجب أن تكون على صواب لمجرد أنك هو أنت؟

أفغانستان كان فيها موسيقا وسينما وجامعات ومفكرون.. فإلام صارت اليوم؟

قال لنفسه: الدين يجند من يؤمنون ليتخلصوا ممن لا يريدون أن يؤمنوا. من يرد التفكير بشكل مختلف يتخلص منه المجتمع تلقائيًّا.

بدأ يشعر بالخطر عندما شاهد في التلفزيون فيلم فجر الإسلام. بعض اللقطات كانت تبكيه في صباه، لكنه شعر بدهشة لأنه بدأ يضحك من بعض المقاطع، وبدأ يشعر تكلفًا في أداء الممثلين وميلودرامية زائدة. هل كنت شديد النقاء أم ساذجًا؟

لم يعترف لنفسه قط أنه يملك شكوكًا قوية هيجها في نفسه تخلي رفاق الرحلة، وتبدل ساحة المعركة، والهزيمة بعد نصر تلا هزيمة، والاستضعاف الذي جاء بعد استقواء. اهتزت الأرض تحت قدميه بفعل زلزال قوته ألف ريختر، لكن يديه استمرتا في الكتابة كأن لديهما عقلًا خاصًّا بهما.

كان – وإن لم يعترف – يفقد إيمانه بسرعة ويتمنى لو وجد من يعيده له.

مصطفى تخنقه أسئلة بلا جواب.

٦ - رحلة السجلات

أنت لم تر شيئًا في حياتك حتى ترى قنبلة هكسا- كاي -٣ تسقط فوق عاصمة في حجم لا بوسيرا. الطائرة الأيونية تحلق في سماء العاصمة فوق القوم الذين أنهكتهم الحرب وأنهكهم شلال الدماء. الطاغية «راكان» الذي يقلد بالضبط ما قرأه عن طاغية قديم اسمه هتلر... هو لا يبالي كثيرًا بأن تغمر دماء الأطفال الدروب وتكون نهرًا يتدفق نحو الغرب. ترتفع الطائرة ويبدأ العرض.

الرواقيون ورجال دلتا عرفوا أن قنبلة هكسا- كاي -٣ ممكنة وحاولوا الوصول لها، لكن علماء راكان كانوا أسرع وأقدر. إن من يملك القنبلة هكسا- كاي -٣ هو صاحب الكلمة الأخيرة وهو حاكم العالم و هو براثن القدر.

محمود السمنودي شاهد الأحداث منذ اللحظة الأولى وهو يرتجف. لم يخطر بباله أن الكون يحوي كل هذه القسوة والأدهى أن التقدم لم يقض على الحروب بل زادها تعقيدًا ووحشية. في العام ٤٣٠٠ حسب تقويمنا الجريجوري و ١٧٠ بتقويم سادة المستنقع، كان

كُتاب الخيال العلمي يحسبون البشر قد رزقوا الخلود وعم السلام. يجوبون الأجواء بأطباق طائرة صغيرة ويحكمون الفضاء.

لقد رأى هذا بالفعل، لكنه رأى كذلك قسطًا وافرًا من التوحش والقسوة. اقترب الإنسان جدًّا من طباع الآلة فلم تعد تتوقع منه رحمة ولا لينًا. منذ كم من الزمن لم يصغ هؤلاء للحن موسيقي أو يسمعوا قصيدة؟

دخان القنبلة الهائل يتصاعد للأفق ليرسم شكل مولوخ. هذه هي اللمسة «الدينية» التي يحاول راكان أن يضعها على هذا المشهد ليوحي بيوم قيامة خاص.

صرخات.. صرخات..صرخات..

هذا ليس مشهد قنبلة تهوي بل هو قطاع من جحيم دانتي. يسهل أن تعتقد أن هذا هو المطهر.

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

هل تسمح لي بسيجارة أخرى يا سيدي؟

كان انتزاع المعلومات من محمود السمنودي عسيرًا حقًّا يا سيدي المحقق. أنت خبير في هذه الأمور بالطبع، لكن دعني أؤكد لك أنه

كان أصعب من أي متهم صموت حاولت أن ستنطقه. عندما يجتمع الصمـ ت مع الغموض مع الخبال فالنتيجة كارثية...

لكنني تمكنت بشكل ما من جمع أجزاء الصورة، وما جمعته كان مفزعًا لدرجة أنني لا أصدق حرفًا واحدًا منه. الجنون.. هذا هو التفسير الرشيق السهل لدينا، فإن وجدت اللفظ فظًّا أكثر من اللازم فأنا أعتذر لك.. سمه «الذهان». بنفس المنطق الذي يجعل أطباء أمراض النساء يطلقون على سن اليأس «سن الإياس» ويطلقون على العقم (انخفاض الخصوبة).

في البدء رحت ألاحظ أشياء غريبة بحكم الصدفة.

كان كل شيء في تلك الأوراق التي يحتفظ بها، والتي وجدتها الزوجة في الشقة فجلبتها لي.

هناك كلام بالفعل عن فيضان في بنجلاديش. هذا الكلام مكتوب في الأوراق الموجودة في النيش. معنى هذا أن الكلام كتب قبل دخول المصحة بشهر أو أكثر، ولكن..

وبدأ الشعر ينتصب في مؤخرة رأسي...

نفس الخبر نشر في جريدة من الجرائد التي يطالعها في المصحة. خبر قام بقصه...

ثم بدأت ألاحظ الأسماء التي كتبها في المفكرة. بعض الأسماء كان مميزًا فعلًا. ويليام أنطونيان من أصل أرمني كما هو واضح وليس بالاسم الذي يتكرر بسهولة. إنه مذكور في المفكرة. بعد هذا وجدت النعي الخاص به في الجريدة...

هناك شيء خطأ....

الرجل يعبث بي، أو هناك غلطة معينة في ترتيب الأحداث. ببساطة لا يمكن تصور أنه تحدث عن الفيضان قبل وقوعه أو عن موت أشخاص قبل موتهم.

لا أحد يعرف الغد. هل تعرف لماذا؟ لأنه - ببساطة - لا يوجد أحد يعرف الغد. التاريخ يعج بعرافين كذابين يمارسون القراءة الباردة، ويلقون بكلام غامض يؤخذ على الوجهين. حتى نوستراداموس نفسه ظاهرة تم تضخيمها، وفي رأيي أن نبؤاته التي ضمنها كتاب «قرون» قابلة لكل أنواع التفسير. العراف ليس شخصًا قادرًا على رؤية الغيب، بل هو شخص قادر على جعل كلامه يبدو كذلك.

هل تريد نبوءة؟ في الغد يموت رجل عظيم ويعم الوباء في بلاد الآثام، ويفيض النهر ليغرق بيوت البؤساء، بينما ينتصر الأسد على الثعلب مرتين.

كلام فارغ.. هراء، لكني أراهن على أن هذه النبوءة قابلة للتحقق. بالقطع سيموت رجل عظيم في مكان ما.. ومنذ متى لم يجتح وباء أفريقيا أو آسيا؟ الفيضانات عادة بنغالية سيئة كما تعلم. أما الأسد فلسوف يهزم الثعلب مرتين.. رجل قوي يهزم رجلًا خسيسًا أو شرسًا.. أو دولة قوية تهزم دولة ضعيفة، أو هو فعلًا أسد التهم ثعلبًا في محمية طبيعية.

النبوءات.. لعبة العابثين بالألفاظ التي يجيدونها جدًّا...

هذا هو منطقي وهذا هو يقيني.. فلئن وجد العراف الحقيقي فهو أقوى رجل في العالم، وهو القادر على اجتناء الثروات وهزيمة الجيوش والفوز بالحسان، ولاستكثر من الخير وما مسه الضر أبدًا.

محمود السمنودي يملك سرًّا مخيفًا، لكنه لا يتضمن فنون العرافين.

محمود السمنودي يزعم أنه قد استطاع الوصول إلى السجلات.

❋ ❋ ❋

فيما بعد عرفت مفهوم السجلات الأكاشية Akashic records واستطعت تجميع الصورة بشكل أو آخر، ولا داعي لأن أقول إنني في ذلك الوقت لم أصدق حرفًا من هذا السخف الذي قاله لي محمود. لكنه مفهوم شائع جدًّا عند المهتمين بالظواهر الخارقة، ولسبب ما يبدو أن محمودًا من البشر النادرين الذين استطاعوا دخول هذه السجلات.. ربما كان السبب هو نشأته الغريبة أو عزلته الجديرة بالنساك.

هل هناك من دخلها من قبل؟ لا أعرف.. لو كان هناك من دخلها فقد هلك منذ زمن، ولم يكتشف أحد أمره.

أكاشا لفظة سنسكريتية معناها «السماء.. الأثير» السجلات الأكاشية هي نظام كوني لتوثيق الحقائق.. الأفكار.. الكلمات.. الوعي الجمعي للكون كله.. العقل الباطن للوجود حيث لا شيء يمكن نسيانه. وفي هذه السجلات - يزعم محمود - يمكن أن ترى أشياء كثيرة جدًّا. الأكاشا هي المادة الأولية التي نشأ منها النار والهواء والماء.

نحن لا نتحدث عن عراف هنا.. نتحدث عن شخص استطاع أن يشف فيرى جوهر الأشياء.

هناك من استعانوا بالعقاقير لدخول هذه السجلات. هناك من أدخلوا أنفسهم في حالة قريبة من الغيبوبة أو الموت. لماذا وضع محمود نفسه في حالة حرمان حسي شبه تامة؟

هيلين بلافاتسكي العرافة البولندية التي كتبت كتاب «العقيدة السرية»، زعمت أنها تعلمت هذه الطريقة من رهبان التبت، وزعمت أنها اطلعت على كتابهم السري المدعو «كتاب ديزان». إدجار كايس الأمريكي - النبي النائم كما سموه - زعم في منتصف القرن العشرين أنه استطاع دخول هذه السجلات وزعم أنه استطاع أن يحتوي في رأسه كل خبرات لا وعي البشر منذ الخليقة.

علماء النفس يتكلمون عن الوعي الجمعي الذي تكلم عنه «يونج». هنا نحن نتكلم عن الوعي الجمعي للكون نفسه. الأرشيف الكامل للحياة والبشر وهو يتمدد طيلة الوقت مع خبرات البشرية. الكون نفسه يتمدد.

هذه مفاهيم يصعب تصديقها، ولا تختلف عما يزعمه أي عراف يجيد النصب، لكن ما عرفته مع محمود يجعلني أتوقف مرارًا أمام هذه المفاهيم. لو لم يكن هذا التفسير صحيحًا فما هو التفسير الصحيح؟

يزعم الزاعمون أن هذه السجلات موجودة على شكل أرفف مكتبة. لا تحاول أن تعرف كل شيء في وقت واحد. لا تأخذ كل الكتب معك.. هذه جرعة لا يتحملها العقل البشري.

كايس كان يدخل في طور سبات.. شبه غيبوبة يدخل نفسه فيها، وفي هذه الغيبوبة قال إنه يطالع السجلات.. وكان يتكلم وهو في السبات بينما هناك من يكتب، وعندما يعود للصحوة كان ينسى كل شيء. ويقال إنه ظل يفعل هذا أربعين عامًا.

البعض جرب الوصول للسجلات الأكاشية عن طريق النغمات الرتيبة للأصوات أثناء الصلاة. البعض يستعمل طريقة الرايكي. البعض يدخل السجلات عن طريق التأمل.

ما هي الطريقة التي استعملها محمود أو ظن أنه استعملها؟

في ذلك اليوم المطير اقتحمت زوجته الغرفة لتجده على الفراش مفتوح العينين، وحسبته ميتًا. لقد عاد من التجربة وقد ابيض شعر رأسه وامتلأ وجهه بالتجاعيد، وذلك النسيج اللزج الغامض الذي لا يكف عن الظهور كلما أزالته... واضح أنه وضع نفسه في حالة حرمان حسي كاملة.

أين كان؟

ما الذي رآه؟

ألغاز كثيرة وجدتها وأنا أراجع أوراقي في المصحة. محمود السمنودي رجل غريب الأطوار. كان غريبًا منذ ولد وحتى اليوم، لكنني لا أراه أغرب من كل من عرفت.

لدينا من يعتقد أن البعوضة تؤذن في أذنه تدعوه للجهاد..

لدينا من يعتقد أن المخابرات المركزية زرعت جهاز تنصت في مؤخرة رأسه..

لدينا من يعتقد أنه جاسوس مريخي.

لدينا من يؤمن أنه تجسد لابن ملك الجان..

لدينا من يعتقد أنه...

أنه رأى السجلات الأكاشية وعرف كل شيء...

* * *

كان المحتجون يحتشدون في الميدان البرتقالي. أوكرانيا تبدأ الاحتجاجات دومًا في الميدان البرتقالي.

الفتيات رائعات الحسن والرجال الأقوياء يرددون بالأوكرانية التي يفهمها محمود جيدًا:

- «لن تأخذوا حياتنا!».

الطقس بارد قارس، لكن العواطف متأججة والغضب أحمر والدخان الذي يتصاعد من حواجز الطريق المحترقة أسود. قام أحد الشباب بتوزيع زجاجات الفودكا على الواقفين فقط ليجعلهم أكثر رعونة وتهورًا، وبالفعل احمرت العيون والأنوف.

كل هذا يشعرك بالحر وبأنك على وشك الاختناق. وفي شارع كريشاتك تحركت أولى مدرعات الشرطة ذات الثلاثة الأبراج والجنازير المغطاة بالحراب، وكانت قادمة نحو الميدان. لقد عرف الطاغية ميرشوك أن الغازات والمياه لا تجدي.. لقد تحملها المتظاهرون حتى هذه اللحظة، ومن الجلي أنه سيستعمل ما هو أقوى.

- «لن تأخذوا حياتنا!».

في اليابان رفضوا دفع هذه الضريبة، ونفس الشيء حدث في فنلندا. هذه ضريبة تجعل الحياة مستحيلة، وتجعل الموت أهون، وأمس ظهر الطاغية على شاشة التلفزيون وقال:

- «لابد من دفع ضريبة الهواء النقي.. عشرون جريفنيا لكل مئة لتر من الهواء. لقد حسبنا متوسطات الاستهلاك البشري، ويمكن القول إن حساباتنا دقيقة. الضريبة أقل بالنسبة لكبار السن والمصابين بأمراض تنفسية تقلل استهلاكهم للهواء، أما الشباب والأصحاء والرياضيون فعليهم دفع مبلغ أكبر. هذا عادل. إن الدول تبذل جهدًا

كبيرًا وتنفق مبالغ باهظة لتنقية الهواء من التلوث الصناعي. لكن لا يمكن الاستمرار في تقديم الغذاء المجاني».

كان هذا أكثر مما يتحمله المواطنون. يدفعون ضريبة عن كل شيء، وقد قبلوا دفع ضريبة الجنس وضريبة التدخين، لكن ضريبة الهواء بدت لهم أمرًا لا يخلو من مبالغة. وما هي الآليات التي ستطبق على من لم يدفع؟

الإجابة سهلة... لو لم يدفع الجميع فالويل للجميع، ومرحبًا بالهواء الملوث الذي هو أقرب لدخان حرق زفت الأسفلت. السادة لن يعانوا لأنهم في قصورهم يتنفسون أنقى أنواع الهواء. من لم يدفع سيكون عليه أن يتحمل قراره، وعلى الآخرين الراغبين في الدفع تحمل القرار ذاته.

- «لن تأخذوا حياتنا!».

لقد انكسر حاجز الخوف.. لا أحد يمنعك من التنفس ويظل حيًّا.

رأى محمود ثلاث مدرعات تحيط بالميدان، وصاح صائح بالمتظاهرين أن يتفرقوا. لكنهم تقدموا نحو المدرعات وهم يزأرون.

المدرعة الأولى تنطلق وسط بحر البشر المتلاطم، فيعلو الصراخ. بركة دم تنفجر وأطراف تتطاير في الهواء. تحول المتظاهرون إلى عجين والأسوأ أنهم لم يصدقوا ما حدث.

المدرعة الثانية تتقدم..

كن سعيدًا يا ميرشوك.. هذه المذبحة تزري بكل مذابح التاريخ.

امرأة تحاول الفرار لكنها اصطدمت بالأجساد التي تساقطت على الأرض.. تعثرت وسقطت، ثم رفعت رأسها لترى جنزير الدبابة المدجج بالمسامير يدنو منها.. مستحيل أن يحدث لها هذا... ثم أصابتها صدمة عصبية فلم تدرك أن جسدها انشطر لنصفين.

سوف تهدأ الثورة عندما ينتابها الإنهاك، لكن الناس لن تدفع الضريبة، ولسوف يتلوث الهواء وتسود السماء.. من لم يمت تحت جنزير الدبابة سيموت بالإمفيزيما أو سرطان الرئة.

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. وهي زوجة حائرة معذبة، لا ترى اتجاهًا تتحرك فيه وسط هذا الضباب كله.

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. وهي محامية على قدر من الجمال. أنا شخصيًّا أراها مغرية.

كنت أنفث دخان السيجارة وأرمق من النافذة محمود السمنودي وهو يجلس على دكة في حديقة المصحة، ويراقب مشهدًا مثيرًا بعض الشيء: قطة تزحف نحو عصفور يلتقط رزقه. اهتمام غريب بالنسبة

لرجل ناضج أشيب الشعر. صحيح أن شيبه ليس نتيجة الشيخوخة، لكنه يضفي عليه غرابة أي غرابة عندما ترى هذا الرأس الأشيب يراقب عصفورًا بهذا الشغف. بلا كلل يزيل الخيوط عن أنامله ويزيلها عن وجهه، الخطوط التي لا يعرف أحد من أين تأتي، وحتى طبيب الأمراض الجلدية حك رأسه في حيرة وكتب له مضادًّا للفطريات. كل طفل في الشارع يعرف أن هذا ليس فطرًا. فحصها تحت المجهر يؤكد ذلك... هي أقرب لخيوط الحرير.

كان سلوكه أقرب إلى الهدوء والطاعة، ومع الوقت بدا واضحًا أنه نبذ فكرة الانتحار، لذا صرنا أقل خوفًا وأقل مراقبة له، وسمحنا له بهامش من الحرية. طبعًا ليس إلى درجة وضع مسدس وسكين وزجاجة سم جوار فراشه.

كان يقضي الساعات شاردًا ويردد أبيات أمل دنقل أو صلاح عبد الصبور، أو يدندن تلك الأغنية العجيبة:

« حتدندني اللحن القديم

وبدون مناسبة تضحكي

وعنيكي تلمع ف الضلام

ببريق بتفتكريه ذكي..».

دق الباب فسمحت للقادم بالدخول. دخل عامل في المستشفى وهو يحمل مجموعة كبيرة من الكتب وضعها جواري، فقلت له:

- «احرص على ألا يعود لغرفته لمدة نصف ساعة.. قولوا شيئًا عن التنظيف.. أي شيء.».

قال العامل الأسمر الشاحب وقد اتسعت عيناه في ذعر حيواني:

- «قلت له ذلك فعلًا يا سيدي. قال شيئًا ما عن فحص الكتب ثم غاب في الشرود».

نظرت لسلوى الجالسة فرأيتها تنظر لي نظرة من طراز:

«أعرف - هذا - تمامًا - وتوقعته».

كلما تعاملت مع محمود السمنودي شعرت بأنه يعرف كل شيء لكنه يتظاهر بأنه لا يعرف.. أو ربما لا يهتم بأن يعرف.. أو يعرف ولا يهتم بالتبعات.. أو يعرف ولا يبالي.

راحت سلوى تقلب الكتب في عناية، ثم قالت:

- «كلها كانت في البيت.. أعرفها وأحفظ عناوينها.. يمكنك أن ترى الأرقام».

هناك بالفعل أرقام كتبت بقلم ماركر على غلاف كل كتاب. ١ - ٦ - ١٢ - ٤٤...

- «هذه الكتب يضعها معه في غرفته على الكومود والآن تذكر عبارته التي سجلتها له.».

- «١ - ١٣ - ١٢ - ٥ ــــــــــــــ ٦ - ١٦٠ - ١٩ - ٧ ــــــــــ ـــــ ٢٢ - ٢٠٠ - ١٠ - ٣ .. ».

هذه شفرة أرقام.

يتكلم عن الكتاب الأول.. صفحة ١٣... السطر ١٢... الكلمة الخامسة..

يتكلم عن الكتاب السادس... صفحة ١٦٠... السطر ١٩... الكلمة السابعة..

سألتها:

- «كيف استنتجت هذا؟».

قالت: حاولت أن أفهم كلماته الرقمية. لاحظت دوائر صغيرة داخل صفحات الكتب وعرفت من أين جاءت. راجع مجموعات الأرقام. الرقم الأول لا يتجاوز عدد الكتب. الثاني لا يتجاوز عدد صفحات الكتاب. الثالث لا يتجاوز عدد سطور الصفحة. الرابع لا يتجاوز عدد كلمات السطر....

ليس الأمر بهذه السهولة. الرجل يتكلم غيبًا ومن دون ورقة أو قلم ودون أن يرجع إلى الكتب. هل يحفظ رقم كل كتاب ورقم كل صفحة و.....؟... الأمر مفزع ويتحدى أي منطق. أنت تتحدثين عن كمبيوتر آدمي.

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. محامية شابة وقد بدت لي رائعة الجمال وهي مستغرقة في التفكير مذعورة بهذا الشكل. هشاشتها مغرية. لماذا لا يحق للإنسان أن يحتضن الفتاة التي تبدو لعينيه ساحرة؟ ولو لربع دقيقة فقط.. بدت لي الحياة قاسية جدًّا في لحظة كهذه..

- «من السهل إذن بهذه الطريقة أن نعرف ما كان يريد قوله».

سألتها:

- «تحسبينه أراد أن يحل الناس هذه الشفرة؟».

- «بالتأكيد!».

- «إذن لماذا جعلها شفرة؟ لِمَ لَمْ يقل ما يريد وانتهينا؟».

- «ربما لم يرد أن يحلها أحد».

- «إذن هي أنشودة الريح عبر الوديان.. حفيف أوراق الشجر.. لغز كوني بلا حل يفنى معنا.. كان من الخير له أن يصمت».

- «هو لا يمارس هواية العرافين. لا يريد أن يعرف أحد ما يعرفه».

ونظرت لي في حيرة، فقلت لها وقد فهمت:

- «الأمر جليٌّ واضح. لا يريد أن يفهم كلماته سوى من يقدر على فهم كلماته».

كررتْ العبارة ببطء:

- «لا يريد أن يفهم كلماته سوى من يقدر على فهم كلماته».

- «فقط أولئك الذين يستحقون الفهم يفهمون. فقط من يملكون العقل يفهمون، ونحن امتلكنا العقل.. يمكننا أن نفهم».

ونظرت لها في صرامة طالبًا التفسير...

غطت عينيها وهزت رأسها كأنها موشكة على البكاء وقالت:

- «تلك هي المشكلة.. كانت الكلمات تقول: مُنى.. هذا اسم بطلة في قصة... هناك كلمة لواء.. هناك كلمة أبريل... هناك رقم ٨.... هناك كلمة هوائي».

-« مُنى.. لواء... أبريل... ٨.. هوائي... لا معنى لهذا السخف».

- «كان هـذا في مارس. في ٨ أبريـل انفجر بركان في هاواي ودمر بعـض القـرى. قـرأت هذا فـي الصحـف. هل تعرف اسـم البـركان؟ مونالوا!».

رحت أردد الاسم في حيرة:

-« مُنـى.. ولـواء.... مونالـوا.. تقصديـن أنـه اسـتخدم الأبجدية المتاحـة لـه ليصنع اسـم البركان.. مـا كان له أن يجد اسـم مونالوا في كتاب.. وهاواي.. هوائي...».

عـادت تنظر لي.. هـل تعرف معنى هذا؟ هل حقًّـا أنت لا تعرف؟ أما زلت تتظاهر بعدم الفهم؟

مرتبكًا قلت:

- «هل تنبأ بانفجار البركان؟ أولًا يمكن التنبؤ بالبراكين على عكس الزلازل. وهذا متاح لأي شخص ذي خبرة جيولوجية».

ساخرة قالت:

- «نعـم. مثـل زوجـي.. كل المحامين يفهمون فـي الجيولوجيا.. هذا معروف..».

- «البديل هو التنبؤ.. وأنا لا أومن بالتنبؤ.».

زوجك يا سيدتي يمر بطور غريب من المرض النفسي، لا أجد له اسـمًا، لكنه يحسب أنه شـفّ ودنا من حقيقة الكون، وإلا فهل تعرفين

وليًّا من الأولياء لم يزعم مريدوه أنه يطير أو يمشي على الماء؟ لو قال زوجك إنه يمشي على الماء لانتهت مشاكلنا واكتمل التشخيص.

تناولت الهاتف الخلوي وقمت بتشغيل التسجيل. رحت أدون الأرقام الأخيرة التي قالها لي. ورحت أفتش في أرقام الكتب والصفحات...

قطار - أنهار - مايو - ١٦ - دماء

حركت قلمي على الحروف مفكرًا، هذه هي الرسالة.. قطار سيقع في الأنهار على الأرجح.. أو ستسيل الدماء أنهارًا... أو لربما انهار جسر....

عندما تقرر أن تنزع مخك كالحذاء، وتندمج بعض الوقت في السخف. ذات شعوري عندما أطالع باب حظك اليوم، عالمًا أنها هرطقات المحرر ولا تمت بصلة لحظي.

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. ويبدو أنها تدربت جيدًا على طريقة تفكير زوجها لأنها طالعت السطر بعناية ثم قالت:

- «دماء.. أنهار.. نحن نتحدث عن دمنهور.. لم يجد كلمة دمنهور في الكتب.».

- «وهذا يعني..؟».

- «حادث قطار في دمنهور يوم ١٦ مايو.. خبرتي بكلماته تقول لي إن هذا سيحدث لا محالة. كل كلماته بالغة الدقة.».

- «هل هذه النبوءة تبغي تحذيرنا؟ إذن لماذا لا يقولها بوضوح؟ هذه لعبة كل العرافين عندما يقولون كلامًا يسري على الوجهين ويصلح لأي تفسير».

نظرت لي بعينين صافيتين صامتتين، وقالت:

- «هو لا يريد أن يحذرنا. لا يريد شيئًا على الإطلاق.».

وماذا نفعل؟ نتصل بهيئة السكك الحديد لنقول إن مجنونًا في مصحتي يتوقع كارثة تحدث لقطار في دمنهور؟ سوف يحبون ذلك جدًّا. سيعلقون على صدورنا النياشين. بالفعل هو ليس إنذارًا. هو نوع من تقرير الحقيقة. والأهم هو أن الرجل يختبر نفسه. ما زال يجهل قدراته فعلًا، والدليل أنه يحتفظ بأسماء من قدر موتهم وهو يفتش في الصحف عن هذه الأسماء، وكذلك يتنبأ بالحوادث ثم يفتش عن حدوثها. إنه ما زال يجهل مدى صدقه.

- «هو لا يمارس هواية العرافين.. لا يريد أن يعرف أحد ما يعرفه».

قالت لي وهي تلقي نظرة إلى خارج النافذة:

- «احرص على أن تعيد الكتب لغرفته قبل أن يعود».

قلت في تهكم:

- «وما نفع هذا ما دام يعرف؟».

نظرت لي طويلًا ثم قالت:

- «أنت لن تتحمل نظرته عندما يعود ليجد أن كتبه على مكتبك».

* * *

«رعب أكبر من هذا سوف يجيء

«لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت

«أو ببطون الغابات

«لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم

«أو تحت وسائدكم، أو في بالوعات الحمامات».

كلا يا سيدي لا أشعر بذرة من تأنيب الضمير. ما كان لكم أن تصدقوني ولربما زججتم بي في المصحة كذلك. عندما وقع ذلك الحادث عند مدخل محطة دمنهور، وعندما حدث خطأ في مناورة القطار واصطدمت مقطورة بقطار سريع.. تفسيرات كثيرة ولجان فنية من أساتذة كلية الهندسة، ومعاينة وسائق بائس سوف يلبس القضية كلها، وضحايا وجثث وتعويضات. كل هذا كان ينتظر البشر يوم ١٦ مايو القائظ. ملحمة من اختلاط الحديد المهشم باللحم البشري بالديزل المشتعل بالرعب بالصراخ وعدم التصديق بالدم. قوانين الفيزياء عندما تتصادم بلا رحمة فتسحق البشر بينها.

كيف كان لي أن أمنع هذا يا سيدي؟ لم أكن أستطيع أن أخبركم. أنا لا أصدق حرفًا فكيف أجعلكم تصدقون؟ والأدهى هو أنني أعرف يقينًا أن محمودًا لم يكن واثقًا لهذا الحد. لقد دون الحادث وانتظر بعيدًا يراقب مليًّا ما ستأتي به الأقدار، فلا شك أن الحادث جعله يدرك أنه على الدرب المخيف الذي يهابه.

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق. وقد جاءت بعد الحادث المريع بيوم وجلست في مكتبي ترشف القهوة وهي ترتجف.. ثم قالت:

- «أحسبك الآن معي في ذات القارب. أحسبك قرأت الصحف وعرفت ما حدث في دمنهور يوم ١٦ مايو. لم تكن هذه هي المرة الأولى، فقد حدث هذا أكثر من مرة. أحسبك تدرك اليوم ما أنا فيه وأي ذعر أمر به وأي لحظات سوداء. أحسبك تدرك حيرتي وتخبطي وعجزي عن اتخاذ قرار».

نفثت سحابة دخان، وقلت لها في إصرار:

- «هي الصدفة ولا يوجد تفسير سواها».

لكني لم أكن واثقًا من نفسي بهذا القدر. عليّ أن أقترب من محمود وأعرف ما هو أكثر عن تلك السجلات الأكاشية.

٧- هل نتطور؟

بخطوات ثابتة دخل د. بارتريدج غرفة المحاضرات. ساد الصمت وهـم يرمقون ذلـك الرجل قصير القامة ضخـم الجمجمة الذي يحيط الشـعر الأشـيب الثائر بجانبي رأسـه. بدلة رخيصة مغبرة لا توحي بأنه يكسـب جيدًا. ربما لا يكسـب على الإطلاق. يمكنـك أن ترى ثقوب لهـب السـيجار والرماد المبعثر. هـذا رجل غير متـزوج أو متزوج من امرأة تستحق الجلد بالسياط.

هذا الرجل في الخمسين من عمره، يعتبره البعض مجنونًا ويعتبره البعـض أحمق.. قليلون جدًّا يعتبرونه عبقريًّـا. وقف يرمق الطلبة في ثبات ثم اتجه للوح الكتابة وأخرج القلم الماركر وبدأ يكتب.

قال للطلبة:

- «أعداء التطور وخصوم داروين يقولون إنهم لم يروا شيئًا يتطور قط.. لو كانت نظريات داروين صحيحة لرأينا التطور بعيوننا».

ثم ابتسم وقال المثال الذي يعرف أنه يضحك الطلاب دائمًا:

- «بمعنى أنه لو جلست أمام قفص الشمبانزي في حديقة الحيوان فترة أطول من اللازم، لرأيته ينتصب في قامته ويخرج غليونًا يشعله ويطالع الجريدة».

دوت ضحكات الطلبة كالعادة.. وكان يعرف هذا.

قال لهم وهو يكتب على اللوح بعض مصطلحات:

- «عملية التطور تستغرق ملايين السنين.. لدى الطبيعة الوقت كل الوقت لتجرب، بينما وجودنا على ظهر هذا الكوكب التعس قصيرة جدًّا. لنتذكر المثال الشهير الذي حكاه كارل ساجان: لو أن عمر الكون عام واحد، فإن مجموعتنا الشمسية لم تظهر إلا في ٩ سبتمبر من ذلك العام. بعدها بتسعة أيام جاء كوكبنا الأرض.. يوم ٩ أكتوبر ظهرت البكتريا.. يوم ١ ديسمبر ظهر غلاف الأكسجين حول الأرض.. يوم ٢٤ ديسمبر ظهرت الديناصورات.. بعدها بيوم ظهرت الثدييات.. ظهر الإنسان في العاشرة من مساء ٣١ ديسمبر.. في الساعة ١١ وربع اخترع الإنسان الزراعة.. وجاء الفراعنة والأشوريون..إلخ..».

صفر بعض الطلاب في انبهار.. فقال:

- «هذا يخبرك بقصر الفترة التي قضيناها في هذا الكون.. ساعتان في عام كامل!! وبرغم هذا يتوقعون أن يروا التطور بعيونهم».

ثم رسم على اللوح بركانًا مبسطًا وقال:

- «كوكب الأرض شهد انقراض الأنواع مرارًا لا تقل عن ١٨ مرة على مدى ٢٥٠ مليون سنة. الديناصورات انقرضت منذ ٦٠ مليون سنة، وهناك حوادث انقراض مروعة بسبب ثورات البراكين. براكين

إيطاليا التي ثارت منذ ٣٩ ألف سنة أنهت وجود إنسان نياندرثال. لا يوجد أي شيء يضمن ألا ننقرض نحن من جديد. بركان يلوستون في أمريكا أدى لانقراض الحياة منذ مليون سنة تقريبًا فماذا عن انفجاره من جديد اليوم؟.».

جاء صوت من بين الصفوف يسأل:

- «هل تختفي الحياة تمامًا بعد هلاك البشر؟».

قال في عصبية:

- «لا.. الحياة تجد طريقًا دائمًا، ولسوف يكون المستقبل لكائنات أكثر تحملًا مثل الصراصير والفئران وهذا يعني أن الصراصير هي التي ستحمل مشعل الحضارة كما تفعل اليوم بالضبط!».

من جديد دوت ضحكات عصبية...

كان يدرك ويوقن ويعتقد ويثق أن الإنسان يتطور.. التطور البطيء غير الملحوظ الذي لن تدركه إلا بعد مليوني سنة.

كل شيء يتطور، وهو كان داروينيًّا متعصبًا.. وقد سره أن قرأ كتابات دوكينز فعرف أن الداروينية لا تجعلك متخلفًا أو تنتمي لعصر آخر. مع دوكينز يمكنه أن يرى أن الداروينية تصمد لهجمات الزمن.. فقط تبدل مظهرها قليلًا في كل مرة لتقاوم العواصف ثم تنهض من جديد.

بعد المحاضرة لحقت به سارة.

سارة ويليامسون فتاة ذات شعر أحمر وأنت تعرف ولعه بالشعر الأحمر، وهناك نمش على خديها وأنت تعرف ولعه بالنمش، ولها جسم

ممتلئ قليلًا وأنت تعرف ولعه بالأجسام الممتلئة قليلًا، تضع عوينات شفافة بلا إطار وأنت تعرف كم يحب العوينات الشفافة بلا إطار.

باختصار كانت سارة تملك كل ما يمكن أن يجذبه نحو امرأة، لكنها كذلك كانت في الخامسة والعشرين، وهكذا كان عليه أن يفر منها فرارًا كلما رآها. الرجل يفر من الفتاة التي يشمئز منها جدًّا والتي يشتهيها جدًّا إذا كان لا يثق بنفسه.

لكن سارة تلاحقه ولعلها تتسلى - الشيطانة الشابة - بارتباكه ومحاصرته.

سوف تتطورين يومًا ما.. وأنا كذلك سوف أتطور. سيتطور الجميع. من يدري؟ ربما لا يحتاج إنسان المستقبل إلى ذكر وأنثى، ولربما كان يتكاثر بالانقسام الميتوسي. بل ربما ستكون هناك طريقة أعقد للتزاوج لا نعرف عنها أي شيء، ما دام الانقسام الميتوسي يقبع أسفل سلم التطور.

عندما تتذكر ضخامة الكون وامتداده، وضآلة الإنسان وهشاشته، فأنت لا تبالي كثيرًا بعواطف محبطة ميتة تتوارى في ركن ما من وجدانك. هذا كلام فارغ.. نفايات متخلفة. سارة مجموعة من الجزيئات متحورة بشكل معين لأداء غرض معين.. لا قيمة لها حتى لو تلاشت الآن. بالنسبة للكون هي ليست أكبر قيمة من الترايلوبايت في قاع بحر. هل يوجد حلزون يمكن أن يعتبر سارة مثيرة؟

- «هل راقت لك المحاضرة؟».

- «جدًّا».

ثم أضافت وهي تحرك كعب حذائها كأنها تصنع حفرة في الأرض:

- «كل هذا الذي تقوله خلاب.. لكنه لا يعتمد على دليل واضح».

قال في غيظ:

- «كل محاضراتي هي هذا الدليل الواضح. كل علم الطبقات الجيولوجية والتشريح المقارن و.. و.... لو لم يكن هذا هو الدليل فعم تتكلمين؟».

لمست زجاج نظارتها في ارتباك وقالت:

- «لديك الدليل على أننا تطورنا.. كل محاضراتك تقول هذا، لكنك اليوم تؤكد أننا مستمرون في التطور.. أننا سنصير شيئًا آخر بعد مليوني عام..».

- «هذا أكيد.».

- «وما الذي يجعله أكيدًا؟».

- «المنطق.».

ثم فكر في مثال مناسب:

- «نحن في الظهيرة.. الشمس في منتصف السماء. لا شيء سوى المنطق والتجربة يؤكدان أننا سنرى ظلامًا ونجومًا.. بعد ساعات عندما تصطبغ السماء بلون أسود وتنتشر النجوم، سوف أؤكد لك أنني كنت على حق..».

- «أنت قلتها: التجربة.. المنطق وحده لا يكفي. البرهان الوحيد على أننا نتطور هو أن نتطور».

* * *

في تلك الليلة حيث جلسا في ذلك البار، رشفت رشفتين من كأس المارتيني وغرست الشوكة في الزيتونة، وأغمضت عينيها كأنها تتأمل مشهدًا جليًّا في داخلها:

- «أحيانًا أحلم بأنني ابتعد.. ابتعد.. أبتعد.. أرى الكون من الخارج.. أرى السدم والسحب الكونية. عندما ترمق صورة وأنفك لصيق بها فأنت لا تفهمها.. عندما تبتعد تفهمها أكثر فأكثر ومع الفهم تعرف أشياء كثيرة. سوف أحل كل الأسرار وأجيب عن كل الأسئلة».

ثم رشفت رشفة أخرى وأضافت:

- «سوف أحل لغز اللانهاية.. كل شيء له نهاية ما عدا اللانهاية فكيف؟ ما معنى الأزل؟ مهما طالت المسافة فهي تنتهي، ومهما طال الزمن فهو يفنى.. فكيف بالعكس إذن؟ ».

اسندت ذقنها المكورة كخوخة مزغبة على قبضتها، وقالت في شرود:

- «هل تحسبنا نعرف عندما نموت؟ هل سنعرف أننا عرفنا؟».

قال مفكرًا:

- «تساءل جلجاميش هذا السؤال يومًا ما ولم يتلق إجابة.».

لولا شيخوخته وفارق السن وشكله المبعثر لبدا له أنهما متحابان يحلمان. لكنه لا يتجاوز حدوده. هي تريد منه ما يعرفه عن الكون لا أكثر، وفيما عدا هذا فلسوف تجد (ستيفن) أو (جون) الخاص بها والذي يقاربها في العمر ويجيد لعب كرة القدم ويفخر بالعضلات السداسية في جدار بطنه.

كان يؤمن بأن التطور حدث ويحدث وسيحدث. لكنه لا يملك أي دليل. بالفعل هي تمنحه حلمًا جميلًا يتوق له، أن يبتعد ليلقي نظرة شمولية بانورامية على الكون.. على الغد.. على منشأنا وعلى خاتمتنا. ما أجمل أن تعود للحياة ساعتين بعد مليون عام لترى كل شيء ثم تغيب من جديد.

لكن هذا مستحيل. عليه أن يقنع بالأسئلة والنظريات، وليأمل في نوع آخر من الخلود هو خلود أفكاره. سوف يأتي من يكملها ويطرح أسئلة ويموت، ثم يأتي من يكمل ويطرح أسئلة ويموت. وبعد مليون سنة سيعرف تلميذ تلميذ تلميذ تلميذ تلميذ تلميذ تلميذه الإجابة.. هذا بالطبع ما لم ينفجر بركان في مكان ما، وتغطي السحب السود وجه الشمس وتنقرض الحياة من جديد، ويبدأ كل شيء من نقطة الصفر، وتحكم الفئران والصراصير الأرض كما فعلت دومًا، وكما تفعل الآن.

د. بارتريدج تخنقه أسئلة بلا جواب.

٨ - السّر

ميران هنا؟.. ميران هنا؟

التفـت كل الجالسـين فـي مجلس الحكمـاء نحو المدخـل، بينما تقدمـت الأميرة ميـران وفي يدها صولجان ليموريـا الذي يحمل رأس العنقـاء. مشـاعل الزيجول تتوهـج بلونها الأرجوانـي المحبب لتلقي الظلال على هذا المشهد المهيب.

ركـع الحـراس علـى ركبتهـم وبعضهـم مـرغ وجهه فـي الأرضية الزلقة، من هول قدسية اللحظة، بينما زأرت الشنادر بصوتها المخيف الذي تترجرج له القاعة. ومن السـماء هبط مشـعل عملاق يتابع مسـير الأميـرة أينما حلت. تقدمت بخطوات ثابتـة نحو العرش، ثم صعدت بضع الدرجات التي يغلفها طحلب الأجرا الثمين. وجلست في وضع الأميـرات الشـهير منتصبـة القامة لكن ركبتيهـا مثنيتيـن للخلف كأنها جمل يبرك. ثم مدت كأسًا لتصب فيه الجارية بعض الراجون الذائب.

قالت للحكماء:

- «أنتم هنا من أجل معضلة لم ولن تحدث في ليموريا من قبل. إن القانون يصطدم مع العرف، وما هو مقدس يصطدم مع ما هو لائق... يوراك؟».

كان عليهـم ألا يرفعوا عيونهم باسـتثناء يوراك الأكبر.. هو الوحيد الـذي يحق لـه أن ينظر لعينيها. وقـد تقدم منها وهو يزيـح عباءته التي تطايـرت أهدابهـا فـي كل شـيء. ارتفع البسـاط ليحمله عنـد قدميها اللازورديتين. وهناك ركع على ركبتيه وقال:

- «أفجا - آل فتى من عامة الناس يا اميرة.».

- «والقانون أقوى مني ومنك. إنه حق المرة الواحدة».

قانـون البـلاد يقضي بـأن من حـق كل فتى صـار بالغًا أن ينـال فتاة أو امـرأة واحـدة فقط يشـتهيها. ليس للمـرأة حق الرفض أبـدًا حتى لو كانت تشـمئز من الفتى. عليها أن تكون لمن يريدها مثل كاهنات دلفي اليونانيات. يمضي معها ليلة واحدة ثم يفترقان في الصباح فلا يحق له أن يراهـا أبـدًا. فقط لو أراد الزواج منها فيما بعد فبوسـعه أن يتقدم لها. بالطبع لن تقبل هي أي عرض تال من أي شاب بعد هذا إلى أن تتزوج. في هذا المجتمع يعرف كل شاب أن زوجته أو أخته أو ابنته أو حتى أمه قد منحت حق الليلة الواحدة لشاب بالغ يومًا ما. إن نال فتاة وراقت له جدًّا فليس من حقه تكرار التجربة إلا لو تزوجها.

حق المرة الواحدة يهدف إلى أن يتعلم الشـباب شـيئًا أو شيئين فلا يكـون الزواج هـو حقل التجربة الأول. ومحمود رأى وسـمع وعرف. يعرف أن جزيرة بوكا بوكا في عالمنا المعاصر كانت تطبق شيئًا كهذا.

المشكلة هي أن الفتى أفجا - آل عندما جاء دوره قال:

- «أريد ميران.. الأميرة!».

طلبوا منه أن يخرس ويكف عن الهرطقة، لكنه شد عنقه وقال:

- «هـذا هـو القانـون. الشـاب يختـار مـن يشـاء وليس مـن حقها الرفض».

كانت هذه مشكلة عويصة، لأن القوم كانوا يقدسون القانون، وبرغم العبثية الواضحة في هذا الطلب فإن الأمر يحتاج لمهرب قانوني.

اجتمع مجلس الحكماء عدة أيام يناقش القضية. الأميرة حسب قانون ليموريا فتاة كأي فتاة أخرى.. ليست من جنس مختلف أو سلالة أسمى.

الفتى أفجا - آل لم يكن سيئًا. كان قويًّا شجاعًا، لكنه بالتأكيد من عامة الشعب وما كان له أن ينظر إلى فرد من الأسرة المالكة.

لكـن هل هذا مخـرج قانونـي؟ هـذا كلام يدركه ويفهمـه الجميع لكنـه لا يتحول إلـى قانون، وعليهـم أن يجدوا حلًّا ثم يغيـروا القانون بعدهـا لمنـع هرطقة كهذه. بـل إن أحمق فكر في أن يقتلوا الشـاب في حادث أليم.

هنا تكلمت الأميرة.. قالت بصوت ثابت رائق:

- «أنا موافقة!».

تبـادل الحكمـاء النظـرات. سـتكون سـابقة مرعبـة، والأدهـى أن أي صعلـوك آت سـيكون مـن حقـه تكـرار الشـيء ذاته مـع الأميرات القادمات.. وماذا لو حملت؟ هل يصير للمولود حق ملكي؟

قال الحكيم في رعب:

- «مستحيل يا أميرتي.. مستحيل!».

قالت في تعال وهي تداعب الشعر الأسود الطويل لشندر غاف:

- «أقنعني.. تكلم بمنطق حتى أراك».

هل الأميرة تحب الفتى أم تحب القانون؟ وهل يمكن أن تحب حرفية القانون لهذا الحد فتمنح جسدها المقدس لفتى غارق في العرق والغبار، ومن العامة؟

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

لهذا يا سيدي المحقق يمكنك أن تفهم سبب انجذابي لسلوى عمران. السبب كما هو واضح لكم هو أنه ما من سبب. كانت جميلة وكانت هشة، وقد شعرت بشيء سادي شهواني يجعلني أتعلق بهذا الضعف. في المدرسة كانت هناك تلميذة تجلس جواري اسمها ميّ، وكان امتحان الرياضيات صعبًا فراحت تبكي.. تبكي وتتوسل لي أن أخبرها بالإجابة. شعرت أنا الطفل بكهرباء تسري في جسدي وسخونة في دمي، وفي لحظة شعرت أنني أريدها بقوة وأحبها كذلك، ولم أدر إلا وأنا أمليها كل شيء بلا تحفظ. دعك من التأثير الفرويدي المجهول الذي يجعلنا نفتن بفتاة أو امرأة معينة بلا سبب. حسب

القواعد النفسية لابد أن هذه رواسب نفسية من ذكريات الأم أو صديقة الأم أو الخادمة أو المعلمة.. لا أدري.

مع الوقت صرت أنتظر قدومها وصرت أكثر حرصًا على النظر في عينيها الصافيتين، وصرت أكثر اهتمامًا بما تحكيه عن زوجها شبه المجنون. أعتقد أنني قاومت كثيرًا جدًّا الإمساك بيدها.. ربما ما هو أكثر جنونًا...

كانت أفكاري سقيمة معوجة، لكني كنت أومن طيلة حياتي أنه من الخير للمرء أن يكون شيطانًا في أفكاره ويتعامل كملاك، من أن يكون ملاكًا في أفكاره ويتعامل كشيطان. فقط يفعل القديسون في أحلامهم ما يفعله الخطاة في صحوهم.

لم أشعر وقتها يا سيدي بأي نوع من الشفقة على زوجها أو الالتزام الأدبي نحوه. إنه هالك. رجل فرغ من الحياة كأنه ذبابة امتصها عنكبوت في شراك بيته، وحاول الانتحار مرارًا، فإن لم ينتحر فهو مجنون. يصعب أن تتعامل معه بمقاييس عادلة كالفرسان. ربما كان الأحرى والأنفع أن أنقذ هذه الروح التعسة - روح الزوجة - قبل أن تجن أو تنتحر هي. إن دوري هنا أكثر نفعًا وأجدى، وهذه الأرض الخصبة تستأهل بذرتي.

لا أنوي أن أحكي تفاصيل يا سيدي المحقق. ليس هذا موضوع التحقيق، لكن دعني أؤكد لك أن سلوى عمران كانت آنئذ مسلحة بأخلاق الطبقة الوسطى. الطبقة التي لا تمنح الرجل شيئًا سوى يدها ليضع فيها الدبلة. لا تعيش مغامرات ولا تتخيل وجود مغامرات،

وتكره جسدها كالجحيم. ترى الجنس خطيئة ضرورية لاستمرار النوع، لكنه عمل آثم مجرم. أخلاق الطبقة الوسطى تجعلها محترمة مهذبة عسيرة المنال باردة خالية من لهيب الأنوثة، وكنت أعرف أنها على الأرجح أرض لم ترتو بعد. لقد خذلها ذلك الزوج شبه المخبول. لكنها كانت كما قلت لك يا سيدي محاطة بسور سميك من أخلاق الطبقة الوسطى. ما كانت لتعبث مع أحد سوى زوجها. بل هي لا تعبث مع زوجها نفسه. ولو كان زوجها عنينًا فهي لن تطلب الارتواء مع أي واحد آخر. الطريقة الوحيدة للظفر بامرأة كهذه هي أن تطلقها من زوجها وتتزوجها أنت، وهو مشروع معقد لم أكن أنوي التورط فيه.

لهذا ظلت علاقتنا وقتها هي ارتباط روحين لا أكثر ولا أقل. كائنان يرتاحان لبعضهما وربما بينهما درجة غامضة لا يعترفان بها من الاشتهاء. لا أستطيع أن أقسم لك أنها لم تفكر فيّ وهي ترقد وحدها تتأمل الظلام في غرفتها، لكن تربية الطبقة الوسطى تدفعها على الفور لسحق هذه الأفكار. أعرف أن سلوى حمم سائلة تعرضت للهواء فتصلبت قشرتها وبردت. لكنك لو خدشت هذه القشرة فلسوف تجد الحمم المتلظية تحرقك.. تذيبك.. تبتلعك... لا أذكر ما تعلمناه في الجيولوجيا عن اللافا والماجما، لكنني كنت أعرف أن المرأة تخضعني بقوة.

ما أردت قوله هو أنني جلست مع محمود أدون كلماته الشحيحة، وهو يدندن أغنية غامضة:

«من غير نفاق.. من دون خجلْ

حبك ململ.. ململ.. ململ».

قاطعته وخطر لي أن أسأله عن حقيقة ما نعتقد أنه يقوله:

-« أحقًّا تعتقد أنك قادر على التنبؤ؟».

- «لا أحد يقدر على التنبؤ».

بدت لي إجابة غريبة، فعدت أسأله مراوغًا:

- «ألا يراودك شعور مبهم بأنك ترى الموتى قبل موتهم، وترى الكوارث قبل أن تقع؟».

ظل ثابتًا ولم يختلج جفنه لحظة، ولم يتسارع تنفسه، وقال همسًا:

- «لا أحد يقدر على التنبؤ.. هذا سؤال غريب. سلْ سؤالًا سخيفًا تظفرْ بإجابة أسخف».

عرفت أنه يكتم ما يعرف أو على الأقل لا يريد أن يخبرني به، فهو لا يحاول خداع أحد أو لعب دور المشعوذ. وقد قضيت ساعات شاقة من الاستجواب حتى بدأ يحكي لي قصة السجلات الأكاشية هذه. قال لي إنه صار يعرف الكثير جدًّا، لكن ما عرفه لن يجدي نفعًا. لن يصدقه أحد، ولن يستطيع منع ما هو شرير ولا الاستزادة مما هو طيب.

عدت أسأله:

- «هل ما زلت ترغب في الموت؟ لو وجدت نفسك في غرفة مريحة بها مسدس وزجاجة سم وموسي وشريط من الأقراص المنومة، وحبل غليظ يتدلى من السقف، ونافذة مفتوحة تطل على

هاوية.. وربما أنبوب غاز أو محقن مليء بالهواء... لو وجدت نفسك في موقف كهذا ولديك الوقت كل الوقت، فماذا ستفعل بالضبط؟».

انتـزع بعض الخيوط التي تحيط بأنامله وعلى جانبي جفنيه ثم قال في رتابة:

- «منـذ أيـام كنـت سأسـتغلها جميعا. مـاذا عن رجل يبتلع السـم وأقراصًا مخدرة، ثم يقطع شـرايين يـده.. ويتحامل ليقف على النافذة ويطلق الرصاص على نفسـه لحظة السـقوط؟ كان هنـاك مانع واحد يمنعني هو أن أترك لمن حولي وصمة.. سوف يلقاهم الناس فيقولون هم أولاء أهل الكافر الذي بخع نفسه.».

- «وهل الدين لا يشكل مانعًا ينهاك عن الانتحار فعلًا؟».

- «أعتقد أن ما أراه من هول يشفع لي ساعة الحساب. الخالق يرى ما أراه ويعرف ما تتجشمه أعصابي من هول في كل ثانية».

- «هـذا لـن يروق للمتدينيـن على كل حال. وهـل معنى هذا أنك اليوم لن تفعل؟».

- «لا أعتقد. سـوف أقف في النافذة بعض الوقت أراقب الليل، ثم أبتلع قرصًا منومًا وأنعم بنوم هادئ».

- «والسبب؟ لماذا أردت الانتحار ولماذا عدلت عنه؟».

وقف وأدار ظهره لي، ثم اتجه للنافذة التي تطل على الحديقة. راح ينظر للأشـجار والممرضات اللاتي يتمازحن معًـا، بينما يجلس على مقعد خشـبي رجل يتسـلى بالبصق على القطط، بالضبط مثل شخصية رواية الطاعون لألبير كامو. قال محمود ضاغطًا على كلماته:

- «كانت الحقيقة قاسية.. لم أطق رؤية كل هذا السواد. رأيت أمامي مستنقعًا عفن الرائحة مفعمًا بالغلق والثعابين ولا نهاية له، فأردت أن أموت قبل أن أعبره سباحة.».

- «ولماذا عدلت؟».

فكر حينًا ثم قال:

- «عسى من واجب المرء أن يبقى حيًّا ليخبر الناس بالمستنقع الذي ينتظرهم. لابد من رجل شجاع يظل واقفًا على أول الطريق ولا يهرب. كان في قريتي رجل يدعى عويس. عندما اشتعلت النيران في بيوت القرية فر الناس في كل صوب. الدخان أعمى الجميع فلم يعد أحد يعرف إن كان يفر من النيران أم إلى النيران. وقف عويس متماسكًا وسط اللهيب، وراح يشير بعصاه للمارة.. لا تدنوا من هنا.. تعالوا من هنا. أعتقد أنه أنقذ الجميع لكنه اختنق في النهاية ثم تفحم عندما تمسكت النيران بجلبابه. ابتنى له أهل القرية ضريحًا وصار اسمه (سيدي العويس) . كذا أنا حسبت الفرار هو القرار الأكرم والأقرب للمنطق، ثم فطنت إلى أن البقاء قد يكون أكثر نبلًا وحكمة».

لهذا لم ينتحر ألبير كامو برغم أنه أهم دعاة الانتحار. رأى أنه ينبغي أن يبقى رجل شجاع حيًّا ليحفز الناس على الانتحار، لكن شجرة مسرعة متهورة على الطريق ضربت سيارته في الجزائر وأنهت طموحه هذا.

كنت منهمكًا في تأمل شاشة الهاتف المحمول يا سيدي المحقق، وفجأة شعرت بشيء قوي كاسح يجذبني أرضًا. انزلق المقعد للخلف

وسقطت.. وأدركت أن محمودًا يجثم فوقي وقد التوى وجهه في مقت لا يمكن وصفه. التأثير يوشك أن يكون شيطانيًّا.

ليس قويًّا لكنه بالتأكيد يملك قوة شيطان، كأن هناك مسًّا جعله أقوى من حقيقته بمراحل.

أنت تعرف سري يا محمود. شفافيتك المحيرة هذه قد رأتْ الحقيقة، وهي أن زوجتك تروق لي. وليكونن انتقامك مرعبًا.. فقط امنحني الفرصة كي أصرخ.. آآآآه!

لكنه كان قد كتم أنفاسي بكفه، وقرب وجهه من وجهي.. شعره الأبيض والتجاعيد الكثيرة ونسيج العنكبوت الذي يلصق جفونه ببعضها... وقال لي:

- «ابتعد عنها.. ابتعد عنها!!!!».

أبعدت فمي عن كفه وقلت مخادعًا:

- «من هي؟».

- «ابتعد عنها.. بوسعي أن أمزقك بأسناني لكني لن أبدد قواي في أمور تافهة كهذه. لن أدخل السجن أو أعدم الآن. ليسا بالزمان ولا المكان المناسبين. فقط ابتعد عنها. لن تظفر منها بشيء أبدًا لكنك ستظفر باحتقاري ومقتي».

ثم أغمض عينيه وراح يهمس:

- «الأشعث يظفر بالكاردينال.. ٤ - ١٣٠ - ١٤ - ٥.... ١٩- ٢٤٠- ٨- ٣...... إلخ».

جهاز التسجيل يعمل... هذه الكلمات سوف تفسر كل شيء فيما بعد لو تركني حيًّا.. لا شك في هذا.. أريد معرفة ما يقول. سوف أترجم كلماته فأنا أعرف ترقيم الكتب. أول رقم يرمز للكتاب.. الثاني يرمز للصفحة.. الثالث يرمز للسطر..الرابع يرمز للكلمة. أي عقل صار في جمجمته اليوم؟ عقل قادر على تأليف عبارات فورية من دون أن يفتح الكتاب لحظة. هذا عمل عقل ألكتروني يعمل بأشباه الموصلات المعدنية المؤكسدة وليس عقلًا من لحم ودم.

ـ «٢٢ ـ ١٧٠ ـ ٢٠ ـ ٣.... ٢٩ـ ٣٠٠ـ ١٢ـ ١...... إلخ».

لقد نهض من فوقي. جلست على الأرض ألهث، وخطر لي أن أطلب رجال الأمن ثم وجدت ألا جدوى من هذا. لو أراد أن يمزق وجهي لفعل منذ قليل.. أنا كنت تحت رحمته فلم يفتك بي. لماذا أهتم الآن بعد ما فقد عدوانيته؟

قلت له وأنا أستجمع كرامتي المبعثرة وعظامي المهشمة ومحتويات جيبي المتناثرة ولغتي المرتبكة:

ـ «يمكنك أن تعود للعنبر.. لقد انتهينا اليوم».

مشى وهو يغمغم:

ـ «فتحسس رأسك.. فتحسس رأسك.. علموه الانحناء.. علموه الانحناء!».

صلاح عبد الصبور وأمل دنقل يلعبان دورًا محوريًّا في حياة هذه المصحة.

* * *

في العام ٢٥٢٥

لو ظل الرجل حيًّا

لو استطاعت المرأة أن تعيش..

فلربما عرفا الحقيقة..

في العام ٣٥٣٥

لن تحتاج إلى قول الحقيقة ولا قول الأكاذيب

كل ما تفكر فيه أو تفعله أو تقوله

هو في القرص الذي ابتلعته اليوم..

في العام ٤٥٤٥

لن تحتاج إلى أسنانك ولن تحتاج إلى عينيك

فلن تجد شيئًا تمضغه

وما من أحد سوف ينظر لك..

في العام ٥٥٥٥

ذراعاك تتدليان مترهلتين إلى جانبيك

وقدماك ليس لديهما ما تعملان

هناك آلة تؤدي كل هذا لك..

في العام ٦٥٦٥

لن تحتاجي إلى زوج ولن تحتاج إلى زوجة..

سوف تختار ابنك وكذلك تختار ابنتك

من قاع أنبوب اختبار..

(أغنية قديمة لزيجر وإيفانز)

* * *

لا أحب هذا الجو البوليسي السقيم. هم يستمتعون بذلك بلا شك، ويحبون لحظة أن تهوي قبضة الدولة الغليظة على عالمك الهادئ. لا شك أن (بيريا - والكي جي بي - وهملر - والجستابو) استمتعوا بلحظات عظيمة من المرح، وفي أوقات بعينها يخيل لي أن مهمة أجهزة الشرطة السرية هي أن تبدو غامضة مخيفة.. لهذا يتقاضون راتبهم. كأن مهمة أجهزة الشرطة السرية هي الحفاظ على سرية أجهزة الشرطة السرية. عندما أقرأ عن فساد المخابرات في عصر صلاح نصر وأطالع المحاضر، فإنني أشعر أحيانًا بأنهم أطفال يلهون بالشعور بالخطورة. دعك من عمليات السيطرة. كانوا يجعلون فلانة تمارس الجنس مع فلان ويصورون العملية ويشاهدون الفيلم مرارًا على سبيل الاستمتاع الشهواني، ويطلقون على هذا «عملية سيطرة».

بهذا الانطباع السلبي نزلت إلى الشارع لأركب السيارة البيضاء كئيبة المنظر مع الرجلين اللذين جاءا يطلبانني. الكل خمن أنني متهم في قضية خطيرة تتعلق بأمن البلاد أو الشرف.. يوشك الرجلان على تعليق لافتة تقول «مباحث».

تساءلت بصوت حاولت أن يكون هادئًا:

- «هل لي أن أعرف سبب الاستدعاء؟».

قال أحد الرجلين بالطريقة الظريفة العدوانية إياها:

- «ستعرف حالًا يا دكتور. اطمئن».

وكيف لي أن أطمئن؟ رحلة ليلية في سيارة تتجه إلى كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي. ابن المقفع شووا لحمه حيًا وأرغموه على أكله في محنة سؤال خلق القرآن. أنا لست ابن المقفع لكنهم سيشوون لحمي بلا شك. أريد الكثير من الطحينة والسلطات لأستطيع الابتلاع لو سمحتم.

السيارة تتوقف أمام بناية حكومية كئيبة. رجال أمن على الباب يفتحون بوابة، ثم نجتاز بابًا ونرتقي بضع درجات. أنت في الغرفة التي تراها في كل فيلم تقريبًا.. فقط تتبدل صورة رئيس البلاد أو الملك في الإطار المعلق خلف المكتب. بعد ٢٠٠٠ سنة سوف يعلقون صورة زركا الأعظم الذي له عين واحدة في جبينه وإيريال اتصال ولسان مشقوق.

كبير البصاصين خلف المكتب يرمقني وينفث الدخان كتنين.. كل هذا مفهوم، لكن هناك أجنبيين يجلسان معنا ويرمقونني في فضول. هل جاء رجال الموساد أيضًا لانتزاع أظفاري؟ هل يغتصبون زوجتي أمامي؟ لكني غير متزوج..... سوف يفتشون في قلبي حتى يجدوا سلوى عمران وسوف يأتون بها ليغتصبوها. لا شك في هذا.

- «دكتور (اسمي)؟».

- «نعم».

- «هل تعرف لماذا استدعيناك؟».

- «كي أتكلم وأعترف يا سيدي.. بعد التعذيب طبعًا».

- «تعترف بماذا؟».

- «أنتم أدرى. لهذا لا يعمل كل واحد في المباحث. أنتم أقرب لضميري مني».

- «أنت شخصية محترمة فلماذا تتوقع أن نستنطقك؟».

- «لأن هذا عملكم».

لم يعلق. أشار إلى الرجلين الأجنبيين وقال بالإنجليزية المفككة الضعيفة:

- «هذان هما جيمي هوفمان ومايكل وستمور، من مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI ويعملان منذ فترة في السفارة بالقاهرة. إنهما أمريكيان طبعًا وما قد جاءا هنا إلا لسبب مهم. هناك اتصالات في مجال المعلومات، وهما يرغبان في استبيان بعض النقاط منك».

الأمر يزداد غموضًا. لو كنت قد قارفت ما يضر بلدك فأنت بالتأكيد لم تقارف ما يؤذي بلاد الفرنجة، ومن أعطاهما الحق في استجوابي أصلًا؟

قال الرجل المدعو هوفمان بصوت أمريكي جهوري لا تصدق أنه حقيقي، كأنه مشهد من فيلم أمريكي:

- «فيما رأينا، أنت أرسلت رسائل بريد الكتروني لعدد من الأفراد في أوروبا والولايات.. تتساءل عن أحداث معينة. هل تم هذا فعلًا؟».

- «بالفعل».

لأنني لم أكن أرتكب عملًا مجرمًا أو خاطئًا. كنت أكمل نظرياتي.. لا أكثر.

قال المدعو وستمور وهو يضع ساقًا على ساق:

- «الخطاب الأول موجه لصديق في روما. تسأل عن مقتل كاردينال على يد رجل أشعث، وقلت إن هذا قد يحدث في ١٨ يوليو. هل هذا صحيح؟».

لم أتصور قط أن يتسرب الأمر بهذه الكيفية. المواطن الغربي كما هو واضح لا يملك ما نملكه من (جدعنة) واستعداد لإخفاء القتلة تحت فراش بيته. بالفعل ارتاب فيّ لأن مخبولًا أشعث الشعر - كما ظهر في كل الصحف - أطلق الرصاص على بابا الفاتيكان. أنت تعرف أن كل من لا يجد ما يفعله يسكب الحبر على الموناليزا أو يطلق الرصاص على البابا أو يسرق لوحة أزهار الخشخاش من متحف محمد محمود. بالطبع نجا البابا ولم نعرف بعد إن كان المعتدي متعصبًا أم مجنونًا أم يكره الكاثوليك بالذات. سألت صديقي الإيطالي لأني حسبت الكاردينال الذي سيظفر به الأشعث غير معروف، فلا أعرف صحة الخبر. تبين أنه ليس كاردينالًا بل أهم بكثير.

- «صحيح يا سيدي.. ».

قال هوفمان:

- «بعد هذا أرسلت للولايات تسأل صديقًا في ساوث كارولينا عن احتمال حدوث انهيار مروع في وول ستريت في ١٠ أغسطس».

لأن الأرقام التي ذكرها محمود كانت تقول: سقوط درب الصوف.. ١٠ أغسطس..نيويورك.. كان سهلًا أن أخمن أن درب الصوف هو وول ستريت. لم يجد كلمة وول ستريت في الكتب فاضطر لترجمتها، ومن حسن حظه أن أي كتاب تقريبًا يحوي كلمة نيويورك. وكما يحدث في كل مرة خشيت أن يحدث هذا الانهيار ولا أعرف.. أنا لا أفقه شيئًا في البورصة.. لذا أرسلت أسأل صديقي الواشي..

لم ينته الأمر بعد..

- «توقعت في ٨ سبتمبر أن يحدث انفجار في مترو الأنفاق بنيويورك. ومن جديد أرسلت تسأل ذات صديق ساوث كارولينا عن انفجار. عندما تحقق هذا كان الأمر أقوى منه، وقد أرسل لنا الخطابين، وبالطبع استطعنا قراءة بريدك كله فعرفنا قصة البابا... السؤال هنا هو...............».

ثم توهجت عينه الزرقاء القاسية.. هذا هو الأمريكي القبيح عندما يكف عن اللطف. لابد أن نظرة مماثلة كانت تلتمع في عيونهم وهم يحرقون الأطفال بالنابالم في قرية تراج بانج الفيتنامية..

- «من أنت؟ هل أنت مدير شبكة إرهابية عالمية، أم أنت تناسخ نوستراداموس؟».

هذه حماقة منهم بلا شك. لا يقدر أي نوع من الإرهاب على التلاعب بوول ستريت. على أنني ارتكبت خطأً جسيمًا.. لقد وجهت لأصدقائي الغربيين أسئلة أكثر من اللازم. أسئلة ما كان لها أن تظل

سـرية بعد ما تأكد هؤلاء من وجود شيء مخيف بصددي. أنا أبدو لهم مخيفًا... هذا حقيقي.

خلال شـهرين ثبتت نبؤات مروعة تزري بأي عراف ممن يظهرون علـى شاشـات التلفزيـون ليقولوا خرافـات وكلامًا عامًّـا يتحمل كافة الوجوه.

هذه المرة هي كلمات محددة دقيقة لا تقبل الشك.

هـدوء غامر سـرى في عروقي.. شـعرت براحة بالغة. هذه أسـئلة أملك إجابتها.. لن يصدقوا حرفًا لكن من قال إنني أصدق؟

وضعت ساقًا على ساق وطلبت بعض القهوة.

قلت لهما:

- «إن القصـة طويلـة.. طويلـة أيها السـيدان... قصة عن شـخص منطـو وزوجـة معذبـة وغيبوبـة وخيـوط عنكبـوت لزجة وسـجلات أكاشـية وبلافاتسـكي وكتـاب ديزان ومحـاولات انتحـار ومصحة... ربمـا لو سـمحتما لي بالكلام علـى راحتي لصار الأمـر مفهومًا لكما، وأنا أطالب بالإنصات ولا أطالب بالتصديق، فلن تصدقا».

- «من أجل هذا جئنا.. جئنا كي نستمع.».

- «وأنا سأتكلم».

* * *

في العام ٧٥١٠

ربما يكون وقت نهاية العالم ..

في العام ٩٥٩٥

أتساءل عما إذا كان الإنسان سيكون موجودًا وقتها..

لقد أخذ كل ما استطاعت هذه الأرض العجوز أن تمنحه

ولم يرد لها شيئًا في المقابل..

الآن مرت عشرة آلاف سنة

وقد ذرف الإنسان بليون دمعة..

على ما لم يعرفه قط..

الآن انتهى سلطان الإنسان..

لكن عبر الليل الخالد

يبدو بريق النجوم البعيد جدًّا..

كأنه بالأمس..

(أغنية قديمة لزيجر وإيفانز)

٩ - الرجل يعرف

كان محمود السمنودي هناك على متن طائرة البوينج المتجهة للصين. الرحلة إم إتش ٣٧٠.

معظم الركاب ماليزيون جاءوا من كوالا لامبور.. وهم يتكلمون بلغتهم التي صار يفهمها فجأة. لم يعدّ الرءوس لكنه أدرك لا شعوريًّا أنهم ٢٣٩ مسافرًا.

لماذا غير الطيار مسار الرحلة بشكل حاد ليطير فوق مضيق ملقة؟ إنه قريب جدًّا من ساحل إندونيسيا. لماذا فعل ذلك؟

لم تعد أجهزة المراقبة قادرة على تسجيل مسار الطائرة..

اتجه محمود إلى قمرة القيادة وفتحها. هناك يجلس الطيار وهو يرمق المؤشرات وقد اتسعت عيناه رعبًا، بينما مساعد الطيار يحاول إرسال رسالة عبر اللاسلكي ومن الواضح أنه لا يستطيع إرسالها.. لا أحد يسمع.. يتصبب العرق على جبينه..

يقول الطيار:

- «لهذا سوف تستجيب هواتفهم المحمولة.. كل من سيحاول الاتصال من الأرض سيجد أن الهاتف يدق..».

ولهذا كذلك سوف يجد أقاربهم أن ذويهم موجودون على شبكة الإنترنت، ولسوف يحيرهم هذا كثيرًا، ويعتقدون أن الحكومة الماليزية تخدعهم أو تخفي ما تعرفه..

سوف تفتش طواقم بحرية من تسع دول؛ هي الصين وماليزيا والولايات المتحدة وسنغافورة وفيتنام ونيوزيلندا وإندونيسيا وأوستراليا وتايلاند عن حطام الطائرة فلن تجده..

الطائرة تحلق فوق المحيط الهادي.. يحاول جهاز الاتصالات والإبلاغ (آكارز) أن يرسل ذبذبات عن موقعها.. دنا محمود أكثر من النافذة وألقى نظرة..

هنا فهم كل شيء.. فهم الذعر في عيني الطيار والعرق الذي يغمر ظهر مساعده.. فهم استجابة الهواتف المحمولة...

إن الأمر لا يتعلق بمثلث برمودا بل هو أكثر درامية وخطورة من هذا.. لا يمكن أن يصدق هذا الهول، ولا أن هذا هو التفسير للغز حير العالم...

إن الحقيقة مؤلمة جدًّا، لكنها ثمينة وتستحق أن نموت من أجلها. لكن ليس من حقه أن ينقلها لآخرين في عالمنا... إنه مثل بروميثيوس لا يحق له أن يسرق النار المقدسة من الأوليمب ليعطيها للبشر...

لغز آخر من ألغاز الكون يفك طلاسمه أمام عينيه......

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

الحارس الليلي عبد الرازق رآه. حكى لي كل شيء بعد هذا، والحقيقة أنه لم يملك سلطة تتيح له منعه، كما أن الرجل لم يكن خطرًا أو محكومًا عليه. هذا نزيل مصحة كأي نزيل آخر.

رائحة الشاي الذي يتم إعداده زكية عندما تمتزج بكحول السبرتاية، ولفافة التبغ كشفتي حبيبة تنتظر ملامسة شفتيه، والكوب ببلورات السكر الملتصقة بجدرانه ينتظر المشروب الساخن في شوق. سوف تمر الساعتان وتنتهي ليلة أخرى بلا مشاكل.

ثم رآه..

عرفه على الفور من مشيته وقامته والمنامة التي لا يبدلها مؤخرًا. كان يمشي في الحديقة الباردة مطرقًا وسط الأضواء الشاحبة التي جعلت الأمر يبدو خارج عالمنا. الضوء ينعكس عبر الشبورة الخفيفة فيخيل لك أنك تحلم.

محمود لم يكن معنا.. أدرك عبد الرازق هذا وارتجف، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم. أطبقت أنامله على كوب الشاي وهو يرى

محمـودًا يمشـي الهوينـى إلى مركز الحديقـة، ثم ينظر لنجوم السـماء المنتثرة ويهتف:

- «ربي!».

ثم صار صوته مجلجلًا مخيفًا:

- «ربي..!.».

كان يتكلم بالفصحى، أو كما قال عبد الرازق: كأنه خطيب مسجد قرية في صلاة الجمعة. وعلى قدر ما تذكره الخفير كان يقول:

- «ربـي!.. الإصر ثقيل لا تتحمله كتفـاي. أعلم أن هذا تم بإذنك ومشـيئتك. ما كان له أن يحدث من دون إذنك ومشيئتك، لكن كاهلي أنـا الفاني ينوء بما عرفـت، ولات حين مناص. هبني النسـيان.. هبني الجهـل.. هبني الغفلة.. أعدني طفلًا غريرًا كما كنت وكما البشـر من حولـي. الذبابـة إن دنت من النار أكثـر من اللازم احترقـت، والبئر إذا امتـلأت فاضت وأغرقـت القرى والسـهول وفتكت بالجميـع. جائعًا مسـغبًا كنت فامتـلأت حتى قاربت الانفجار. قـد ارتقيت دوائر أعلى فأعلـى.. حتى صرت في قمة موحشـة ثلجية. أخشـى أن يتبعني أحد، لكنـي لا أقـدر على العودة لأسـفل. ربي.. قد تحملـت آلام الماضي وقسوة الحاضر ووحشة المستقبل. عرفت من أين جاءت الريح وإلى أيـن هي ذاهبـة.. ورأيت ميـلاد البراكين وكـذا رأيت نهايتهـا. لـم يعد هـذا عقلي وإنمـا هو مليون حيـاة نابضة...إن العذاب الـذي أعانيه لا يوصف. لكم من مرة فكرت في انتزاع حياتي بنفسي، والحمد لك أنني لم أوفق. آليت أن أبقى بينهم لأخبرهم بالهول القادم عسـاهم يعرفون

ويتحسبون.. لكن الألم شديد، وأنا لم أخلق من طينة الأبطال. في كل فجر تنشب الحرب العالمية الجديدة تحت جمجمتي وأحاول أن أنسى.. اتخفف من بعض ما عرفت فلا أقدر. هبني النسيان يا رب أو أمتني...أمتني فأنا لا أملك الشجاعة كي أمحو وجودي بيدي.. أخاف سكرات الموت وعقوبة الجاحد بفضلك... ».

ثم ارتمى على العشب وراح يبكي.. ما كان هذا بكاء بل هو لعواء الكلب أقرب، وأعتقد أنه عض العشب بأسنانه لأنني وجدت عشبًا ممزقًا في تلك البقعة بالذات...

ليس جديدًا عليَّ أن أعرف أن كل المرضى النفسيين معذبون، وهو ما ينقض خرافة رجل الشارع القائلة: «المجانين في نعيم». لكن حالة محمود كانت طازجة وغريبة..يسهل أن تصنف حالته بالبارانويا مع هلاوس تجعله يعتقد أنه نبي لم يفهمه أحد، لكن عذابه كان من طراز غير مألوف ونبوءاته كانت تحيرني فعلًا.

لكن أشياء أخرى كانت تحيرني. فقد صارت جهات أمنية عدة تحتفظ باسم هذا الرجل، ومن العجيب أن اسمه يتردد في مكاتب الاستخبارات المركزية FBI . لو عرف هذا لنسف رأسه بلا تردد. من حقك أن تجن وأن تعتبر نفسك عرافًا عظيمًا، لكن لو وجدت أن جهات أخرى تعتبرك كذلك، فأنت لن تشفى أبدًا.

وكان السيرك على وشك أن يبدأ..

* * *

أول الغيث كان تلك الصحفية الشابة التي جاءت لي في المصحة.

أعرف هذا النمط من خريجات الإعلام المرهقات الفقيرات، اللاتي يركبن أكثر من ميكروباص يوميًا، ويأكلن رغيفًا محشوًّا بالطعمية صباحًا، ثم يعملن في صحف لم يسمع عنها أحد، أو يعملن معدات برامج بالاشتراك مع خمسة أو ستة آخرين. محجبة شاحبة سمراء واهنة مرهقة مغبرة تفوح من قميصها رائحة العرق.. تلبس ثيابًا عملية وحذاء رياضيًا رخيصًا يسمح لها بالوثب من هنا لهناك. كان اسمها روان كما قالت لي، وكانت ترتجف.

- «هل تعرفين معنى اسم روان؟».

- «معناه أميرة باللغة التركية».

هكذا عرفت أنها حمقاء... (روان) جمع (رانية) أي من ترنو بعينيها. لحسن الحظ أنها لم تقل لي إن روان اسم زهرة أو نهر في الجنة. حمقاء وينبغي أن أتخلص منها بسرعة...

سمحت لها بالجلوس وطلبت لها كوب شاي...

سألتني وهي تخرج أداة صغيرة للتسجيل:

- «أريد إجراء حوار مع محمود السمنودي».

شعرتُ بغيظ غير مسبوق... من سرّب الخبر؟ من قال إن محمود السمنودي شخص ما؟ المقال السخيف الذي ستكتبه عنه لتلحقه بالنصابين الذين يخرجون الجن ويعالجون بالأعشاب ويفكون الربط في كل الصحف.. ابتذال في ابتذال.. لو كانت تريد سخفًا فلتجده بعيدًا عن مصحتي...

- «من قال لك إن هناك واحدًا؟».

- «الكل يتحدث عنه..».

- «ومن قال لهم إن هناك واحدًا؟».

- «هناك مقال ظهر في مجلة أمريكية عن عراف مصري تنبأ باغتيال البابا وانفجار مترو نيويورك».

هؤلاء الأمريكان لا يحتفظون بأي سر. عندما يتعلق الأمر بأسرار أمنية فنحن أقدر منهم بمراحل وأكثر كتمانًا، والساسة يعرفون أنك قد تتبادل حوارًا هامسًا في أي مفاوضات مع واحد منهم، لتجد موضوع المحادثة في كل الصحف بعد يومين.. هم شفافون أكثر من اللازم.

- «ذكروا اسمه واسم المصحة.. بشكل ما تسرب هذا إلى الشبكات الاجتماعية في مصر..الكل يعرف القصة الآن..».

هذا سخف...

نظرت لكوب الشاي في يدها ثم قلت:

- «سأكون رفيقًا بك فأسمح لك بشرب الشاي قبل أن ألقي بك إلى الشارع..».

- «لماذا؟».

قالتها في حياد يدل على أنها لم تجد في كلامي إهانة. يبدو أنها اعتادت هذا.. على الأقل هناك شاي في الموضوع.

قلت:

- «لأنني لا أحب أن يتحول مريض من مرضاي إلى فقرة تسلية مثل مشاجرة الفنانة كذا مع الفنانة كذا.. خبر يكتبه الصحفي وهو

يلتهم شطيرة من الفول، ويقرؤه القارئ وهو يلتهم شطيرة من الفلافل أو وهو يفرغ أحشاءه في المرحاض... ثم يغمغم: حاجات غريبة، وينسى الأمر برمته..».

كانت هي شاردة الذهن..

الحقيقة أنها كانت تريد أن يكون الأمر حقيقيًا.. ترغب في أن يكون حقيقيًا. الشقة الضيقة الكئيبة والحياة مع والدتها.. الأم تعاني من داء السكري وارتفاع الضغط وكل ما يسميه الأطباء (متلازمة التمثيل الغذائي) مما يجعل حياتها في خطر داهم. لا أب.. لا أخوة.. فقط الوحدة تمتد كنفق أسود طويل إلى ما لا نهاية..

شريف الذي يلاحقها ليل نهار.. أنت كل شيء لي.. أنت الماضي والمستقبل. سوف نكون معًا للأبد...

شريف وسيم ثري. لماذا لا يرى سواها؟ ماذا يراه فيها؟. هو متحمس جنسيًا ويده نشطة جدًا.. لابد أن تكون متيقظة كلما تعاملت معه، لأنه يفترض أن أي أنثى غلاف من الشمع المتصلب يسهل أن يذوب ببعض المثابرة.. يطلب منها أن تعطيه فرصًا أكبر.. يطلب منها ألا تكون عصبية... ثم في النهاية بدأ يضع التحرر معه كشرط للخطوة التالية: أن يذهب ليقابل أمها..

- «كل فتاة تعرف أنه عليها أن تقدم الطعم الأول كي تصطاد الفتى وتجلبه إلى دارها..».

ما هو هذا الطعم؟ قبلات مسروقة؟ لمسات زائدة عن الحد؟ يفعل هذا كله وأكثر في مكتب الجريدة الذي يعملان فيه، لكنه يريد ما هو أكثر.. لن تمنحه أي شيء آخر لكنها كذلك لا تريد أن تفقده..

قال لها:

- «الرغبة كشهوة الجوع ... في لحظة بعينها من اليوم تتقلص معدتك وتعتصر.. رغبتك في الطعام مذهلة، وبعد قليل من الحرمان تكف معدتك عن طلب المزيد.. (تغضب) كما يقول آباؤنا. وقتها لو وضعوا أمامك ديكًا روميًّا فلن تلمسيه.. سوف يصير الزهد هو كل شيء، وأنت لن تحبيني عندما أزهدك.. صدقيني».

تعود لدارها الكئيبة واهنة الإضاءة وترمق أمها التي تستند بصعوبة لتصل للمطبخ لتعد لها الطعام. تعرف جيدًا أن المرأة ستسقط ذات يوم ولن تتكلم ثانية.. هذه الخطوات المتعثرة لا تقودها للمطبخ، بل هي في الحقيقة تتحسس مدخل المقبرة..

سوف تموت أمك يا روان. ستكونين وحدك تمامًا في هذه الحياة بلا أسرة ولا زوج. لكن.. ربما لو كان شريف صادقًا ولو لعبت بالخيوط ببراعة لاستطعت أن تظفري بزوج.. أنت تحبينه.. أليس كذلك؟ لكن ماذا لو نال ما يريد أو معظمه وتخلى عنك؟

روان تخنقها أسئلة بلا جواب..

ليت هناك من يجيب عن هذا السؤال.. ليت محمودًا هو الرجل الذي يعتقدون أنه هو..

الاستخارة؟ كادت تصلي الاستخارة ثم أدركت سخف موقفها.. هل تصلي استخارة تقرر بها إن كانت تمنح جسدها لشريف أم لا؟ دعك من أن الاستخارة تحتاج إلى حيادية كاملة، وهي لم تكن محايدة.. كانت أقرب إلى قبوله.. أقرب إلى تركه يفعل ما يريد..

فجأة رفعت عينيها نحوي وهمست:

- «أرجوك أن تسمح لي بمقابلته».

- «هل يوجد سبب واضح؟».

كان السبب جليًّا في عينيها اللتين تجمدت فيهما الدموع وجحظتا... عندها أدركت أنها لا تريد الكتابة عن محمود قدر ما تريد أن تراه هو نفسه...

الدموع..!.. تبًّا !... الضعف الأنثوي الذي يذيبني ويقهرني، والذي يشدني شدًّا نحو سلوى عمران. شفقة ذات طابع شهواني تدفعني إلى أن أخضع لما تريد..

ضغطت على جرس ليأتي العامل، ثم قلت لها وهي تجفف دمعها:

- «سوف تقابلينه لدقائق. لا تطيلي اللقاء. أحسبه لن يتكلم. لا أحد يقدر على جعله يتكلم إلا إذا أراد هو.».

نهضت واحمر وجهها وجمعت أشياءها وهي تهمس بعبارات أعتقد أنها عبارات شكر. وسرعان ما كانت تلحق بالعامل الذي اجتاز الحديقة ثم دخل إلى بناية صغيرة فيها العنابر. إن مصحتنا لا تبدو مثل تلك المصحات التي تراها في أفلام الرعب، ذات الجدران المبطنة والممرضين الذين يلبسون قفصًا على رءوسهم. هي أقرب إلى مجموعة شاليهات أنيقة مريحة.

سلام نفسي عميق غمرها وهي تدخل مع العامل إلى غرفة محمود.

- «الآنسة تريد الكلام معك يا أستاذ محمود».

استغرقت بعض الوقت لتدرك أن هناك نافذة تطل على الحديقة. ستائر جميلة مزدانة بالأزهار. فراش جواره كومود صغير عليه كومة من الكتب.. أدركت فيما بعد أن كل ركن في الغرفة فيه كتب.. لم تتبين العناوين جيدًا. هناك مزهرية بها أزهار بنفسجية منعشة للنظر، وهناك خفان مقلوبان في ركن الغرفة. هناك عند النافذة يقف محمود السمنودي وهو ينظر للخارج. ترى منامته المميزة وكتفيه المتشنجتين.

خطت للداخل في ارتباك بينما انصرف العامل. فتحت فمها لتتكلم فجاء صوت الواقف في النافذة:

- «الأمير ينال كل العذارى عند النبع.. ما من عذراء تنال الأمير... ٥ - ١٣٥ - ٤ - ٥.... ٣١- ١٢٠ - ١٨- ٧...... إلخ ..».

لم تفهم.. مدت يدها لحقيبتها وأخرجت جهاز التسجيل. قامت بتشغيله بينما هو يردد العبارة مرارًا، ثم سألت:

- «هل تسمح لي بإجراء حوار معك يا أستاذ محمود؟ هذه مجلة الـ.......................».

قال دون أن يلتفت للخلف:

- «قد أجبت عن أسئلتك كلها.. لو كنت تجدين كلماتي غامضة فأنت لا تستحقين وهج المعرفة. كلماتي هي هديتي لمن يفهمها... ».

هي لا تفهم... لكنها لن تعترف له بذلك. ألحت:

- «هي بضعة أسئلة عن حياتك ونبؤاتك».

- «لا أحد يقدر على التنبؤ».

- «لكنك فيما عرفت تكلمت عن محاولة اغتيال البابا وتفجـ....».

- «لا أحـد يقدر علـى التنبؤ.. إنما هناك مـن يرتقون الجبل فيرون أبعد».

- «ما تقوله يتحقق في...».

- «لا شـيء سـيكون.. إنما كل هذا قد كان.. أنا أحكي قصصًا من الماضي».

عـاد يكرر في إلحاح.. وهنا اسـتدار لها فتراجعـت هلعًا. لقد كان يضع عصابة على عينيه.. المجنون يضع عصابة على عينيه فلماذا ينظر خارج النافذة؟.. وهناك سـدادات في أذنيه، فكيف عرف أنها تكلمه؟ كيـف سـمعها؟.. لقـد أراد أن ينعـزل عـن العالـم تمامًـا، وبرغم هذا شعر بها.

وعندمـا دققتْ في وجهه أصابهـا الرعب من كل خيوط العنكبوت أو النسـيج اللـزج الذي يحيـط بملامحه... يتكاثف عنـد زاويتي فمه، ويتدلى من حاجبيه ويحيط بأذنيه. ما هذا؟ هل هذا الرجل يتعفن حيًّا؟

هذه المرة لم تعد على استعداد للبقاء أكثر. تراجعت للخلف وهي تردد:

- «آسفة على إزعاجك».

ثم انطلقت تسـابق الريح بحذائها الرياضي إلـى خارج البناية، إلى أن وصلـت لي في مكتبي. كنـت أتوقع رد فعلها.. محمود يبدو مرعبًا لمـن لا يعرفـه أول مـرة.. منذ طفولتـه كان يبعث التوجـس حتى لدى

بلطجية المدرسة. شاحبة برغم سمرتها تلهث في طلب الهواء، مدت يدها تشرب كوب الماء الذي جاء مع الشاي، ثم قالت:

- «يقول كلامًا مبهمًا».

- «كذا يفعل العرافون جميعًا».

- «إنه يثير رعبي».

- «كذا المرضى العقليون جميعًا».

- «يرى من غير عينين ويسمع بلا أذنين».

- «كذا الشعراء جميعًا».

- «وجهه مليء بخيوط لزجة مبهمة».

- «كذا الفطريات جميعًا.. الرجل في رأيي أقرب لفطر منه لإنسان».

مدت يدها تلوح بجهاز التسجيل.. وقامت بتشغيل الشريط لأسمع صوت محمود المألوف يقول:

- «الأمير ينال كل العذارى عند النبع.. ما من عذراء تنال الأمير... ٥ ـ ١٣٥ ـ ٤ ـ ٥.... ٣١ـ ١٢٠ ـ ١٨ ـ ٧...... إلخ..».

كانت لديَّ سياسة بسيطة بعد ما تعلمته مؤخرًا.. أجعل الممرضين يأخذون محمودًا إلى الحديقة، ثم أطلب بعض مجموعته من الكتب أتصفحها وأحاول فهم الرسالة، وكان العامل قد تعلم أن يأتيني بالكتب التي أعطيه أرقامها في كل مرة مثل رقم ٥ ورقم ٣١ هذه المرة.. إلخ..

- «ماذا تنوي عمله؟».

- «صه.. إنه يفضل استعمال الشفرة لتعقيد الأمور... ما من عراف يتكلم بوضوح ولغة صحيحة. لابد من أن تغمر الظلال كلماته وأن تكون هناك في عباراته أركان مظلمة، ليقدر على التراجع. لم أسمع قط عن عراف يشعل لفافة تبغ ويقول: مساء الخير يا سادة.. هناك فيضان في الهند يبدأ اليوم الساعة السادسة.. الحياة أعقد من هذا، وهم أخبث من هذا».

عندما جاءت الكتب ذات الأرقام التي طلبتها رحت أتصفح...

كانت الرسالة تقول : «رغيف - سرقة - فرن».

قالت الفتاة في حيرة:

- «لا أفهم... كل هذه الضوضاء من أجل سرقة خبز من الفرن؟».

قلت وأنا أضع الكتب فوق بعضها:

-« الأمير ينال كل العذارى عند النبع.. ما من عذراء تنال الأمير... سرقة أرغفة من الفرن.. هذا تعبير غربي يعني مضاجعة فتاة ثم الفرار قبل أن تحملك المسئولية أو تطالبك بإصلاح غلطتك. لو سمحت لنفسي بأن أتخيل، فهناك شاب يحاول خداعك.. شاب أقرب للأمراء، وسوف ينالك ثم يختفي!».

ثم أضفت:

- «الرجل - محمود - يتصرف بسأم وملل حقيقيين، كأنه يرى فيلمًا رآه من قبل.. لهذا يعطي لمحات عجولًا نافدة الصبر ولا يتوقع أن تسألي أكثر».

عندما نظرت في عينيها أدركت أن الكلمات قد لمست جرحًا ملتهبًا متقيحًا في روحها.. إنها على وشك الانهيار.

- «ما هي قصتك بالضبط؟».

وهكذا حكت لي كل شيء.

* * *

روان يا بلهاء...

لماذا لم تصدقيني هذه المرة على الأقل؟ أنا لا أثق بكلمات محمود وأصر على أنه مخبول، لكن حدسه يصيب أحيانًا كثيرة..

لماذا تركت قدمك تنزلق؟ لماذا سمحت لهذا الشريف بأن يكتب عقد زواج عرفي، فتتصورين أن ما تقومين به مشروع بينما أنت تخدعين نفسك...؟

هناك في شقة صديق له تم كل شيء.. أنت فتاة الطبقة الوسطى التي تعلمتْ أن هذا أهم شيء في العالم وسبب وجودها، قد ضحت بهذا كله على مذبح وعد الزواج، مع وعد بأن يصير الزواج العرفي رسميًّا عما قريب. هناك أرغفة كثيرة ساخنة قد سرقت من الفرن.

لعلك أردت أن تنخدعي.. أنت أيضًا تملكين شهوة عجولًا قاسية وقد حان وقت إطفائها.. واليوم أنت تتذكرين كلمات محمود فتبكين.. الصغير الذي يتكون في أحشائك ولا تعرفين ما تعملين به، وأمك التي ستفقد حياتها وقلبها لو عرفت حرفًا مما فعلت، وشريف الذي ذاب تمامًا من لوحة عالمك فلم يعد له وجود.. أنت مجرد

فتـاة يحكي عنهـا لأصدقائه وهـو يدخـن البانجو في سـيارة تقف في طريق مظلم بالمقطم، ولسـوف يقص لهم قصتك وما فعله بجسـدك، وما قلته له في لحظة النشـوة الكبرى.. سـوف يضحكون حتى يسعلوا وتدمع عيونهم ويبصقون، وسـوف يقولون إنك عاهرة بالفطرة.. بنت الـ....!... تتظاهر بالشرف والتمنع!

كان عليك أن تصدقي..

لقد نال الأمير كل العذارى اللاتي أرادهن عند النبع، بينما لم تظفر عذراء واحدة بالأمير... هذه هي الحقيقة...

ما حدث لك يمكن أن يكون مقالًا مثيرًا مذهلًا، لكنك لن تنشـري حرفًـا منـه طبعًـا: «العـراف أنذرنـي بـأن الفتى سـوف يخدعنـي فلم أصدق.. اليوم أنا في ألعن مأزق مررت به في حياتي». سأتركك الآن تبحثين عن صديقة تعرف عيادة طبيب يمكنه أن يحل المشـكلة.. هذه مشكلتك يا صغيرتي فلا تضيعي وقتي من فضلك....

١٠ - الأبـــدي

يُمشّط القائد المفدى منصور أحمد الديب شاربه بمشط صغير في جيبه، وهي عادة تشعره بالفحولة والسيطرة. ربما يعود هذا لما يتذكره بشكل ضبابي من طفولته في القرية، عندما كانت الرجولة ترتبط بالشارب الكث اللامع المعقوص لأعلى. يرمق صورته في المرآة وهي تضوع بالعطر الثمين الذي له نفس رائحة السلطة والسيطرة. نعم.. هذا النوع من العطر ينعكس في المرآة ولا يدري كيف.

ببطء بدأ يرتدي القميص بينما الوصيف يساعده على إغلاق الأزرار. ثم وضع ربطة العنق ليترك للوصيف استكمالها. الدبوس المذهَّب الأنيق.. جاء الوصيف الثاني حاملًا سترته فمد ذراعيه في حركة آمرة ليقوم الوصيف الآخر بإدخالهما في كمي السترة. الحلاق قد شذب ذقنه صباحًا كما حلق الشعيرات في طاقتي أنفه..

هناك يقف بين خمس مرايا تعكس آلاف الصور له من كل الزوايا. جيش كامل من المنصورات الديبات يقف متأهبًا لتنفيذ أوامره.

فرد صدره وشمخ بعنقه، ثم وجه نظرة حادة صارمة إلى وجهه في المرآة فبادله النظرة. يحب هذه النظرة بالذات لأنها تشعره بقوته.

إنـه هنا.. متأنق عطر شـامخ يملك نفوذًا يذهـب بالعقل. إنه الذكر الأبـدي الخالـد في أذهان النسـاء. كلما نظر لنفسـه تذكـر قصصًا عن موسـوليني عندما كان يجوب شوارع روما على ظهر حصانه الأبيض، شامخ الرأس نافشًا صدره العاري المكتنز بالعضلات المبلل بالعرق. عندها كانت نسـاء روما كلهن ينظرن له ويرتعشـن ويحلمن ثم يهرعن لأحضـان أزواجهم.. ويحملن... لا يمكن أن تنسـب هؤلاء الأطفال للأزواج.. إنهم أبناء الزعيم.

راقت لـه الفكرة جدًّا... لولا اختلاف الثقافات والأعراف لمشـى فـي موكب مهيب عاري الصـدر. وكان في هذا الصدد بالذات يملك الكثير مما يعطيه، فهو في سن الخامسة والستين حريص أشد الحرص علـى ممارسـة الرياضـة البدنيـة.. التماريـن السـويدية ولعـب التنس والسباحة... لهذا كان فخورًا بجسده العضلي.

لقد قضى خمسة وثلاثين عامًا من عمره غير مكترث بصحته برغم خلفيته العسـكرية، لا يمارس الرياضة ويدخن بشراهة ويأكل ما يروق لـه، ويضاجـع من تحلو له. عندما وصل إلى الحكم بمغامرة طويلة لا يتسـع المجال لذكرها هنا، أدرك أن هذا الجسـد عربة بالية لن تتحمله طويـلًا. لقد تحمله الجسـد فـي رحلة البحـث عن السـلطة، لكنه لن يتحمله أثناء السلطة نفسها.

احتـاج الأمـر إلى نظـام غذائـي ودوائـي محكـم، وإلـى دعامتين في الشرايين التاجية، وإلى ممارسة الكثير من الرياضة والامتناع عن التدخين، برغم أنه يدخن سيجارًا من وقت لآخر ليشعر أنه جنرال دكتاتور من أمريكا اللاتينية. لا تستقيم صورة هؤلاء الجنرالات من دون سيجار.

أنا أبدي.. أنا خالد ولن أموت أبدًا..

كان يدعـي التدين، لكن فكرة ألوهيته الخاصة وكونه لا يموت ولا يقهـر، ويحيي ويميت ويرزق كانت تلاحقه لا شـعوريًّا.. ولم يعترف بها لنفسه قط.

رحلة طويلة خاضها منصور أحمد الديب إلى القمة. البقاء للأصلح وهـو من اسـتطاع أن يواصل الرحلـة لنهايتها من كل أبنـاء الوطن. لم يمـت ولم يُعدم ولم يسـجن... ونجح في كل شـيء أراده وفي هزيمة خصومه السياسـيين والتنكيل بهم.. ونجـا من عدة محاولات انقلاب أو اغتيـالات.. معنـى هذا أنه الأفضل فعلًا... أفضل وأقوى واحد في رقعة البلاد كلها، والوطن عجز عن أن ينجب مثله.

مصمـم هو على الاسـتمتاع بالجائزة، ونيل كل شـيء تـاق له فيما مضى ولم ينله.

كان يشتهي النساء بحق فيما مضى، لكنه عندما وصل لقمة السلطة أدرك أولًا أنهن سيهدمن صحته، وثانيًا أدرك أن شهوة النفوذ والسلطة أقوى بمراحل من هذا الكلام الفارغ..

كانـت زوجتـه الطيبة – نصـف الريفية – التي تزوجها منذ خمسـة وعشرين عامًا كافية جدًّا.. تعطيه المظهر الاجتماعي اللائق والأطفال. هذا يكفيه.

الدكتاتورات الذين عشـقوا النسـاء بنهم هلكوا.. تذكر عيدي أمين وبوكاسا وسوكارنو....

لا يعني هذا أنه يعتبر نفسه دكتاتورًا.. كما قلنا كان يؤمن بنوع من الحق الإلهي اختاره للقيام بمهمته.. ولكن هذا الحق يحتاج إلى كثير من العنف لحمايته... الكثير من الغلظة وربما الظلم.

نظر لنفسه في المرآة وميل رأسه في وضع يحب أن يراه في الصور لأنه يجعنه يبدو أسطوريًا، ثم قال لمن حوله وياوره:

- «هيا بنا!».

* * *

يحب القائد المفدى منصور أحمد الديب أن يقابل رجاله في ساعة مبكرة من اليوم، لأنه يتوقع أن يمضوا الليل قلقين بلا نوم، والإدرينالين يتدفق في دمهم. يحب أن يرى التوتر والعيون المحمرة والجفون المنتفخة التي لم تذق النوم، فهذا يشعره بالقوة والسيطرة.. شهوة القوة والسيطرة لا مثيل لها.

عندما دخل إلى القاعة الواسعة حيث الخارطة الكبيرة للبلاد التي تحتل جدارًا كاملًا، والمائدة الطويلة التي تناثرت عليها أباريق الشاي وزجاجات العصير وأطباق صغيرة فيها بعض البتي فور. كان يستمتع جدًّا بفكرة أن أحدًا لم يجرؤ على تذوق قطعة بتي فور أو كوب شاي واحد في حضرته منذ وصل للحكم. هناك أزهار وهناك كومة من التقارير، وهناك حارساه الشخصيان وياوره.. يجلس في سيطرة وهو يرمق في ثبات العميد كمال حمدي.. رئيس المخابرات. الرجل البدين شرس النظرات جاحظ العينين، والذي يتحول لقط وديع عندما يقف أمامه، بينما يمكن بسهولة أن يعض مرءوسيه.

يظـل رجل المخابـرات واقفًا حتى يشير له القائد فـي أريحية كي يجلس. يجلب له ياوره إفطاره الصحي البسـيط المكون من التوسـت وبيضـة مسـلوقة واحدة وكوب عصير. كان شـرهًا جـدًّا في الأكل من قبل، لكنه فقد شـهوة الأكل مع شـهوة النسـاء.. صار بحاجة فقط إلى ما يحفظ عليه حياته. شـهوة السـلطة بركان أحرق بلهيبه كل الشهوات الأخرى..

يلتهـم أول لقيمـات مـن الإفطـار دون أن يرفـع عينيه نحـو رئيس المخابرات على سبيل الإهانة، لكنه كلما مرت دقيقتان يرفع عينًا ثاقبة خارقة ويرميه بنظرة كأنها طلقة بندقية، ثم يعود للأكل بلا مبالاة.

كلـب.. هـذا هـو رأيـه في كمـال حمـدي.. يعـرف تاريخـه جيدًا وبالتأكيـد يحتفـظ لـه بعشـرات التسـجيلات والملفـات والأفـلام. يستطيع القضاء عليه متى أراد. للأسف لم نعد في العصر السعيد الذي كان الدكتاتـور فيه يطلق الرصاص على معارضيه أو أعدائه متى شـاء، ويذيبهـم في الحمـض. اليوم يجـب أن تكون هنـاك محاكمة صورية يعـرف بها العالم، وتهمـة جنائية ملفقة.. لابد من سـبب غير الكراهية الشخصية...

تعلـم القائد المفدى منصـور أحمد الديب الـدرس مبكرًا من كل دكتاتـور يحتـرم نفسـه: لا تحـط نفسـك إلا برجـال قذريـن ملوثين. لتحتفظ بدليل إدانة كل واحد منهم. دعهم يراقبوا بعضهم ويتجسسـوا علـى بعـض. هـذه القشـرة المحكمـة العفنة لا تتفـكك أبـدًا إلا بغزو خارجي كما حدث مع صدام حسـين. ما يحمي الدكتاتور حقيقة ليس حُرّاسـه ولا جهاز أمنه ولا المدرعات التي تحيط بقصره، بل هي طبقة

المنافقين والمنتفعين وترزية القوانين من حوله. هذه الطبقة السميكة تدافع عن وجودها نفسه وعن ثرائها ونفوذها ومستقبل أولادها، وبالتالي تفديه بالروح والدم فعلًا وهو هناك في القلب. هذه الطبقة صادقة جدًّا عندما تهتف باسمك.. لا أحد لا يفدي ثروته وثروة عياله بالدم. عندما يكون دخلك بالملايين وتضمن لذريتك أفضل الأماكن في البلد، وعندما يكون ملف فسادك ذا رائحة نتنة يخفيه الزعيم في خزانته، ثم يأتي شاب مخبول يحمل علمًا ويطالبك بأن تسقط الزعيم وتتقاضى عُشر راتبك ويصير ابنك مواطنًا عاديًّا كأي شاب آخر، ثم تلوح بهذا العلم من أجل الحرية.. أول شيء ستفعله هو أن تدس سارية هذا العلم في مؤخرة الفتى المخبول. لا شك في هذا...

كمال حمدي كلب.. لكنه لا ينكر أنه كلب شديد الكفاءة، يجيد فنون الحراسة فعلًا.

وضع كمال الملف الثقيل الذي يحمله على المنضدة وقال بطريقة شبه مدرسية:

- «كل شيء هنا أيها القائد المفدى. كما قلنا أمس؛ فهؤلاء الكلاب حاولوا أن يهاجموا موكبكم يوم ٣ أكتوبر بطائرة مقاتلة تستهدفه بصاروخ.. بالفعل اتصلوا ببعض ضباط الطيران، وقد استجاب لهم من يدعى الرائد «محمد عقاب».. كل شيء عنه في هذه الملفات. كانوا سينفذون خطتهم بالفعل لولا أن الله يحفظكم ولولا أن جهاز مخابراتكم يقظ ذو كفاءة، ولولا ....».

قال القائد المفدى:

- «ولولا ذلك المخبول».

كنت أنا ذلك المخبول طبعًا، وربما هما يتحدثان عن محمود السمنودي..

أنا صرت خبيرًا في نبؤات السمنودي الرقمية. عندما مررت عليه في غرفته كان واقفًا أمام النافذة كعادته، ينظر للخارج في حالة الحرمان الحسي التي اعتادها مؤخرًا. أعتقد أنه يقرأ السجلات الأكاشية هذه أو يسترجعها في تلك اللحظات.. لا أدري.

سمعته يقول بصوت جهوري:

- «العقاب يفترس الذئب.. ١٨ - ٢٤٥ - ٧ - ٥.... ٣- ٣١٠- ٢٠- ٥...... إلخ ..».

كنت قد بدأت التسجيل فعلًا على هاتفي المحمول، وهكذا عدت لأفرغ ما قاله في مكتبي... جلبت الكتب كالعادة ورحت أبحث في رقم الكتاب فرقم الصفحة فرقم السطر فرقم الكلمة.....

كانت الكلمات تقول: طائرة - السلطان - ٣- موكب - أكتوبر..

لو قلنا إن الذئب هو الديب، ولو افترضنا أن العقاب هو الطائرة فنحن نتحدث عن شيء مرعب..

لم أكن حرًّا في ذلك الوقت. كنت أعرف أن حياتي ملغمة وأن هناك أكثر من جهاز تنصت في مكتبي.. في حمامي.. في داري..تحت وسادتي.. في حذائي.. في غرفة محمود..

كنت أعرف أن الجدران تنظر لي طيلة الوقت، والأدهى أن رجال FBI يرون ما يراه رجالنا. كنت أعرف أنني لم أعد حرًّا، وأن هناك

من يعد أنفاسي ويعرف نوع ثيابي الداخلية وعدد مرات تبولي الليلي. بالتأكيد لديهم صورة هولوجرافية عارية لسلوى عمران يعكف الخبراء الأمريكان على فهم أسباب انجذابي لها. ربما هناك خبير في متشيجان يحاول تحليل طريقتي الغريبة في المشي أو صوت غازات بطني في المرحاض.

كانوا يرتابون بي. لم يكفوا عن ذلك.. ولم يكفوا عن إعلان ذلك.

وكانت قصة محمود السمنودي مألوفة لهم لكنهم لا يصدقونها. ولهذا تركوه في المصحة كما هو.

برغم هذا تسرب الخبر إلى جريدة أمريكية ومنها إلى الشبكات الاجتماعية كلها.

كنت أتذكر سعاد حسني في فيلم الكرنك، عندما انتقد بعضهم أساتذة الكلية أمامها فآثرت الصمت. في نفس اليوم وجدت أنها في قبضة خالد توفيق صفوان ضابط المباحث، الذي سألها وهو يجذبها من شعرها لماذا لم تكتب تقريرًا عما حدث؟

هل أظل صامتًا؟ بالتأكيد سجل كثيرون هذه النبوءة التي قالها وسمعوا مقاطع منها، خصوصًا «العقاب يفترس الذئب».. لا تفترض الغباء في هؤلاء القوم فهم ليسوا بالسذاجة التي تتصورها. لو حدث شيء معين في ٣ أكتوبر فلسوف أجد نفسي عندهم من جديد مع السؤال: لماذا لم تقل ما كنت تعرفه؟ ربما أواجه نفس مصير سعاد حسني في الكرنك كذلك.

رفعت السماعة وبصوت مخنوق طلبت كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي. أخبرته أنني متوجس قلق وأرغب في لقائه..

فيما بعد عرفت أن العقاب الذي يفترس السلطان، هو طيار اسمه محمدعقاب فعلًا.

لقد كانت النبوءة أخطر مما تصورت، وتفككت الخيوط ليدرك الكل أن هناك محاولة اغتيال جريئة كانت تستهدف موكب القائد المفدى، يوم ٣ أكتوبر.. بعدما تم تغيير مسار الموكب فجأة يوم ٣ أكتوبر، فوجئوا بأن طائرة مقاتلة أقلعت وانحرف مسارها لتحلق على ارتفاع منخفض فوق المدينة، بالضبط فوق مسار الموكب كما كان متوقعًا، ثم عادت تجر أذيال الخيبة. كان استنتاج القصة سهلًا لو استندنا إلى ما قلته أنا.

- «أنت تنبأت يا محمود».

- «لا أحد يملك القدرة على التنبؤ.. أنا ارتقيت الجبل وركبت السحاب فرأيت أبعد منكم بكثير».

هناك قصة شهيرة عن الطبيب العظيم ويليام أوسلر، الذي فحص فتاة مريضة بحمى روماتزمية فقال للأطباء الشبان أنهم سيسمعون لغطًا بعد أسبوع. قالوا في استنكار:

- «سيدي.. نحن لا نسمع شيئًا. فهل تمارس الشعوذة والتنبؤ في علم الطب؟».

قال لهم في ثقة:

- «هنـاك لغـط أسـمعه الآن فعـلًا، لكن حواسـكم لن تسـمعه إلا عندما يتعالى بعد أسبوع من الآن!».

مرهف الحس قد يعطيك الانطباع بأنه يتنبأ.. ربما كان هذا هو الحال مع محمود، لكن ما نوع المؤثرات الحسية التي تطلعك على المستقبل؟

مـا أعرفـه هو أن كبير البصاصين الذي سيشـنقني علـى باب زويلة بعـد ما ينتزعون لسـاني ويقطعون كفي، بدا راضيًـا عني جدًّا، وعرفت أن العميـد كمال حمدي رئيـس المخابرات الوغد منتـش جدًّا، القائد المفـدى منصـور أحمـد الديـب، اللـص الذي يجمـد اسـمه الدم في عروقي مسـرور جدًّا. رءوس كثيرة سـتطير هذا الشـهر وسوف يمزق الرصاص صدر محمد عقاب بعد محاكمة عسـكرية مدتها ربع ساعة. لم أكن بطلًا في حياتي، فلا تلوموني. على من يبتغي البطولة أن يتقبل المفاجآت الصغيرة مثل الشنق والرمي بالرصاص.

- «القائـد والحـق يقال راضٍ.. يمكنك أن تطلـب منه ما تريد.. لو أردت أن يعاد بناء هذه المصحة بالكامل».

كل ما كنـت أريده هـو أن يتركنـي القائد وشـأني، وأن يبعدني عن دائرتـه الحارقة. كل من يقترب من هؤلاء يحتـرق، وأنت تعرف جزاء «سنمار» بعد إتمام قصر الخورنق، وتعرف آخر خدمة الغُزّ... يا نحلة لا تلدغيني ولا أريد عسلًا منك..

لكن الأمور كانت قد تدحرجت عبر المنحدر وصار من المستحيل أن توقفها..

* * *

هكـذا كان بإمكانـك بـدولارات زهيـدة أن تحصـل علـى تذكرة، وهـذه التذكرة تضمن لك جولة بطائرات الهليوكوبتر ووجبة ساخنة، مـع إقامـة لليلة واحدة فـي فندق بغداد. لا تخف. لـم يعد لدى هؤلاء صواريـخ يقذفونها على الطائـرات كما كان يحدث في زمن سـحيق. لم يعد لديهم شـيء على الإطلاق، لذا سـوف يغمرك شـعور سـاحق بالتفوق وأنت تراهم يركضون مذعورين عندما يرون الطائرات. سوف تشـعر بأنك إله أبيض كما كان كورتيز وبيزارو يشـعران في المكسيك وأمريكا الجنوبية.

منـذ فتـرة أصـدرت السـلطات الغربيـة للاتحـاد اليـورو أمريكـي تعليمات صارمة بعدم إطلاق الرصاص على هؤلاء من الطائرات. قال المبشر «رالف إميرسون» إن علينا أن نعتبرهـم أخوة لنا في البشرية ضلوا الطريق. الحقيقة أن كثيرين وجدوا صعوبة في اعتبار هؤلاء أخوة لهم.

لكـن العـادات القديمـة تمـوت بصعوبـة، ومـا زال هـؤلاء القـوم يشعرون برعب هائل عندما يرون الطائرات.

يمكنك أن ترى خيامهم والخرائب التي كانت مدنهم.

تنـزل الطائرات أخيـرًا ليمكنـك أن تصور بعض الأسـر وأطفالهم وهـم يتـوارون في الخرائـب ويرمقونك في فضول وذعـر. لا بأس من تقديم بعض شطائر الهامبرجر أو علب اللبن وعلب رقائق القمح لهم. المهم ألا تتركهم يتنازعون ويمزقون بعضهم على هذه الأشياء.

إن أفريقيا قارة تعسـة.. منحت الفرصـة لتنهض لكنها دمرتها بيدها بسـبب الحـروب القبليـة، ثم جـاء دور العالـم العربي الـذي منح عدة

فـرص ليتقدم... كان بوسـعه أن يتخلص من سـيطرة الغرب وأن ينعم بثرواته، لكن العـرب أثبتوا أنهم كائنات أنانية منخفضة الذكاء فضلت أن تتقاتـل حتى الفناء.. تذكر الأسـطورة الصينية عن أسـدين يلتهمان بعضهما حتى الذيلين. هذا ما حدث بالضبط..

بالإضافـة لهـذا كانـوا مصابيـن بدرجـة غيـر مسـبوقة مـن التعالي والغـرور، باعتبارهم الجنـس الأرقى والأقوى علـى ظهر الكوكـب... قـد يبدو هذا غريبًا لكن العرب مثلًا كانوا يتعاملون مع السـود والصفر بتعالٍ حقيقي، فلا يخفى عليك أنهم عنصريون جدًّا في الواقع.

فـي حقبـة معينة امتلأت هـذه الأراضـي بمقاتلين ملثمين يلبسـون الصنـادل ويحملـون الكلاشـنكوف ويطلقـون الرصاص طيلـة اليوم. لسـبب ما بدت هذه طريقة أمتع للحياة. لم يكن أحدهم على اسـتعداد للبنـاء أو العمل في التعليم أو التعلم أو شـق القنوات أو زرع الأرض، فقـط كانت متعتهـم الوحيـدة إطلاق الهـاون والكلاشـنكوف وتلغيم الطرقات.. وفي كل يوم تسقط مدينة في يد الفريق الأول، ثم تسقط في يد الفريق الثاني بعد أيام.. صراع عبثي لا ينتهي..

كلهـم يعتبر قتـل أخيه مهمة ذات أولوية عن قتـل العدو.. ويتصور أنه سـيصل لوضـع التجانـس النهائي الـذي يتحرك بعـده، وهو وضع مستحيل لأن التجانس للسوائل فقط..

عندما انتهت هذه الحروب، لم تنته لأن أحد الطرفين انتصر. انتهت لأنه لم يعد هناك سـلاح ولا مبان تدمر ولا رجال أصحاء يقدرون على القتال. لم تعد هناك أشجار تُحرق ولا آبار تُسَمم ولا أزهار تُقطف ولا أطفال يذبحون. عندما يتحول كل شيء إلى رماد تنتهي حياة النيران.

الغرب الذي استطاع الاحتفاظ بقدراته واقتصاده وعلومه وحدوده ظل يراقب هذه الأحداث في دهشة، وهو يرى العالم العربي يتحول إلى مدينة ملاهٍ.. مدينة ملاهٍ حقيقية يمكنك أن تزورها يوم العطلة لتمضي وقتًا ممتعًا كأنك في إحدى رحلات السافاري.

في البدء كان هناك صدام مع الجهات التي اعتبرت هذا عنصرية.. ثم بدأت الرحلات تنتظم وبدأ الناس يجدون متعة حقيقية في رؤية هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يتطوروا فانقرضوا مثل الديناصورات.

هناك أكثر من خبير أنثروبولوجي حاول التعامل معهم، لكن الذبح صار عادة عندهم منذ زمن، وهم يعتبرون أي أجنبي هو المسئول عن تعاستهم.. لذا كان التعامل معهم خطرًا كالتعامل مع عشيرة من الضباع...

برغم هذا ظلت هناك مناطق غنية أو تضم آثارًا ثمينة، وهذه المناطق تم احتلالها من الاتحاد اليورو أمريكي لأنها أماكن من حق الكوكب كله، ما دام هؤلاء لم يفعلوا سوى أن ضيعوها وبددوا ثرواتها في طلقات كلاشنكوف بلا هدف..

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

قـال القائد المفـدى منصور أحمـد الديب لرئيـس مخابراته الذي يلهث من فرط البدانة والتوتر:

- «أنـا أومن بالعرافين.. أومن بـأن بعض الناس قادرون على رؤية ما وراء الحجب واستكشاف الغيب. هذا ليس عيبًا وأدولف هتلر نفسه كان يثق بكلام عرافيه».

واسـتقرت بقية مـن مُح البيضة علـى ركن فمه، فلم يجـرؤ العميد كمـال حمدي على النظر، كما أنه لم يجسـر على أن يقول إن العرافين ورطـوا هتلر في مصيبة، لأنه لم يتوقـع أن يكون الغزو على نورماندي قط بل حسبه سيقع على كاليه...

استطرد القائد المفدى منصور أحمد الديب:

- «نحن أمام حادث فريد، وما لم يكن الطبيب أو المريض متورطًا في المحاولة القذرة، فنحن أمام حالة تنبؤ حقيقية وثابتة».

- «تحرياتنـا تؤكـد أن الطبيب والمريض بعيـدان عن هذا الحادث وعن السياسة عمومًا.».

قال القائد المفدى وهو يهشم التوست بأسنانه:

- «إن ما يمكـن أن يقدمه هذا المريض لجدير بالاهتمام. يمكنه أن يتنبـأ بـأي محاولة قذرة أخـرى.. يمكنه أن يعرف من سـيحاول الفرار عبر الحدود، ومن سيسـلقنا بلسانه في صحف الغرب، ومن سيحاول أن يؤلـب العمـال والطـلاب علينـا، ويعـرف مـن الـذي سـيفوز في الانتخابات القادمة».

- «الحزب الحاكم يفوز دائمًا كما تعرفون.».

- «يعرف خطط المعارضة».

- «لا توجـد معارضة كما تعرفون، كلهم في السـجون أو ذابوا في الحمض».

- «يعرف اتجاه الرأي العام».

- «لا يوجـد رأي عـام كما تعرفون.. نحن نصنعه.. الرأي العام هو ما تقوله صحفك وبرامجك».

ابتسم القائد المفدى ورشف بعض البرتقال وقال:

- «أنـت ضيق الأفق فعلًا يا مصطفى.. هناك إمكانات لا حصر لها مـع رجل كهـذا.. المعرفة قوة. تلك حقيقة لا يمكـن أن تعلمها لرجل مخابرات يجيد عمله.. أم أن عليَّ أن أخبرك بدقائق عملك؟».

ثم رماه بنظرة نارية جمدت الدم في عروقه..

القائد المفدى لديه أسئلة بلا جواب....

١١ - الكل يريدك

لسبب ما تصنع النبوءات المستقبل. هي لا تخبرنا به لكنها تصنعه.

عندما قالت أمي إنني عصبي لا يمكن أن تتحملني امرأة فتتزوجني، كانت تتنبأ بشكل ما، ومن الغريب أن هذه الكلمات لاحقتني فيما بعد وجعلتني أفشل في كل علاقة لي مع أنثى...

محمود قال وهو يعتصر رقبتي إنني لن أظفر بشيء من سلوى زوجته، ولن أنال سوى مقته وكراهيته. لا أعرف إن كان يتنبأ أم لا، لكن هذا جعلني أوقن بالفشل، وبدأت أتصرف معها بالضبط بطريقة تجعلني لن أظفر منها بشيء أبدًا..

ربما لو كان هذا شخصًا غيري لسألها أن تطلب الطلاق أو تخلع زوجها، ولطلب الزواج منها. خطوة كهذه كانت ستحقق الكثير من السعادة لي ولها بلا شك. أعرف أننا كيانان يحمل كل منهما نحو الآخر الكثير من الاشتهاء والمودة والألفة والاحترام والإعجاب والشفقة... لا توجد عقبة تمنعنا من الامتزاج سوى وجود محمود وأخلاق الطبقة الوسطى وخوفي من الزواج.

لـن تكون سـلوى عمـران لي. هـذا ما تأكـدت منه وقتهـا (وكنت مخطئًا).

بعبـارة أخرى: نبوءة محمود جعلتني أحقق نبوءة محمود. حكاية أحمد شـوقي مع الشـيخ الذي تنبـأ له بأن يكتب بيتًا فـي الخمر يقول: رمضـان ولـى هاتها يا سـاق! النتيجة هـي أن بيت الشـعر راق له فعلا واستعمله في مطلع قصيدته الشهيرة.

كل هذا محير وغريب.

قالت لي سلوى في ذلك اليوم:

- «المشـكلة هي أن حياتي تجمدت عند هذا الحد. لا أعرف متى يشفى ولا متى يعود للبيت».

قلت لها:

- «لا أعتقـد أنه سيشـفى. لقد اختار دربًا موحشًـا قليل السـالكين يمشـي فيـه وحده، ولن ينظر للوراء أو يعـود. كل يوم يمر يجعله أبعد وأنـأى عن عالمنـا. بعد هذه الرحلة المعقدة لا أتصـور أن يبتاع الفول والجريـدة صباحًـا، ويهـرع إلـى المحكمة ليطالـع الرول، ثـم يطلب التأجيـل ويبتاع لحمًـا وفاصوليا في طريق العودة للبيـت. إنه في كون آخـر.. مشـاكله غيـر مشـاكلنا.. أحلامـه غيـر أحلامنـا.. كلماتـه غير كلماتنـا. إنه أقرب للمجذوبين الذين يمشـون حول مسـجد الحسـين يخاطبون سيدنا الخضر الذي يرونه».

كنت أتكلم بينما أناملي تزحف لتتلمس معصمها.. تنحدر ببطء... تتلمـس أناملها.. الإبهـام ينطلق وحده في رحلة طويلـة نحو الكف..

يتوقف هناك عند المركز وينغرس ثم يرقص في موضعه. فتحت شفتيها وقد أدركت ما هنالك.. إنني أنالها.. أنالها بشكل رمزي.. وقلت لنفسي: إنها تقبل.. تعرف معنى رقصة أناملي هذه وتقبل. شعرت بدمي يفور.

قالت دون أن تنظر لي، وهي تلهث:

- «هو يرى هذا.. يعرفه.. تأكد من هذا».

- «قال لي إنني لن أظفر بشيء، فلا أدري إن كنت أصدقه أم لا».

- «وبعد؟».

- «من حقك أن تطلبي الطلاق أو الخلع. أنت محامية وتعرفين هذه الأمور خيرًا مني».

- «وبعد؟».

- «بعدها تنالين الحرية ولا يصير مسئولًا منك».

- «وبعد؟».

- «تبدئين حياتك من جديد باعتبار ما فات كان عبثًا بلا قيمة».

- «وبعد؟».

تحاصرني في ركن أخشاه كثيرًا. ما سأقوله الآن سوف يكون قرينة أبدية ضدي. سوف تنتزع مني الوعد أو الرفض بسهولة لو لم أبعد يدي.

اسمها سلوى عمران يا سيدي المحقق، وقد صارت جزءًا مهمًّا من حياتي، لكن لن أسمح لها أن تصير حياتي ذاتها...

في هذا الوقت بالضبط بدأ الغزو..

* * *

لهذا يا سيدي المحقق، عندما دخل ذلك الأمريكي المصحة، توقعت أن يكون من رجال FBI الذين يلاحقونني. توجست خيفة.. لو كانوا يريدون جعل حياتي جحيمًا فليأخذوا محمودًا، ليأخذوا سلوى عمران كذلك. أتوق إلى حياتي القديمة المملة.

كان في الأربعين من عمره، نصف أصلع وله لحية قصيرة جدًّا ومشذبة بعناية. يضع عوينات شفافة صافية بلا إطار. مطلق بالتأكيد... كيف عرفت؟ لا أدري لكنه مطلق، لا شك في هذا. يلبس قميصًا أنيقًا وربطة عنق، لكنه كمعظم الأجانب لا يؤمن باتساق الألوان مع بعضها... أغرب تشكيلة ألوان يمكن وصفها. النتيجة هي أنه بدا أجنبيًّا أكثر من اللازم.

مد يده يصافحني وقال بصوت أمريكي لا شك فيه:

-« ريتشارد دواير... كاتب روائي».

هكذا صار باقي القصة واضحًا.. هو يريد مقابلة محمود طبعًا، لأنه مادة ثرية لعمله الروائي القادم. أشعلت لفافة تبغ لأراه وسط الدخان.. هذا يجعله يبدو أكثر لطفًا:

قال لي:

- «لديك مريض مهم... مريض شهير.. تكلمت عنه الصحف الأمريكية، وكنت أنا في الإسكندرية في جولة سياحية. هنا خطر لي أن أقابله. أنا أرغب في لقائه لأنه مادة ثرية لعملي الروائي القادم».

- «وهبْني رفضت؟».

- «هذا من حقك، لكن لماذا تفعل؟».

لم أدر هل أسمح له بلقاء محمود أم أطرده ببساطة. ثم قررت أن بوسع محمود اتخاذ قراره بنفسه. هو ليس في سجن وأنا لست السجان. هو شخص حر، كما أن حالته ليست بالتي تتضرر من الزائرين.

لم أكن أعرف أي أصوات تتردد كالصدى في عقل هذا الرجل الأربعيني:

«القرن العشرون كان أمريكيًّا وعلى الأرجح سيكون القرن الواحد والعشرون أمريكيًّا.. على الأقل لأول خمسين عامًا منه، لكننا لا نقدر على التفاؤل للأبد، هناك قوى ستنمو وتزيح أمريكا من على عرشها. لعبة الكراسي الموسيقية التي تلعبها الأمم مستمرة للأبد. لا تنس أن الإمبراطورية الرومانية التي زلزلت العالم صارت اليوم هي إيطاليا البائسة الضعيفة. الإمبراطورية البريطانية الرهيبة التي لا تغيب عنها الشمس صارت إنجلترا الغارقة في مشاكلها الاقتصادية. الدولة الإسلامية التي أخذت شبه جزيرة إيبريا وبلاد ما بين النهرين وشمال أفريقيا وكادت تبلغ فرنسا، هي اليوم تلك المجموعة المتشرذمة من الدول العربية التي تنتمي للعالم الخامس. يجب أن نكون واقعيين ونعرف أن الدور آت علينا حتمًا، وعلينا أن نحافظ على مكانتنا وموضعنا لأطول فترة ممكنة. يجب أن نتحدى الإعصار».

ثم:

«مهمتك هي الخيال. الخيال ولا شيء سواه. عليك أن تتخيل السيناريوهات الممكنة التي يمكن أن تجعل أمريكا تفقد موضعها المتميز. ما هي الكوارث التي يمكن أن تحل بنا وبحضارتنا في المستقبل القريب والبعيد؟ لن تردد كلام رجل الشارع حول الصين والهند القادمتين وانتصار التنين والفيل. لن تتكلم عن نهضة ألمانيا أو الخطر القادم من جنوب شرق آسيا. أريد سيناريوهات معقولة مثل ما رسمته عن سبتمبر ١١».

دواير كان رجل مخابرات من نوع خاص. يتجسس على أسرار لم توجد بعد.

لم يكن موجودًا في الشرق الأوسط بالصدفة كما زعم، بل جاء خصيصًا ليقابل محمودًا. لقد عرض عليه الجنرال أندرو هيل في ذلك المكتب الذي خصصه له في البنتاجون، الصحف والتقارير التي تكلمت عن مريض نفسي تبدو نبوءاته دقيقة وصادقة أكثر من اللازم. كل التحريات تؤكد براءة الرجل وعدم تورطه في شيء.

قال الجنرال في خطورة:

- «هذا الرجل يعرف فعلا! لا يوجد تفسير آخر!... يعرف.. رشح إلينا من مصادرنا السرية أنه تنبأ بمحاولة اغتيال كادت تفتك بالديب دكتاتور البلاد.. رجلنا.. وغدنا... هذا الرجل محمود هو الشيء الحقيقي، وعليك أن تعرف ما يعرفه».

سألني ضيفي الأمريكي الذي يريد إلهامًا قصصيًّا كما قال:

- «هل يتكلم الإنجليزية؟».

قلت باسمًا:

- «يستخدمها ببراعة لكنها أسوأ لكنة يمكنك سماعها على الإطلاق. إن لم تضحك فلسوف تجن محاولًا الفهم».

وعندما أدخله الممرض إلى غرفة محمود، وقف لحظة على الباب يستجمع أفكاره. نظر إلى مشمع الأرضية الرخيص وإلى ذبابة تمشي ببطء هناك وهي تحرك قوائمها. نظر إلى أكوام الكتب جوار الفراش وإلى الكوب الفارغ. عند النافذة رأى ذلك الشكل الهزيل الذي يلبس منامة مخططة وقد استند إلى الإطار ووضع مرفقيه على الحاجز، ويبدو أنه يرى شيئًا مهمًّا جدًّا في الحديقة.

قال في كياسة:

- «نهارك سعيد.. محمود سمنودي؟».

هنا جاء الصوت الصارم كأنه قاضٍ يصدر حكمه، وبلكنة إنجليزية شنيعة فعلًا:

- «لم يكن موتها سريعًا!».

توقف كأنه داس سلكًا من أسلاك الضغط العالي وتساءل:

- «أرجو المعذرة؟».

عاد الصوت يكرر:

- «لم يكن موتها بطيئًا أو سريعًا.. لقد هوت عارضة فوقها من السقف لكنها لم تقتلها.. ظلت تحاول أن تتحرر بلا جدوى.. ثم جاءت النيران.. جاءت لتمسك بلحمها، وهي تدعو الله في كل لحظة

أن تقتلها الصدمة العصبية.. لكنها شعرت بكل ثانية من الألم وعاشتها كاملة. الحياة قاسية يا صاحبي.. قاسية ولا تعبأ بمشاعرك الرقيقة..».

صرخ دواير وهو يترنح.. الأرض تذوب من تحت قدميه... تمسك بإطار الباب حتى لا يقع وهتف:

- «عمن تتكلم؟».

- «كاتي دواير.. أنت تعرف عمن أتحدث».

ازداد ترنحًا وهو يشعر بالغرفة تميل :

- «عمن تتكلم؟».

- «عن كاتي دواير.. أنت سمعتني!».

«كاااااااااااااتي!».

«قبّل سارة من أجلي. إن الفولاذ يحترق. المصعد صار بئرًا للشيطان. لا أقدر على الفرار ولا أقدر على الوثب من النافذة كما فعل محظوظون آخرون. تمن لي أن أموت الآن. تمن لي أن تقتلني الصدمة العصبية قبل أن تتمسك النار بلحمي فيذوب. قل لي إن العالم الآخر أكثر رحمة. قل لي إنني لن أحترق في هذا العالم والعالم الآخر كذلك».

وسقط على ركبتيه وراح يرتجف. ليته يخرس.. ليته يصمت.. ليته يرحمه للحظة.. يستمتع بالقسوة كأنه يشاهد فقرة في سيرك روماني لعين. اصمت... اصمت!

أسند رأسه للجدار وراح يبكي... يبكي بحرقة...

عندما فتح عينيه من جديد فوجئ بأن وجه محمود على بعد سنتيمترات من وجهه. وأدرك في رعب أن محمودًا يضع سدادات أذن، وعلى عينيه عصابة كالتي يضعونها في الطائرات لمن يريدون النوم..

كيف رآه إذن؟ وكيف سمع المحادثة؟

الشعر الأشيب.. التجاعيد.. الخيوط التي تملأ وجهه.. ما معناها؟ بالضبط كأنه حشر رأسه في بيت عنكبوت.

كان محمد يجثو على ركبته جواره عند مدخل الغرفة، ومد يده يعتصر ربطة عنقه كأنه ينهضه منها. ثم دنا منه أكثر وهمس:

- «تريد أن تعرف كيف تم الحادي عشر من سبتمبر.. من كان يقود الطائرات فعلًا.. لمصلحة من؟... هه؟ هل تعرف من هم رجال الزيتا؟ هل تعرف من هو آل بولسون؟.. هل تعرف الشريحة B-87ay ؟ هل تعرف التعاون بين المخابرات المركزية ومنظمة زيبرا... بل هل تعرف منظمة زيبرا؟ أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق ولن تحصل على شيء».

نظر له دواير في توسل وهمس:

- «أرجوك.. لابد أن أعرف».

- «الحقيقة.. الحقيقة التي تستحق أن نفقد عيوننا وألسنتنا وقلوبنا من أجلها، الحقيقة التي تحرق وتفحم وتهشم، الحقيقة باهظة الثمن التي لا تمنح إلا لمن اقترب.. هذه الحقيقة لها ثمن».

كان دوايـر الآن يتوسـل لنفسـه. لم يعد يذكر شـيئًا عـن مهمته ولا ما تريـده منه الحكومـة الأمريكية. يريد أن يعرف.. يعرف كل شـيء.. مـن فعـل هذا؟ لمـاذا؟ ماذا قالتـه كاتي منـذ التصادم وحتـى احترقت بالكامـل. كتلـة اللحـم والحديـد والوقـود المجنونـة التـي اندفعـت كالخرتيت لتنطح ناطحة السحاب التي فيها كاتي.. لماذا فعلت ذلك؟ هو لا يصدق الرواية الرسـمية لكنه كذلك لا يصدق نظرية المؤامرة.. لا يصدق أي شيء على الإطلاق.

- «تكلم!».

- «للحقيقة ثمن».

- «تكلم».

- «وللاقتراب ثمن».

- «تكلم».

- «الحقيقـة تحرق لكنها تغلق سـرداب الأسـئلة للأبد.. سـرداب الأسئلة المظلم الذي يتصاعد منه العطن».

- «تكلم».

- «وهذا له ثمن».

- «كم تريد؟».

الآن كان تحـت رحمـة محمود تمامًا.. بعد دقيقتيـن من اللقاء، لم تعد لديه إرادة.. لولا الكبرياء الإمبريالي للثم قدميه. لم يعد لديه أدنى شـك في أن الرجل يعرف المزيد. فيما بعـد يمكن فهم إن كان الرجل

قد اتصل بالغيب فعلًا أم هو مشعوذ أم هو ممن دبروا هجوم سبتمبر. المهم أنه يعرف.

مد محمود يده وهو ينزع العصابة عن عينيه لتبدو نظراته الحادة القانطة، ثم دس قصاصة صغيرة في قميص الأمريكي. عرف الأمريكي على الفور أنها رسالة وأنه لا يستطيع قراءتها هنا. من الوارد أن تكون هناك كاميرا مراقبة أو أجهزة تنصت..

قال كأنه في طقس ديني:

- «سوف أفعل.. سوف أفعل».

وكان يدرك يقينًا أن المطلوب في الرسالة ليس مالًا على الإطلاق. الأمر أعقد من هذا وأصعب.

نهض محمود من على الأرض وارتمى على الفراش في وضع جنيني غريب. كأنه عانى الكثير في هذا الصراع النفسي، أما الكاتب الأمريكي فقد نهض وهو يترنح. اللقاء دام خمس دقائق لكنه دمر أعصاب الرجلين فعلًا...

عندما غادر الأمريكي المصحة، كان أول ما فعله هو أن أخرج القصاصة من جيبه. وبرغم الخط الرديء فقد استطاع أن يقرأ المكتوب، ولم تفته ملاحظة أن الورقة لم تكتب في وجوده. كتبت قبل قدومه وبالإنجليزية. لقد كان الرجل ينتظره.

* * *

أنـت لـم تر مشـهدًا مفزعًا فـي حياتك ما دمت لـم تـر محمودًا وهو فـي حالـة الإبحار في السـجلات الأكاشـية أو ما يطلـق عليها كذلك. على الفراش هو راقد في وضع X وقد غطى عينيه ووضع سدادة على أذنيـه. كنت أشـعر أنه رجل مصلوب، وأنا أعـرف أن هناك صليبًا على شـكل X فعلًا. أعتقد أن اسـمه صليب القديس أندراوس.. ينتفض... يتقلص... يتيبس.. يتلوى... لابد أنه يعاني عذابًا ما.

محمود.. كيف تقدر على دخول هذه الغيبوبة من دون مخدر؟

كيف تخترق هذه الفجوة في جدار عالمنا لتبحر في عالم الأثير؟

كيف تتلمس طريقك إلى تلك المكتبة الكونية لتمشي بين الأرفف. تفتح هذا وذاك؟

أنا لا أصدق.. سـأموت وأنا لا أصـدق، لأن كياني كله يعتمد على عدم التصديق. أنا الجدل والتشـكيك يمشـيان على قدمين، ولو كنت فـي عصـر التنوير لصرت فولتير نفسـه. لكن من قـال إن الإيمان بهذه الأمـور الغريبـة التي تحكيها له علاقة بالإيمـان الديني؟ أنا لا أصدق. لكن كل شيء يدفعني إلى أن أصدق.

محمـود.. كيف تتحدى قوانين الطب لتعطل التكوين الشـبكي في مخك؟

كيف تجتاز العتبة إلى حالة السبات هذه؟

مـا الـذي تـراه الآن؟ أنت تمقت وتخشـى ما تراه كلمـا غصت في هـذه السـجلات، وبرغم هـذا فللمعرفة مذاق حريـف محبب.. مذاق يدفع للإدمان.

رأيـت هذه الغيبوبـة مرتين منذ جئـت إلى المصحـة، وأعرف أنها تنقضي بعد ساعة. تنهض وتنزع العصابة وتفتح عينيك ورأسك يترنح كالثمل، بينما تلك الخيوط تتكاثف حول أذنيك وحاجبيك، وتردد بلا توقف:

«رعب أكبر من هذا سوف يجيء

«لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت

«أو ببطون الغابات

«لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم

«أو تحت وسائدكم، أو في بالوعات الحمامات».

أسـألك عما رأيـت فلا ترد. أنت لن تحكي أبدًا سـوى لمحات من العالـم الذي تراه.. مـن خزانة الأسـرار التي تفتحها، وهـذه اللمحات تحرق كالحمض.. تدمي كالرصاص... تزحف كالثعابين سوداء مقيتة.

كنـت أراقبك وأنت تعبر هـذه الأرض المقفرة التي لـم يعبرها أحد قط، عندما جاء مصطفى أبو حسن إلى المصحة.

الصيدلـي الذي يقترب من الخمسـين من العمر، لكنك تشـعر بأنه طالـب كلية. مـا زال يحمل ذات النقاء والتوتر وبعض الخرق. شـاب فوداه لكن عينيه تلمعان في حساسـية. أدركـت على الفور أنه معذب، وأن عواصف عاتية تتقاذفه يمينًا ويسارًا.

بشـكل ما تذكـرت انطباعـي الأول عن محمـود عندمـا قابلته أول مرة.. الخليط العبقري الفريد من الذعر والاشمئزاز والقنوط والضياع، أضف لهذا لمسة لا بأس بها من رغبة الخلاص.

قال لي:

- «أريد لقاء ذلك المريض».

كنت أعرف عمن يتكلم، لكنني تظاهرت بعدم الفهم..

- «أي مريض؟».

- «ذلك الذي تحدثت عنه الصحف.. اسمه محمود السمنودي».

مع الوقت صار عملي هو أن أطرد القادمين ليسألوا عن محمود. لا أبغي أن تتحول المصحة إلى عرض غرائب. هذا ليس سيركًا تقطع التذاكر فيه لترى أعجوبة ما. هناك مضاربون في البورصة يريدون معرفة مصير الأسهم. هناك طالب يريد معرفة أسئلة الامتحان. أشياء مبتذلة جدًّا أشعر بالغثيان للتفكير فيها. طردت كل هؤلاء بلا رحمة. دعك بالطبع من رجال الأمن الذين يمرون بصورة دورية. لكن نظرة الصيدلي القانطة الغريبة كانت تحمل قوة نفسية غير عادية. كان بوسعه أن يحصل على ما يريد.

لما عرفت قصته الطويلة قلت له:

- «أنت رجل ذو خلفية دينية قوية، المفترض ألا تؤمن بهذه الأشياء».

قال ضاغطًا على كلماته:

- «أريد أن أعرف.. هل كانوا على صواب وأخطأت أنا أم هو العكس؟..قد خذلني الرفاق وتبدلت النفوس وتراجع الحلم. هل الآخرون خونة أم حكماء؟ كنت صادقًا في بداياتي وصادقًا عندما

التزمت وصادقًا عندما غمرتني الشكوك.. أضمن لك الصدق.. لكن متى كنت على حق؟ ».

- «بوسعك التحليل والاستنباط».

- «الفؤاد أداة استقبال الدين.. أنا بحاجة لأن يطمئن قلبي. هناك من يستطيعون أن ينفذوا للسر بسلطان».

وبينما هو يتكلم وصل الأمريكي الآخر.

عدد الأمريكان الذين يأتون لهذه المصحة هذه الأيام يفوق من يمشون في شوارع نيويورك الآن.هذا الرجل قصير القامة ضخم الجمجمة الذي يذكرك بتكوين رأس الغوريلا. هناك شعر شائب ثائر على جانبي الرأس وثياب غير مهندمة. يمكن بسهولة أن ترى في عينيه أنه مجنون.

البروفسور بارتريدج كما قال لي..أستاذ بعدة جامعات أمريكية وهو يحاضر في منهج عن التطور على قدر ما فهمت. إنه دارويني متعصب يؤمن بأن داروين نبي لم يفهمه أحد.

جاء من الولايات ليقابل محمودًا. هذا شيء لم أستطع فهمه قط. لم أعتبر أن محمودًا بهذه الأهمية التي يتعاملون بها. كأنك تتلقى ملاحظات عابرة يومية من الناس عن أن هناك انتفاخًا بسيطًا تحت عنقك.. تحت ذقنك.. وفي كل مرة تتجاهل الأمر، ثم تلقي نظرة على المرآة فتدرك أن هذا سرطان ليمفاوي خطر ومتفاقم. أنت مريض سرطان يا صاحبي وكنت تحسب هذا يحدث للآخرين فقط.

لم يخطر ببالي قط أن هناك كثيرين يتكلمون عن محمود ويريدون لقاءه.

العراف الذي برهن حتى اللحظة عن دقة نبؤاته.

قلت لبارتريدج بعد أن طلبت له فنجان قهوة:

- «أنت رجل علم... من العسير أن أصدق أنك تعتقد في هذه الترهات».

كان مصطفى أبو حسن جالسًا في نفس المكتب يتابع المحادثة، وبحكم كونه صيدليًّا كانت إنجليزيته جيدة، لذا كان يفهم ما يُقال. هذا الرجل يملك خلفية دينية قوية، وكان من الحالمين بدولة إسلامية وعودة الخلافة. لا أعتقد أنه يصدق تلك الترهات عن العرافين.

لديَّ هنا رجلان كلاهما لا يمكن أن يصدق هذه القصة لأسباب مختلفة، لكنهما يصدقانها، فما سبب التصديق؟ عرفت أسباب مصطفى ولم أقتنع بها فما أسباب بارتريدج؟

قال البروفسور الأمريكي:

- «ما من أحد رأى.. ما من أحد كان شاهدًا... يقيني أن الإنسان يتطور، وبعد أعوام طويلة سوف يكون مختلفًا.. يبدو بشكل مختلف.. يفكر بشكل مختلف.. يتحرك بشكل مختلف.. يمثل الغذاء بشكل مختلف. لا أملك آلة زمن ولا أستطيع أن ألقي نظرة على الغد. ليس البشر مستعمرة من ذباب الفاكهة يمكنك أن تراقب عدة أجيال منها في شهر. أنا فان. سأموت دون أن أعرف».

التقرير كان في جيبه، لكنه لن يبرزه، لم يعتد أن يتسول بآلامه وسقمه. سرطان البروستاتا في الخمسين أمر غير معتاد. ما زال صغيرًا جدًّا كي يموت، وهذه السرعة المخيفة التي زحف بها السرطان بحيث

صارت الجراحة مستحيلة. سوف تخرف وتهلوس يا صاحبي ثم تنزلق لغيبوبة لا رجعة منها. كل ما تعلمته وما عرفته يتحول إلى رماد في المحرقة.

لم يعد ثمة وقت للمنطق العلمي والعقل المرتب. بعد أشهر سيعرف الحقيقة كاملة أو ربما لا يعرف.. فقط لن يستفيد شيئًا مما سيعرفه.

كان بالفعل راغبًا في أن يقابل من رأى. معظم من عرفهم في الولايات تحدثوا عن غد مشرق يحكم فيه الإنسان الأخضر وتصل فيه رسل المريخ والمشترى للتفاوض. كل هذا الهراء.. هو لا يريد رواية خيال علمي. يريد معرفة الحقيقة.

«بالفعل هي تمنحه حلمًا جميلًا يتوق له، أن يبتعد ليلقي نظرة شمولية بانورامية على الكون.. على الغد.. على منشأنا وعلى خاتمتنا. ما أجمل أن تعود للحياة ساعتين بعد مليون عام لترى كل شيء ثم تغيب من جديد. لكن هذا مستحيل.. عليه أن يقنع بالأسئلة والنظريات، وليأمل في نوع آخر من الخلود هو خلود أفكاره».

سألني بلهجة علمية محايدة:

- «هل أخبرك بمصدر ما يراه؟».

- «السجلات الأكاشية.. هذا ما قاله».

قلتها في بساطة. عرفت أنه سيتذكر الاسم وسوف يتذكر هيلين بلافاتسكي على الفور. سوف يدرك أننا نتكلم عن عالم «الظواهر

الفورتية» والمجلات الخائبة من طراز «أنا تزوجت مسخًا من الفضاء - دوائر المحاصيل - الغرباء خطفوني ومارسوا معي الجنس»..

كان يفكر في عمق ثم قال:

- «يزعم أنه يدخل السجلات الأكاشية؟».

- «نعم».

- «لكن هذا الجزء ليس من ثقافة العرب ولا المصريين، لذا يدهشني نوعًا أن يتكلم عنه».

أفهم ما يعنيه.. عندما يتكلم كالاهان المقيم في تكساس عن الأزقة المحيطة بمسجد السيدة زينب، فعلى الأرجح هو رآها. ليس بوسع خياله أن يبلغ هذا التعقيد. عندما يتكلم محمود عن جزء حميم من ثقافة الغربيين فالأمر جدير بأن نتوقف عنده ونفكر.

برغم هذا أحسب أن لفظة السجلات الأكاشية أطفأت الكثير من حماسته، وجعلته يشك في صحة الأمر كله. مثلما تتكلم عندنا عن جان مجوسي يريد الزواج من ابنة السلطان. قال في إلحاح:

- «ما زلت أرغب في أن أراه لو سمحت لي».

قلت وأنا أنهض:

- «لو سمحت بهذا فلسوف تتحول المصحة إلى حديقة حيوان، ولسوف يكون عليَّ أن أبيع التذاكر».

ثم نظرت له ومصطفى.. مرت بي لحظة وهن إرادة...فسمحت لهما بأن يتبعاني..

هناك في الغرفة المسحورة يرقد الرجل التعس الذي جعلوه أهم رجل في العالم، وجاءوا يطلبون حكمته.. بوذا الذي أرغموه على أن يكون كذلك.. سيدهارتا الذي صنعوه لأنفسهم. نائمًا على الفراش يرمق السقف في ثبات وصدره يعلو ويهبط..مفتوح العينين كالعادة لكنه ليس في غيبوبة. كنت حريصًا على أن يقوم ممرض بحلاقة لحيته كل يومين.. لا شيء كلحية شائبة نصف نامية يوحي لك بأن الرجل من المجاذيب. أنا لا أحتفظ بمجاذيب في مصحتي.

دنا منه بارتريدج وركع يتفحصه. مد يده يتلمس وجهه المرهق المليء بالتجاعيد، والغريب أن محمودًا لم يقاوم أو يبعد يده... ودنا مصطفى من الجهة الأخرى وركع جواره، وكانت شفتاه تهتزان. أعتقد أنه كان يتلو بعض آيات القرآن..

قلت بصوت عالٍ بالعربية:

- «هذان السيدان يريدان مقابلتك يا محمود».

- «أعرف».

- «لديهما أسباب قوية».

- «أعرف».

هنا صاح بارتريدج وهو يحمل بين أنامله بعض الخيوط اللاصقة اللزجة التي تحيط بملامح محمود:

- «هذه الخيوط.. هل تعرف ما هي؟».

قلت في ملل:

- «لا.. لكن لو كانت عدوى فطرية فأنا لا أرغب في أن أكون مكانك.. يجب أن تطهّر يدك».

هتف وهو يرتجف:

- «إنها أقرب للشرنقة! هذا الرجل الذي رأى الغد وألقى نظرة شاملة على الكون مغطى بنسيج الشرانق.. ما معنى هذا؟».

ثم أجاب دون أن ينتظر إجابة:

- «معناه أن ما نحن فيه هو طور من الأطوار.. بعد مليون سنة ربما ينسج الإنسان شرنقة حول نفسه، ويخرج منها بعد أعوام في طور جديد تمامًا.. ربما يحلق كالفراش».

قلت في غيظ:

- «حتى لو كان قد سافر ملايين السنين، فهو مجرد مسافر.. يذهب كما هو ويعود كما هو. عندما زرت أنا إيطاليا لم أصر إيطاليًّا. ذهبت وأنا مصري وعدت وأنا مصري. ليس هناك مبرر لكونه يتغطى بنسيج الشرانق».

- «وهل تتوقع أن يمر برحلة كهذه دون أن يتبدل شيء من خلاياه؟ لقد بدأ يتحور بدوره. لقد رأى الكثير ولربما يملك الإجابة الكاملة.. هل الإنسان يتطور أم لا؟ أم نحن نهاية السبيل؟ ربما انقرض الإنسان بالكامل في الغد، من يدري؟».

قال مصطفى بالإنجليزية وقد بدأ الكلام يستفزه:

- «سيدي، أنت تخالف الأديان كلها بكلماتك هذه».

- «لا أرى أنني أخالف أي دين، وعلى كل حال أنا لم أفتح كتابًا دينيًّا في حياتي لأفسر ظاهرة علمية على ضوئه. الظاهرة تفسر نفسها».

- «وهل ما تراه الآن ظاهرة علمية؟».

- «لا.. نحن في طور توجيه الأسئلة. ما زلنا نتساءل..بعد هذا سنلاحظ.. ثم نستنتج.. ثم نختبر».

مد مصطفى يده يعتصر ذراع محمود.. وبلهجة أقرب للتوسل قال بالعربية:

- «محمود.. ماذا رأيت؟ هل تملك الإجابة؟ لو كنت تملكها فعليك أن تتكلم.. أرجوك أن تتكلم».

هنا فتح محمود فمه وببطء وصوت رتيب قال:

- «٢١٠ - ١٢٠ - ٤٥ - ٦ ..... ٣٦١ - ٣٠٠ - ٥ - ٤ .... إلخ».

كنت أنا قد مددت يدي إلى الهاتف وبدأت التسجيل، وإن أدركت الحقيقة منذ اللحظة الأولى.. استمر الكلام خمس دقائق ثم أغمض عينيه ونام. قال بارتريدج في لهفة:

- «ماذا؟ ماذا قال؟».

قلت ساخرًا:

- «هكذا تكلم زرادشت».

ثم أضفت بجدية:

- «أرقام.. كل نبؤاته تعتمد على شفرة أرقام.. والآن أقترح أن نعود لمكتبي».

عندما عدنا للمكتب هتف مصطفى متلهفًا:

- «أنت تعرف كيف تفسر.. أليس كذلك؟».

وقال بارتريدج وهو يشعل لفافة تبغ برغم أنني لم أسمح له. هذه مملكتي وأنا من يحدد من يشعل التبغ أو لا يشعل:

- «لا يمكن أن يحكي مصير الكون في خمس دقائق، لكنها بداية».

قلت باسمًا وأنا أعيد تشغيل الهاتف لأسمع ما قيل:

- «الأمر أعقد من هذا.. ليست بداية أي شيء سوى المزيد من الضباب والتخبط.. يتكلم عن الكتاب رقم ٢١٠ ورقم ٣٦١ ورقم ٤١٢ من كتبه.. الكتب في غرفته أقل عددًا من هذا بكثير.. محمود اليوم يتحدث عن صفحات في كتب لا وجود لها!».

١٢ - الفـنـاء

«إنا لفي زمن لفرط شذوذه ــ من لا يجن به فليس بعاقل».

أحمد الصافي النجفي

لا شك أنها ساعة ممتعة.

يفضل القوم أن يفرغوا بسـرعة من واجباتهم وكل أعبائهم لينعموا باللحظات القادمة. الحكومة حرصت على أن تكون ساعة الدماغ هذه ثـلاث مرات يوميًّـا، وقد طالـب بعض نـواب البرلمان بـأن تكون أربع مـرات يوميًّـا لكن هـذا يلقي عبئًا لا يطـاق على الميزانيـة. قال الرئيس للمجتمعين به:

- «نحـن نقدم هـذه الخدمة لأننا دولة فقيرة ونريد للقوم أن ينسـوا ذلك، فكيف تكلفنا هذه الخدمة فوق طاقتنا؟».

لكـن كثيرين لاحظـوا أن معـدلات الجريمة بـدأت تنخفض، كما أن سـاعات الإنتـاج قـد تزايدت. بشـكل ما نجـح النـوع الجديد من

الحشيش في أن يزيل الشعور بالإرهاق، وهو يضفي حالة من الصفاء النفسي تدفع الناس إلى العمل لعدة ساعات. كانت هناك في الماضي أنواع من المخدرات تجعلك تمد يدك في النار ولا تتوجع، لكنها ببساطة باهظة جدًّا.

الناس تنهي أعمالها بسرعة، أصحاب المتاجر يتخلصون من الزبائن، والصناع ينهون ما في أيديهم على عجل، ثم يخرجون إلى الهواء الطلق ليرفعوا أنوفهم للهواء يتشممون.

تأتي اللحظة.. هنا تبدأ المداخن التي وضعتها الحكومة في أماكن مدروسة جيدًا في بث الدخان. أنهم يحرقون أطنانًا من الحشيش الجيد، والبخار يتصاعد... الأحلام تتسرب للهواء لتمتزج بالأكسجين والنتروجين.

يوجه الناس أنوفهم للهواء ويتشممون ويملئون الصدور. حتى الأطفال يحاولون تذوق هذه النشوة التي يذوقها الكبار.

الهموم الكثيفة تتلاشى، والصدور تتسع، وثمة استعداد غير مسبوق للمرح... التسامح يغمر النفوس، فلا يفطن أحد إلى أنهم تحولوا إلى أمة من الحشاشين.

الفكرة خطرت للنظام منذ عشر سنوات. الناس تثور وتحدث المتاعب، وفي نهاية اليوم يجلسون ليدخنوا الحشيش لينسوا هموم اليوم وبطش السلطة ومرارة الفقر ووحشة الغد، فلماذا لا تمنحهم الحكومة أبخرة الحشيش بشكل منتظم؟ ليست فكرة جديدة جدًّا، فلا ننس حرب الأفيون بين بريطانيا والصين قديمًا.

بدأت محارق الحشيش تنتشر على استحياء. وبدأ الناس يتعلمون أن يشموا الرائحة في الجو. وصدرت أصوات احتجاج واهية من رجال دين وصحفيين وأطباء، قبل أن تخفت تمامًا لأن أصحابها قد (سطلتهم) الرائحة. عندما يشم الناس الأبخرة فإنهم ينسون مشاكلهم وما كانوا يريدون أن يثوروا من أجله. كل شيء يبدو قابلًا للتحمل.

في الماضي كان تخدير الناس يتم عبر الإعلام الكاذب. عبر الجنس.. عبر التدين الظاهري.. عبر كاريزما الزعماء. اليوم صار الأمر أبسط بكثير.. تخدير الناس يتم بالمخدرات.

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

لا يقدر أحد أن يلومني على ما حدث بعد هذا، ولا على التعذيب المروع الذي أدى لمصرع محمود يا سيدي المحقق. يقولون إن الحرص أذل أعناق الرجال.. أنا أصحح هذه العبارة بأن الخوف أذل أعناق الرجال. السينما تعج بالأبطال الذين يتحدون الظلم.. الكتب تعج بالرجال ذوي المبادئ الذين لا يخافون ولكن يغضبون.. أحلام المراهقات مفعمة برجال مفتولي العضلات منتصبي القامة يتحدون

الشـر. يخيـل لـي أن السـينما والكتـب والأحـلام أخـذت كل هؤلاء الرجال، فلم يبق منهم عدد كاف للحياة نفسها.

أنا لسـت بطلًا من هؤلاء.. لا أقدر علـى تحمل أول صفعة أو أول لفافة تبغ يطفئونها في حلمتي. صدقني...

لهـذا عندما جاء هؤلاء الرجال مـن جديد، ومعهم كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي، لم أعترض ولم أحاول منعهم.

قال لي وهم يسدون الباب:

- «نريد محمود السمنودي».

وجدت من الشجاعة ما يسمح بأن أسأل عن السبب، فقالوا:

- «تعليمـات اللـواء كمـال حمدي، بنـاء على تعليمـات أعلى من القائد المفدى منصور أحمد الديب».

نهضت وأحنيت رأسـي في احترام. الاسـم نفسـه يثيـر الرعب في القلـوب. ألـم تشـعر أنـت بهيبتـه ورهبته؟ إنه قـادر علـى أن يجعلك ثريًّـا، أو يسـكنك في قصـر منيف وسـط القيان، وتأكل خروفًا مشـويًّا كل يـوم وتشـرب أعتـق الخمور، وسـوف تتسـرب نيـران عظمته لك فيأتيك الناس يطلبون قبسًا منك، وهو كذلك قادر على أن ينتزع كرتي عينيـك ويرغمك على ابتلاعهما، ثم يقص رجولتك بالمقص ويرميها للـكلاب.. لـن يروق لك المشـهد بينمـا الكلاب تتصـارع على قطعة اللحم تلك. أنا أخشى القائد المفدى منصور أحمد الديب ولا أنتوي أن أكون عدوًّا له.

لكن الرجل راض عني.. أعرف هذا وقيل لي مرارًا.

سألت كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي، عما تقضي به التعليمات.. فقال:

- «سوف نأخذه ونستجوبه. لابد أن يقول ما يعرف».

قلت في تهذيب وأنا أفرك أناملي ببعضها:

- «لكنه لا يعمل بهذه الطريقة يا سيدي لو سمحت لي.. ليست هذه طريقة تشغيله. هو لا يعطي نبؤات إلا عندما يروق له هذا».

بدت نظرة وطنية غاضبة لها لون العلم في وجهه، وقال:

- «ما نريده واجب وطني من أجل مصر. ليس من حقه أن يختار، وإلا لكان من حقك أن ترفض التجنيد الإجباري».

هو الخلط الأبدي بين الوطن و القائد المفدى منصور أحمد الديب. يجب أن يخبرهم محمود بمزيد من محاولات الاغتيال وألعاب المعارضة، وإلا فهو يخون مصر. أنا فرنسا وفرنسا أنا.

وهكذا التزمت بالصمت، بينما هم يتقدمون إلى غرفة محمود. لا أعرف يا سيدي ما دار هناك وعلى الأرجح لم يحدث شيء على الإطلاق. لابد أنهم طلبوا منه النهوض مرارًا فلم يستجب. إنه رخو كالطحلب العائم فوق الماء الآسن. هكذا حملوه حملًا كطحلب خارجين من الغرفة فالمصحة كلها.

قال لي كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي:

- «لا تذهب بعيدًا.. لو استعمل طريقة الرموز في الكلام، فلسوف نحتاج لك كي تفسر».

هـذا يعنـي أن دوري قـادم. الرحلة القادمة هي من أجلي. السـجن العمـلاق الـذي نحـن فيه.. سـجن بحجم الكـون كلـه.. لا أقدر على الفـرار ولا التملص. سـوف أنتظـر. أقبع كفأر في مصيـدة ينتظر قدوم القط صباحًا.

وخرجت في الليل المظلم أراقب سياراتهم التي تتوهج كشافاتها، وهم يضعون فيها فريستهم ثم ينطلقون إلى مكان ما.. بالتأكيد إلى مقر المخابرات حيث ينتظر اللواء كمال حمدي، يحلم بحشد من النبوءات الدسمة التي تقربه أكثر فأكثر إلى القائد المفدى منصور أحمد الديب.

ما لم يعرفوه، هو أنه لو تكلم محمود - وهذا عسـير - فهو سيعطي أرقامًا، وهذه الأرقام لا قيمة لها لأنها تشـير لكتب لا وجود لها.. على الأقل في غرفته.. من يدري؟ ربما هي كتب وجدها على رفوف مكتبة السـجلات الأكاشـية. عندها سـيطلبون مني أن أفسـر ولن يكون لديَّ تفسـير. إذن أنـا لا قيمة لي وحياتي ليسـت أغلى ثمنًا مـن علبة الثقاب التي سيحرقونني بها.

محمـود يا أحمق.. لماذا أنت بالذات رزقـت بهذه الهبة المخيفة؟ أعتقـد إنني أعرف الإجابة. كنت طيلة حياتك طفلًا غريبًا مخيفًا، ومن دون إعاقـة كنـت توحـي للناس أنك معـوق، كأن الحيـاة كانت تعدك لتلقـي هـذا الثقل المخيـف علـى كاهلك، ولهـذا نشـأت مختلفًا من أول لحظة.

كنت أعرف أنهم أغبياء غلاظ القلوب، يذبحون الدجاج الذي يبيض ذهبًا .. كلهم كذلك.. وأعرف أنهم سوف يجربون معه أفظع الطرق طرًا.. كلهم كذلك.

عندما جاءت سلوى عمران بعد انتهاء عملها في المحكمة، لتطمئن على زوجها، طلبت منها أن تمشي معي في الحديقة. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها للابتعاد عن أجهزة التنصت والكاميرات، برغم أن الابتعاد عن الكاميرات جريمة لا تقل خطرًا عن التآمر.. لماذا تبتعد عن كاميرات المراقبة وأجهزة التنصت ومسامع البصاصين وعيون المخبرين؟ لأنك خائن لابد أن تشنق طبعًا.

هناك ونحن نقف وسط الأشجار بعيدًا عن العيون، قلت لها إن محمودًا لم يعد هنا.

- «ماذا تعني؟».

- «لقد أخذته الدولة باعتباره كنزًا استراتيجيًّا.. الرجل الذي يعرف أكثر مما يجب».

اتسعت عيناها رعبًا ولم تفهم، فشرحت لها ما حدث بالتفصيل. التمعت الدموع في عينيها وارتجفت وقالت:

- «لن يتكلم.. هو ليس أنبوب معجون أسنان يتم الضغط عليه ليخرج ما فيه. إنه أقرب لزهرة يحتشد عليها الندى، قد تتساقط منها قطرة من حين لآخر. عليك أن تنتظر قطرتك».

- «هم سيحاولون اعتصار الزهرة ليتساقط منها أي شيء».

لم تعد تحمل له حبًّا بل هي إلى الخوف منه أدنى، وهو لم يمنحها يومًا واحدًا من الرضا أو الإشباع، لكنها كذلك لا تريد له أن يتعذب.

انفجرت تبكي ذعرًا، ولا أعرف كيف ولا متى صارت بين ذراعي.. دموعها الساخنة تبلل كتفي ومخاطها يغمر صدر قميصي. الهشاشة.. الضعف.. الاحتياج.. يمكن لأي امرأة أن تحصل عليّ بهذه الطريقة.

قلت لها لاهثًا:

- «لا يوجد ما نعمله.. هم أقوى مننا جميعًا».

ثم ابتعدت عنها.. نحن في حديقة المصحة.. صحيح أننا في ركن منعزل خلف البناية، لكن من الوارد أن تظهر ممرضة أو عامل في أي لحظة. ليس هذا أفضل مشهد يرونه. دعك من عشرات الأفلام التي تلتقط لي الآن لتفضح علاقتنا.

قلت لها كذلك:

- «هم حمقى وشديدو الفظاظة والغباء. هم يتمتعون بالخرق والبلاهة والقسوة. لن ينجو منهم».

كنت طبيبًا نفسيًّا متمرسًا، مصدر رزقي هو النفس البشرية، لذا لم أتوقع أن أكون مخطئًا.. هذا ببساطة مستحيل..وما لم أقله لها هو أن احتمال أن يأتوا بها ليعذبوها أمامه وارد جدًّا. لو كان ما أعرفه وما أراه في السينما وما أقرأ عنهم صحيحًا، فلسوف يعلقونها في خطاف بالسقف ويتناوب عليها الجنود. هذه هي طريقة الاستنطاق التي يجيدونها، لكني لن أخبرها بذلك. عسى أن يموت محمود قبل أن يحدث هذا.

* * *

حملة قمبيز على نباتا لم تفلح... لقد كانت حساباته خاطئة.. وقد ترك هذا ندبة في نفسه لأن رجاله قالوا له إن هذه بلاد عظيمة وثرية وحاكمها قوي.. هذا حرك فيه روح التحدي بشدة، ورغب في قهر تلك البلاد.. لكن صحراء مصر قادرة على هزيمة الغزاة بالضبط مثل ثلوج روسيا التي هزمت هتلر ونابليون.

أما اليوم فجيشه يتقدم نحو واحة سيوة (آمون) ليحرقوا هيكل جوبيتر. الحقيقة أنه فعل كل شيء كي يدمر مقدسات المصريين، وكان هذا خطأ جسيمًا لأنه لم يتمثلها ويمزجها بثقافته مثلما فعل نابليون والإسكندر وكل فاتح دخل مصر في الحقيقة. لابد أنه كان أحمق وفيما بعد قتل العجل أبيس الذي قدسه المصريون بطعنة في فخذه، وعندما مات بعد هذا هو نفسه بطعنة في الفخذ قال المصريون إن هذا انتقام الآلهة.

لكن انتقام الآلهة المزعوم حدث قبل هذا..

أنت ترى الصحراء الممتدة الحارقة، وترى الجيش المكون من خمسين ألف فارس يتقدمون وسط الرمال.. الظمأ.. الحر.. ضربة الشمس..

كل هذه عوامل مفهومة... لكنها لا تبرر اختفاءهم الكامل لدرجة أنه لم يبق منهم سوى بعض العظام والرماح.

لكن محمودًا يرى الآن العاصفة الرملية الكثيفة التي لم يرها في حياته.. إعصار أصفر مخيف يتقدم عبر الصحراء ويحمل الموت والدفن المفاجئ. افتح فمك ربع ثانية وسوف يُحشى بالرمال.. تنفس لتمتلئ رئتاك بالرمال.

محمود يسمع صراخ الجنود وصهيل الخيول وصفير الرياح وقعقعة الرماح وحشرجة النهاية وأنين المختنقين. حتى عندما تكون فارسيًّا يظل صراخك مفهومًا أليمًا.

المذبحة تدور على قدم وساق وخمسون ألف جندي يختارون قبورهم في رمال الصحراء تحت أطنان من الرمال.. جيش كامل يذوب عن الوجود والتاريخ، ولسوف يجد المصريون أسبابًا قوية تدفعهم للاعتقاد بأن آلهتهم تحميهم فعلًا..

لكن انتقام قمبيز سيكون رهيبًا...

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

قال له كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي:

- «تنبأ!!».

نظر له محمود بعينين ذابلتين غطتهما الخيوط حتى كادتا تنغلقان.. الشعر الأشيب الذي رأى أهوال الكون خلال ساعات... كل مذبحة وكل كارثة وكل حرب تركت أخدودًا في ملامحه، حتى صار وجهه

كأنه رسم بالتهشير على ورق باستيل.. مجموعة تجاعيد هائلة لابد أن تبتعد لترى الوجه من دونها.

- «تنبأ!».

وشم محمود رائحة عطر خانقة، حتى أنه شعر أن هذا جزء من التعذيب، ثم رأى من بين جفنيه المغلقتين رجلًا بدينًا في ثياب مدنية يتقدم منه في مزيج من السماجة والثقة. ولم يكن يعرف أن هذا هو اللواء كمال حمدي، لكنه برغم هذا عرف أن هذا هو اللواء كمال حمدي. لا توجد أسرار.

كان يعرف ما سيحدث بالتقريب، لذا أخذ شهيقًا عميقًا..

عندما رأى العالم بعد عامين، لم يجد نفسه. بحث كثيرًا جدًّا فلم يـر أثرًا لمن يدعى محمود السمنودي. كانت الإجابة واضحة لكنه لم يحاول أن يعرف الطريقة.. أدرك أنه لو عرف لدمره الذعر. ربما يرى مشهد تمزيقه تحت عجلات قطار أو احتراقه في غرفة مغلقة أو تمزيقه بمدي رعاع ثائرين.. من يدري؟ ربما كانت هذه هي الطريقة. هو لم يجرب اختراق هذا الجزء ولا يدري ما سيكون أو ما كان.

- «تنبأ!!».

قال اللواء مصطفى:

- «لا تضيع وقتنا ووقتك أي بني. لا تعذب نفسك وتعذبنا معك. أنت تعرف الكثير. الكل يعرف أنك تعرف الكثير. المهم هنا هو ما هذا الكثير؟ يجب أن تتكلم!».

ومد يده ينزع الخيوط عن وجه محمود وغمغم:

- «يا للاشمئزاز!... أي مرض هذا؟».

ظل محمود صامتًا..

كان يجلس في غرفة خالية خافتة الإضاءة، وهناك ضوء سقيم كئيب يأتي من أعلى. ينصب عليه مما يجعل الباقين في ظلام معظم الوقت. يرى وجوههم في ضوء رمادي مزرق، لكنهم يرونه في النور الساطع بوضوح تام. هوت الصفعة على قذاله قوية كاسحة مفعمة بالغل والمقت، فتذكر صفعات هشام البدين له في المدرسة.

في عالم الطفولة لا توجد أسباب، لا يوجد تحرش أو صدام. لا يجب أن يسبب لك خصمك أذى فتكرهه.. يكفي أنه موجود... يتصرفون كالحيوانات التي تحافظ على نطاق مملكتها.

شعر بامتنان بسيط.. الأمور تتحسن وهو ينضج. هذه المرة هناك على الأقل سبب واضح للصفعات. استدار لمصدر الصفعة ووجه تلك النظرة المتهمة الصامتة التي كانت تثير ذعر الصبية في المدرسة، فلا شك أنها بلبلت الجلاد.. بلبلته لدرجة أنه هوى بصفعة أخرى.

- «يا ابن الـ.......!».

مرت الساعات.. كلها يتشابه.. محاولات إقناع... ماء ينسكب فوق رأسه.. صفعات.. من الغريب أن جل من يمرون بهذه التجربة لا يعرفون ما يعرفه هو. كأن تعذيب من لا يعرفون هواية محببة لدى هؤلاء القوم. ثم جاء دور السجائر... زهرة اللهب الغاضب تغوص في عنقك أو ساعدك.

لـم يتكلـم.. لم يتوسـل.. لم يصـرخ.. لـم يبك...ولعل هـذا أثار جنونهم أكثر. أنت تهين جلادك وتجرح شعوره عندما تأبى أن تصرخ، ولـن تقدر على محو الإهانة مهما اعتـذرت بعد ذلك.. مهما صرخت وطلبت الصفح.. ثمة أشياء لا يجدي معها أي اعتذار.

الآن جـاء دور الكهرباء... الطاقة المزلزلـة التي ترج دماغك وتهز أعصابـك وتـرج خلاياك العصبية حتى لتوشـك علـى تحويل جهازك العصبـي إلـى زبـد. هل هـم مخابيـل؟ هل يعتقـدون أنه سـيبقى لك ما تقوله بعد هذا الخلاط الذي يقلبون فيه جهازك العصبي وذكرياتك؟ أنت لم تعد قادرًا على الكلام لتقول إنك ستتنبأ.

لا شـك أنهـم يحبون هـذا.. لا يريـدون المعرفة.. يريدون سـماع الصرخات.

يريدون لذة القدرة..

وراء هـذه الإجراءات والغموض والسـرية والتظاهـر بالأهمية، لا يوجد شـيء، سـادية تمتد كصحـراء مظلمة إلـى مرمى البصـر، صبية يتلذذون بتعذيب سحلية وجدوها لا أكثر.

ـ «تنبأ!».

«لن ينجيكم أن تقصر هاماتكمو حتى تلتصقوا بالأرض

«أو أن تنكمشوا حتى يدخل أحدكمو في سم الإبره

«لن ينجيكم أن تضعوا أقنعة القرده

«لن ينجيكم أن تندمجوا أو تندغموا حتى تتكون..

«من أجسادكم المرتعده كومة قاذوراتْ

«فانفجروا أو موتوا...».

المزيد من الكهرباء.. الصواعق تخرج من عينيك.. من أذنيك... أنت زيوس الذي يقذف الصواعق في غضبه، وأنت لا تملك أن تخاف أو تغضب.

الآن ينزعون الأظفار بالكلابات.. يضربون ظهرك بالسياط... اللحم يتمزق.. أنت جرح كبير مفتوح عملاق، وفيه ينصب الحمض والخل والبحر المالح ودموع المكلومين والزقوم .. أنت الألم.

في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي القعدة عام ٣٠٩ الهجري، أعدموا الحلاج. الحلاج كان يتوضأ بالدم الذي يسيل من أطرافه المبتورة قبل قطع رأسه، ويقول للواقفين: «هما ركعتان في العشق.. لا يصح الوضوء لهما إلا بالدم». معظم الفقهاء قالوا إن الحلاج كافر، وقال ابن تيمية إنه لا يعلم أحدًا من علماء المسلمين وشيوخهم ذكر الحلاج بخير. أنت لست الحلاج ولا تعرف شيئًا من شعره ولا تفقه شيئًا في التصوف.. فقط تحب أبيات صلاح عبد الصبور، ولسبب ما تتذكرها الآن. الحلاج تكلم كثيرًا أما أنت فلا تشتهي سوى الصمت...

لكنك ترفع رأسك.. بصوت مبحوح تقول شيئًا.. ترتجف شفتاك.. تبصق دمًا وبعض الأسنان.. ثم تكرر:

- «الآن..».

يميلون عليك في لهفة ليعرفوا ما تقول حقًّا فتكرر:

- «الآن..».

- «الآن ماذا؟».

- «الآن سقط الذئب المنتصر عن السرج».

- «عم تتكلم؟».

- «الآن تمزق الفؤاد إربًا».

- «إنه يهذي.. إنه الجنون.. كفوا قليلًا يا أولاد الزنا... سوف يموت».

وحياته ثمينة. لكن هل ينتظرون منه أن يتكلم الآن بعد ما فقد آدميته؟

الصفعات تنهال عليه.

السفر.. يمكنك أن تبدأ الرحلة.. الباب الذي ينتظر مواربًا في نهاية الممر.. لم لا؟ ماذا عساك أن تفقده؟ هم لن يتركوك.

- «إنه لا يستجيب!».

- «الويل لكم.. صبوا عليه بعض الماء البارد».

- «لا يستجيب!».

- «فكوا قيوده يا حثالة! يا لقطاء الطرقات ويا أولاد العزاب».

- «لا يستجيب!».

- «هاتوا الطبيب حالًا... فلتحقنه بألف عقار ولتعطه ألف صدمة كهربية ولتضع فوق أنفه ألف كمامة.. أعده لنا !».

- «لا يستجيب!».

-« الويل! لن أعود للقائد المفدى منصور أحمد الذيب لأخبره أن رجالي قتلوا العراف الصادق الوحيد، لأنهم حمقى قساة القلوب كالثيران».

- «لا يستجيب!».

- «أعناقكم هي الثمن».

تمدد الجسد على محفة وقد شخصت العينان. توقف القلب عن الخفقان، وكفت الرئتان عن طلب الهواء، وكف المخ عن العذاب. لقد نال محمود راحته أخيرًا. اجتاز الامتحان الأخير العسير ونجح فيه.. لم يتكلم..

في الظلام والصمت والتوتر ينقل جسد محمود الملفوف بالملاءات إلى سيارة تقف أمام البناية. هذا السيناريو يحدث كثيرًا على كل حال، وعلى الأرجح يتم التخلص من الجثة في الصحراء أو توضع في أساسات بناية تحت التشييد ويلقى فوقها الأسمنت والخرسانة. المشكلة هي أن القائد المفدى منصور أحمد الذيب لن يقبل زوال مصدر المعلومات هذا لأن رجاله حمقى. رءوس كثيرة سوف تطير، لكن هل يكون بينها رأس اللواء كمال حمدي؟ مستحيل. لن يتخلى عن رجله الأول لسبب كهذا.

هكذا بدأت الرحلة الكئيبة إلى الطريق الصحراوي وبعد نصف ساعة توقفت السيارة وكشافاتها تضيء بقعة ممتدة من الرمال. تعاون رجلان قويا البنية على حمل الجسد الملفوف في الملاءات فألقياه

وسط الصخور والرمال... وفي إهمال غطياه بالرمل وبعض النباتات الجافة التي وجداها هناك. سوف تتكفل الكلاب والذئاب بإخراجه ثانية على كل حال. ليست هذه أول مرة.

لاهثين عادا إلى السيارة، وأشعل كل منهما سيجارة تعبيرًا عن الرضا عن النفس. كلما تخلصا من واحد من أعداء القائد المفدى منصور أحمد الديب شعرا براحة ونشوة. بالتأكيد هو عدو، وإلا فلماذا نال كل هذا التعذيب الذي فتك به؟ كان على هذا الكلب أن يتقي لحظة كهذه عندما يلقى جسده المثخن بالجراح في الصحراء والظلام، لتتلذذ بلحمه الذئاب. كان عليه أن يعمل خيرًا في حياته كي ينجو من هذا المصير المظلم. بينما قلب القائد المفدى كان يتسع للكون، عامرًا بالخير والنبل.

دارت السيارة وابتعدت، ودار بين الرجلين حديث عن الزوجات والفياجرا والمنشطات الجنسية وليلة الخميس..

عندما عادت السيارة بعد ساعة إلى البناية، بدا للرجلين كأننا في الظهيرة.. كل الأضواء تتوهج.. هناك حركة غير عادية في الحديقة وفي الطوابق كلها. هناك من يغادر مسرعًا ومن يركض ومن يعود... يرون كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي، متسع العينين زائغ النظرات يقف مع مجموعة من رجاله.. يقف بالقميص الغارق بالعرق وربطة عنقه مفكوكة تمامًا. المشهد غير معتاد أن ترى هؤلاء القوم خارج مكاتبهم ومذعورين شاحبين صاخبين، وفي ساعة كتلك. ابتعدا إلى جوار سيارة تقف هنالك في الظلال، ليلحقا بعدد من المخبرين الذين ينتمون لهما،

والذيـن يقدران على سـؤالهم عما هناك. ابن طبقتك هو من تسـتطيع الحديـث معه عـن الزوجـات والفياجرا والمنشـطات الجنسـية وليلة الخميس..

قال الرجال وهم يدخنون بغزارة ويرتجفون انفعالًا ورعبًا:

- «كارثـة.. لقـد بلغتنـا الأخبـار اليقينيـة.. لقـد مـات حقًـا مثلما سنموت.. حسبناه لن يفعلها».

- «عمن تتكلمون؟».

-« القائـد المفـدى منصور أحمـد الديـب. أبونا وربان سـفينتنا.. الذي أبقانا في عرض البحر فلم تجنح بنا السفينة على شطآن الفوضى أو الشيوعية أو التطرف الديني أو الجوع».

- «ماذا دهاه؟».

- «مات! انفجر قلبه منذ أربع ساعات!».

وفـي الآن ذاتـه كان اللـواء كمـال حمـدي يقـف خـارج غرفـة المستشـفى، حيث انكب الأطبـاء يحاولون إعادة الصنـم إلى الحياة. الـكل يعـرف أنه مـات منذ سـاعات لكن أحـدًا لا يجسـر على إعلان الخبـر أو التوقف. سـوف يستمرون فـي المحاولة إلى يـوم الدين أو حتى يأمرهم زعيم مفدى آخر بالتوقف.

كان اللواء كمال حمدي يقول لمن حوله:

- «الوغـد قال لنا: الآن سـقط الذئب المنتصر عن السـرج، ثم قال: الآن تمـزق الفـؤاد إربًـا.. أي ذئـب منتصـر إن لـم يكن يقصـد منصور الديـب؟؟ عندما قال هذا بالضبط حدثت الوفـاة! يقول الأطباء إنه جزء

واهن في جيب الشـرايين التاجيـة لدى القائد المفـدى، وكانوا يعرفون بوجـوده. حـدث فيه تكيـس فانفجـر عندما تمـادى القائـد المفدى في تمريناتـه الرياضيـة الليليـة. بمعنى آخر قد تمـزق الفؤاد إربًـا. ابن الزنا الذي مات بالتعذيب كان يعلم. لم يخبرنا صراحة لكنه كان يعلم».

- «قد مات على كل حال».

- «وهـذا يفاقـم مـن جنونـي. لقد فر إلى حيـث لا يقـدر أي منا على اسـترداده.. لقـد كان صاحـب الضحكـة الأخيـرة، ولكنـي سـأبحث عن جثمانه ولسـوف أهشم كل عظمة فيه وأحرق كل نسيج فيه. سوف أغمره بالبصاق والبول والغائط، ولسوف ألقي للكلاب بقطعة قطعة من لحمه».

- «للأسـف ليـس الوقـت وقـت الانتقـام، بـل هـو وقـت تنظيـم الصفـوف. ثمـة عهـد جديد يوشـك على البـدء، وعلينـا أن نصنعه أو نكون فيه أو نتقي بطشه».

نصنعه..

أو نكون فيه..

أو نتقي بطشه...

حقًّا.. من الذي سـيأتي؟ ما مصير جهاز المخابرات المعقد الذي يديره كمال حمدي؟

اللواء كمال حمدي تخنقه أسئلة بلا جواب..

١٣ - من دونه

هـل تسـمح لـي بلفافة تبغ أخرى؟ شـكرًا يا سـيدي.. لـو تكرمت بفنجان قهوة رابع لكان هذا رائعًا.

لقد تلاشـت الأعـذار والذرائع يا سـيدي المحقق، ولـم يعد علينا أن نتظاهـر بـأن زوجها هو موضوع كلامنا. يمكننـا أن نغادر المصحة الكئيبـة ونقصـد كافتيريـا قريبة لنتكلم، أو نمشـي في حديقـة دانية، أو نذهب للسينما حتى «لا نرى» لقطة واحدة من فيلم.

مـن دون زوجهـا نصف المشـعوذ نصـف المجنون كانت سـلوى عمـران تزداد نضـارة. كانت بشـرتها تتفتـح للنور، وبـدأت التجاعيد تـزول عـن وجههـا. وعندما كانـت تقابلني بعـد الظهر كانـت تعقص شـعرها أو تجمعه على شـكل ذيل حصـان، مما يعطيها مظهـرًا ماكرًا لطيفًـا كأنهـا طفلة تلهو. نعم كانت قد فكت حجابها لسـبب لا أعرفه، وبرغم أن محمودًا لم يرغمها على ارتدائه. خطر لي أنها تريد أن تصب علـيَّ جـام أنوثتها فلا أسـتطيع الفرار. لا أعـرف حقًّـا. تلبس صندلًا مكشـوفًا يضاعـف تأثيـر الطفولـة هـذا، مع إعطائـي فرصـة تأمل دقة

وأناقة قدميها. النظافة.. النظافة الأنثوية كانت تفتنني دائمًا مثلها مثل الضعف الأنثوي.

كانت تعرف أنها الآن حرة.. لم تعد هناك مخاوف ولا هلاوس، وهي كذلك صغيرة السن، يمكنها أن تتزوج وتبدأ حياتها من جديد. يمكنها أن تمارس أنوثتها كاملة.. لم ينفد رصيدها بعد.

المناخ العام كان متوترًا مفزعًا بعد وفاة القائد المفدى المفاجئة، وقد مرت أيام الحداد مع شعور بانعدام التوازن والثكل. البلد كالزوجة الخانعة التي كان زوجها يجلدها ويضربها، ثم اختفى فجأة.. لكنها لا تشعر بالسعادة، لا تستطيع المشي من غير أصفاد ثقيلة تكبل قدميها. عقدة الأب الشهيرة والشعور بالذنب.. العقدة التي وصفها إيليا أهرنبورج في ذوبان الجليد، واصفًا لحظات موت ستالين وتأثير هذا على سجناء الرأي في سيبريا. لقد بكوه بحرارة.

من مكان ما ظهر رجل عسكري ما، كان يقبع في صفوف الجيش، وسرعان ما تعالى التهليل ووجد من يبايعه. هذا عهد جديد يبدأ ولا شيء ينبئ بأنه سيكون أفضل مما سبقه. لا أحمل آمالًا كبرى لهذا البلد التعس.. أعتقد أنه يحمل جينات انتحار أو فشل في خلاياه، ولا أحد يقدر على الاستقلال عن جيناته، لا أحد يفر من القدر المدون في خلاياه. لا أطلب من هذا البلد سوى ألا يعتقلني، وأن أظل حيًّا وآكل وأتنفس وأقبض راتبي وأستمتع بالفنون عشرين عامًا أخرى.. فليتركني وشأني عشرين عامًا، ثم فلأمت ولتذهب الأجيال القادمة للجحيم. أنا لست حارس أخي.

هذا القائد العسكري أجرى تغييرات كثيرة، وأطاح بكثيرين، لكنه استبقى اللواء كمال حمدي لأنه يسيطر سيطرة جيدة على المخابرات ويعرف كل شيء، ثم أن الضغط عليه سهل لأن الملفات تعج بفضائحه وفساده.. هذه ملفات لها رائحة الجوارب النتنة.

لكني لم أعرف كل التفاصيل وقتها، وعرفتها في وقت متأخر جدًّا عما عرفته أنت يا سيدي المحقق. عندما عاد الرجال إلى الصحراء بحثًا عن جثة محمود لم يجدوها. كانوا قد وضعوا بضع علامات تذكرهم بالمكان. عشرة أمتار بعد لافتة طريق، ثم مئة متر داخل الرمال، ثم شجرة ضامرة تحدد موضع الجثة. عندما عادوا لذلك المكان تنفيذًا لأوامر اللواء الغامض الراغب في التمثيل بالجثة لم يجدوها.

خطر للمخبرين البلهاء أن الذئاب التهمت الجثة بهذه السرعة. ثم خطر لهم أن محمودًا كان من الأولياء وقد طار للسماء.

لكن اللواء كمال حمدي كان يملك احتمالًا ثالثًا: الرجل لم يمت.. حسبوه ميتًا وتركوه في الصحراء، وهكذا استعاد قواه ونفض الرمال عنه ونهض. هناك احتمال رابع أن يكون المخبران كاذبين، وقد فعلا ما يحدث في كل القصص: أخذا الأمير الصغير للغابة ثم لم يطيقا قتله فأطلقا سراحه، وعادا للملك الغاصب يدعون أنهم قتلوا الأمير. لكنه كان يثق برجاله ويعرف أنهم يتصرفون بضمير الكلاب. الكذب أمر غير وارد لأنه يحتاج إلى حد أدنى من الإرادة المستقلة والذكاء. أقرب الحلول للصواب هو أن الطبيب جاهل والرجال حمقى ومحمودًا لم يمت ولات حين مناص.

الرجل لم يمت.. هذا احتمال قوي يوشك أن يغدو يقينًا، لكن أين هو الآن؟

أعتقد أنهم راقبوني وراقبوا سلوى عمران، وراقبوا منزل محمود وكل معارفه. لم يجدوا شيئًا، وعلى كل حال لم يعد العثور عليه مُلحًّا.. لقد مات الكلب المسعور منصور أحمد الديب، وهو الذي كان حريصًا على حياة محمود واستنطاقه. اليوم يمكن للواء كمال حمدي أن يحكي كثيرًا عن ذلك الطاغية الذي ولى، والذي عذب وأهان وقتل كل من كانوا حوله.. لقد جاء عصر جديد مشرق يحمل الأمل كل الأمل للبلاد.

فليذهب محمود للجحيم.. من يريده؟

* * *

لماذا كنت متعلقًا بسلوى عمران لهذا الحد؟

هذا شيء محير بحق. لم أكن مراهقًا أو حديث الخبرة بالنساء، بل إنني عرفت منهن كثيرات إلى درجة التشبع فالزهد. ضعفها ووهنها كانا سببًا قويًا لكنه لم يكن السبب الوحيد ولا الأهم. كانت جميلة أو على الأقل كان وجهها يروق لي بشكل خاص، لكن كم من وجوه جميلة قابلت في حياتي. لم أستطع قط فهم أسبابي، ثم خطر لي أن التفسير هو نفسه ما جال بذهني في أول مرة.. اللذة الحريفة الغامضة للظفر بزوجة العراف. في طفولتي جاهد المليونير أوناسيس كي يظفر بأرملة كنيدي رئيس الولايات المتحدة. اشتراها بمبلغ فادح من المال، وأحسبني أستطيع فهم أسبابه، ما جذبه لجاكلين كنيدي هو ما يجذبني لسلوى عمران.

هـل مات محمـود؟ لم يصلنا أي إخطار رسـمي بذلك ولم نسـتطع معرفة مكانه كالعادة، لكن بوسعها أن تجد مخرجًا مع محام بارع. زوجها لن يعود أبدًا. لابد أن هناك في المعتقل معارضين سياسـيين تجاسـروا على انتقاد كافور الإخشـيدي أو أمنمحـات الثالث، وهؤلاء لن يخرجوا ولن يسمع عنهم أحد للأبد. ربما كان محمود واحدًا منهم الآن.

هل أتزوجها؟

لا أجـرؤ علـى الـزواج.. الفكـرة تثير هلعي منـذ الطفولـة. ثم أن محمودًا قال إنني لن أفوز بها، وعلى قدر علمي لم تطش نبوءة واحدة لمحمود حتى اختفى أو مات أو ذاب.

قررت أن ألقي بشـباكي وأنتظر ما سـتعود به. كنا في قاعة السـينما (لا نشـاهد) فيلمًا أمريكيًّا مثيرًا، بينما العطر ينبعث منها مسكرًا شجيًّا. لسـبب ما تفـوح النسـاء بالعطـر بقوة فـي دور السـينما. لمسـت يدها البضة، لسـبب ما تكون أيدي النسـاء بضة في ظلام السينما. ابتسمتْ بغموض.. لسبب ما تبتسم النساء بغموض في ضوء السينما المنعكس من الشاشة.

عندمـا قلـت لهـا همسًـا وأنا أنظـر لانعكاس شـعاع الشاشـة على وجهها الصبوح:

- «أنا وأنت ناضجان وقد قطعنا مسافة طويلة من رحلة العمر».

ارتفع حاجباها في دهشة.. فقلت:

- «أنا وأنتِ سـليما الجسـد نأكل جيدًا ونتنفس الهواء النقي وننام جيدًا.. هذا يعني أن هرموناتنا تعمل جيدًا».

ارتفع حاجباها في ملل.. فقلت:

- «أنا وأنت نحمل لبعضنا ذات القدر من الألفة والارتياح والاشتهاء والاحتياج».

ارتفع حاجباها في توقع.. فقلت:

- «قصص الحب لا تكتمل إلا بالوصال أو الانفصال.. كلانا لا نرغب في الانفصال».

ارتفع حاجباها في رضا.. فقلت:

- «أنا أريدك لكن من دون قيود الزواج وأصفاده. أملي أن نتصرف مثلما يفعل الناضجون في كل العالم. في العالم كله يتزوج الناس لأسباب عديدة ما عدا الجنس لأنهم يتزوجون بعد ما يرتوون منه، بينما في مصر نتزوج من أجله فحسب.. يمكننا أن نظفر بما نريد من جنس دون أن نتورط في القفص الحريري».

ارتفع حاجباها في فضول.. فقلت:

-« تعرفين أنني أقيم وحدي في ذلك المسكن الصغير خلف المصحة».

تشاك!!

لا لم يصفق المشاهدون لأن بطل الفيلم تمكن من قتل الجاسوس الروسي. هذا كان صوت الصفعة يا سيدي المحقق. صفعة امرأة من الطبقة الوسطى تربت على أن الجنس جريمة شنعاء وخطيئة نتحملها فقط لأنها تأتي بالأطفال، ثم سمعت وغدًا يطلبه في الظلام من

دون وعـود ولا ارتبـاط ولا ثمن، أو على أسـاس أن ثمـن الجنس هو الجنس. لحسـن الحظ أن الصفعة تمـت في الظلام فلم ير أحد شيئًا ولـم يفهموا، لكنهـم رءوا امرأة تتـرك رفيقها وتجمـع حقيبتها وتهرع نحو باب الخروج الذي يحمل لافتة حمراء كتب عليها EXIT. مر بي هذا المشـهد عشرات المرات في صباي، منذ كنا نرى أفلام السباجتي الإيطالية ثم أفلام فان دام وحتى التيتانيك وسـيد الخواتم، ومنذ كانت الفتيات يدخنن السـجائر في السـينما، ويجرين فتسمع حفيف البنطال «الديولين» الواسـع الذي يـداري طرف الحذاء، ومنـذ كانت الفتيات يرفعـن شـعرهن لأعلى كالأسـد فـي الثمانينيـات.. نفس المشـهد.. الفتـاة المصدومة التي تهرع للباب ذي اللافتة الحمراء لأنها اكتشـفت أنني حيوان. لكنني لم أتصور أن تفعل سـلوى هذا.. توقعت ردًّا أكثر عقلانية.. تلومني بهدوء ورفق ثم تنتظر حتى ينتهي الفيلم.

علـى كل حال لقد خرجتْ من حياتي. نم مطمئنًّا يا محمود فأنا قد حققـت نبوءتك، لكني منبهـر بصراحتي برغم مهانـة الموقف العامة، فأنا لم أكذب أو أنافق أو أزعم شيئًا لست مقتنعًا به.

سأعود لداري حيث الوحدة، الوحدة التي تنسيني وحدتي! الوحدة هي رفيقة دربي وسـلواي وأنيسـي الوحيد، ومن أحكي له كل شـيء. لا شك أن حياتي قد تغيرت منذ تعاملت مع محمود السمنودي، ومنذ ظهرت زوجته في حياتي.

هـل محمـود علـى ظهـر الأرض مـا زال؟ أم تـراه قـد رحـل إلـى موضع غامض من الكون يمتزج فيه بالأثير ولربما يجول في سـجلاته الأكاشـية تلـك؟ أتراه قد عرف السـر؟ أترى روحـه المعذبة قد تلقت

الإجابات الكاملة؟ يومًا ما سأعرف أنا نفسي، لكن ليس الآن. أنا بحاجة لاستعادة حياتي التي أرهقها الجنون، وعكرها الاشتهاء، وبعثرها المخبرون، وبددها الضيوف غير المرغوب فيهم. حياتي التي لا تراقبني فيها ألف كاميرا ويصغي لهمساتي ألف صوت، وأعرف أن رجال المخابرات المركزية يحللون كل شهيق وكل زفير لي.

أنا قد حققت نبوءتك يا محمود..

« ابتعد عنها.. بوسعي أن أمزقك بأسناني لكني لن أبدد قواي في أمور تافهة كهذه. لن أدخل السجن أو أعدم الآن.. ليسا بالزمان ولا المكان المناسبين. فقط ابتعد عنها. لن تظفر منها بشيء أبدًا لكنك ستظفر باحتقاري ومقتي».

أتراني حققتها أم هي تحققت لأنها حقيقية؟ الموقف الثعباني الشهير الذي يلتهم نفسه. هل النبوءة صنعت الحدث أم الحدث حقق النبوءة؟

على أنني لم أعرف ما كان ينتظرني فعلًا. عندما ذهبت إلى المصحة في ذلك النهار شاردًا غارقًا في أفكاري، شممت ذات العطر ورأيت القدمين الدقيقتين النظيفتين، رفعت وجهي فرأيت الوجه المليح.. وجه سلوى عمران! هناك كانت متأنقة في ثوب أزرق مبهج للقلب، تقف تحت الشجرة العملاقة المجاورة لسور المصحة. لم تكن تنظر لي بل كانت تعابث قطعة حجر صغيرة على الأرض بطرف حذائها وقد عقدت ذراعيها على صدرها.. كانت شاردة الذهن. بدت لي رقيقة فاتنة كهريرة وليدة تعبث في هذه اللحظة.

لعودتهـا معنـى أي معنى.. راح قلبي يرتجـف. ومعنى هذا أنني لـم أفقدها كما حسـبت، ومعناه أن نبوءاتك يا محمود ليست حتمية.. إنها قابلة للاختراق.

اسـمها سـلوى عمـران يا سـيدي المحقق، وقـد عرفت فـي هذه اللحظات أنها لي.

* * *

كان عليـه أن يتـوارى معهـا في ذلك الشـق في الصخـور. كانا قد فقدا كل شيء تقريبًا ما عدا مشاعر الذعر وغريزة الحفاظ على النفس. المـرأة كانـت تحمل طفلًا رضيعًـا إلى صدرها وترتجـف هلعًا.. ويل لك.. لو تكلمت لسمعونا. لو صرخ طفلك فهي النهاية.

لم يسـتطع قول هذا لأنه لا توجد لغة.. هناك أصوات حلقية تخرج من الفم، كأنه موشك على القيء:

- «أععع...ععع.. عااه.. أوععع!».

فقالت :

- «اع ع.. عوووه.. عااه».

جذبهـا بقـوة إليه واضطر إلى أن يسـمرها أرضًـا. رائحتها الكريهة تزكم أنفه، كما أنها مكسـوة بشيء كالشحم لا يعرف ما هو. واستطاع أن يسمع الحفيف.

اختلـس نظرة عبر الشـق إلـى السـماء الخضراء واسـتطاع أن يرى تلـك السـاحة التـي كانوا يسـمونها نيويورك منـذ مليون سـنة. هكذا

قال أجداد الأجداد... ساحة من أشجار كثة وسراخس ومستنقعات، وهناك يد عملاقة حجرية تشبه قبضة إنسان، تخرج من المستنقع ممسكة بشيء ما.. كأنها شعلة. يبدو أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون صنمًا جبارًا. وخطر له أن يعبد هذا الصنم فلربما حماه. كان ينبهر بكل شيء عملاق. لكنه نسي أصلًا معنى كلمة عبادة.. ذكرى غامضة من مكان ما.

مد يده إلى وجه المرأة وراح ينزع الخيوط اللزجة التي تغلف ملامحها، ثم راح يمزق الخيوط عن وجهه ووجه الطفل.

صوت الحفيف يتعالى. ليته يستطيع أن يرى دون أن يتأذى. هكذا قرب رأسه من الشق ونظر. كان أول الصراصير المتطورة يقترب وهو يحرك شواربه في جشع. حجمه يقترب من حجم سيارة كبيرة من سياراتنا. يمكنك أن تسمع صوت الحراشف تحتكّ، فتقشعر، ويمكنك أن تشم رائحته الكريهة المميزة، وترى أجزاء فمه القارض اللاعق وهي تتحرك بحثًا عن شيء تقضمه. هذه الصراصير تعرف كل شيء وتحركها منظم وذكي، ولابد أن لها لغة متطورة لأن الأصوات الصادرة عن حراشفها ليست عشوائية. يمكنك أن تميز أفعالًا وتراكيب لغوية.

بالفعل تضخم حجم الجهاز العصبي بشكل ملحوظ... هناك سلسلة عملاقة على طول الظهر كما أن هناك تكوينات أقرب للمخ في الرأس.

منذ انفجار قنبلة هكسا المتطورة، والبشرية قد زالت تقريبًا.. لم يبق منها إلا بعض الجيوب المتوارية في الشقوق، بينما الصراصير نفسها تطورت وصارت أقوى وأذكى وتأهبت لتحكم العالم...

مـع خصـم كهذا لا يمكن التفاوض أو شـرح موقفك. هي كائنات لا تحمـل نحونـا من الشـفقة والرحمة أكثـر مما تحمله أنـت نحو أي صرصور يزحف في مطبخ دارك. سـرعان ما تسـقط أرضًا بينما أجزاء الفك تقضمك.. وبعد قليل أنت أشلاء متناثرة.

احتـرس من الكهوف التي تزدان جدرانهـا ببيض الصراصير.. هذه مرعبة حقًّا خاصة إذا فقس البيض وأنت بالداخل..

الصراصير تتحرك في جماعات.. وبما أن حجمها هائل فإنها تغطي الأرض تغطية تامة، ومن العسير أن تجد ثغرة بينها. ربما لو كنت سعيد الحظ تهوي على أحدها بصخرة ثقيلة، لكن اللحظات التالية لن تكون جميلة عندما يجدك الآخرون.

الطفل يعوي.. تحاول الأم أن تسد فمه وهي تهمس:

- «أعااه... وعاااه.. أوعاااه..!».

الطفـل لا يسـكت.. سـوف تشـعر الصراصيـر بالصرخـات. إنها تملك جهازًا عصبيًّا شـديد الحساسـية. يجب أن يخرس هذا الشـيء. هنا لم تجد الأم مفرًّا من الإمسـاك بقدمي الصغير ثم تهشـم رأسه على الصخور.. هكذا سـاد الصمت. تصرف حكيـم، فهي تعرف أنه ليس ثمينًـا.. يمكنهـا الحصول على واحـد آخر من أي ذكر فـي أي لحظة. المهم أن يظل رحمها موجودًا وحيًّا.

بالفعل لم تشـعر بهـم الصراصير وبدأت تبتعد.. سـمعوا الحفيف ودبيب الأقدام الستة فوق المخبأ، ثم عاد الهدوء يسود المكان. مد يده يفتش عن الثمار التي قام بجمعها أمس من أحراش نيويورك، ثم عصر

إحداها ودسها في فم المرأة.. سال العصير على شفتيها فراحت تمضغ في نهم، وفي هذه اللحظة أدرك أن هناك نداء غريزيًّا يحتم عليه أن يتكاثر كما ظل حيًّا...لقد رحلت الصراصير وفقدت المرأة طفلها.. حان وقت صنع طفل آخر. رائحة المرأة كريهة جدًّا لكن ما المشكلة؟ رائحته كريهة مثلها وأكثر...

يرتفع محمود حتى يرى جسده على الفراش، وقد فتح قدميه وذراعيه ليبدو كأنه حرف X كبير، أو كأنه برص عملاق سقط فوق الفراش على ظهره. عيناه مفتوحتان زجاجيتان تحدقان في السقف ولا تريان.

يبحث بين الأرفف عن المزيد... أكاشا... أكاشا...

* * *

عندما جاء رجال المباحث يعتقلون مصطفى أبو حسن فجرًا، شعر بشيء من الحنين. تذكر أيام الحماسة السابقة واعتقاده أنهم يبنون الصحوة الإسلامية القادمة. وكان يردد في كل مرة:

- «هؤلاء قوم يريدون لنا أن ندخل الجنة.. زادهم الله وزادنا».

في الليالي التي يتوقع «الأمر» فيها، كان يتناول العشاء ويدخل الفراش مبكرًا بعد ما يعد حقيبة صغيرة فيها حاجياته، حتى إذا سمع صوت البوكس يتوقف في الشارع في الثالثة صباحًا نهض بكامل قواه. يهبط إلى البوكس في فخر وقد شمخ برأسه كأنه بطل إغريقي ذاهب للإعدام. لمسة مسرحية لا شك فيها.

لكنه كان يعرف أن الأمور اختلفت. لم يعد يمارس أي نشاط ذي طابع ديني، وليس لدى هؤلاء القوم أي شيء ضده. ماذا يريدون هذه المرة؟ هل يعاقبون من فقد إيمانه على فرط إيمانه؟ هل يلومون من هجر الكفاح على كفاحه؟ أم هم يعرفون السر الحقيقي؟ ستكون هذه نهاية حياته العملية والاجتماعية.. بل نهاية حياته نفسها.

سيظل حاملًا هذه الأسئلة حتى يصل لبيتهم، حتى يدخلوه إلى المكتب الكبير، حتى يقابل شوكت بك. شوكت بك الضابط خصم قديم، لكن عندما تطول اللعبة ويتقدم العمر باللاعبين ينشأ بينهما نوع من الود. التقيا في هذا المكتب عشرات المرات. لم يعد أحدهما يتصنع.. هو لا يلعب دور البطل وشوكت بك لا يلعب دور رجل المباحث القاسي. بليت الأقنعة بعد كل هذه السنين. صار من المعقول جدًّا أن يتصل بشوكت بك طالبًا وساطة لأحد أقاربه أو طالبًا معرفة مكان اعتقال ابن صديق له.

بعد ما شربا القهوة، قال له شوكت بك:

- «أنت تعرف أن الحياة تتقدم وتزداد تعقيدًا.. لهذا صار هناك شيء اسمه شرطة الإنترنت».

- «أعرف هذا».

- «وهذه الشرطة قادرة على أن تجد كل شخص يظهر على شبكة الإنترنت ويقول أشياء لا تلائمنا».

- «أعرف هذا».

- «ونعرف أنك ابتعدت تمامًا عن أيام الشقاوة».

- «أعرف هذا».

الحمدلله.. لم يقل ما خشى أن يقوله...

ضاقت عينا شوكت بك وقرب وجهه من وجه مصطفى وقال:

- «هل تعرف (بلوج) اسمه (لست أدري)؟.. ».

لم يدر مصطفى بما يرد. اعتاد أنهم أفظاظ أغبياء على شيء من الخرق، لذا لم يتوقع أن يجدوه بهذه الدقة والبراعة هو الذي حاول قدر الإمكان أن يخفي وجوده. إنهم يجيدون عملهم حقًّا.. لكنهم لا يعرفون أنه كف عن الكتابة منذ شهر.. كان يفكر جديًّا في حذف المدونة نهائيًّا. لم تعد لها أهمية. هناك خبر طيب في الموضوع هو أنهم لا يعرفون الجرم الحقيقي الذي قام به فعلًا.

قال شوكت بك:

- «نحن نعرف أنك من يحرر هذه المدونة ونعرف أن أسئلة كثيرة تضايقك..».

ثم مد يده يلتقط بعض أوراق مطبوعة يعرفها مصطفى جيدًا وبدأ يقرأ بصوت عال:

- «إذا ولدت الدولة الدينية فلسوف يتكرر كل شيء من جديد، فقط سيطلق رئيس الجمهورية على نفسه اسم الخليفة.. وزارة المالية ستصير بيت المال. لا حق لأحد أن يسأل عن أي شيء.. من يعترض كافر وخارج على الإجماع. جيش فقهاء يبررون كل شيء.. وسوف يتم قطع يد سارق أو رجم واحد غير مسنود من حين لآخر لإرضاء

الجماهير.. كل كتاب الصحافة سوف يصيرون من عتاة المدافعين عن الدين..».

بدأ مصطفى يتململ.. هو دائمًا محاصر في ركن سواء كان يطالب بالدولة الدينية أو يطالب بوقفها. شوكت بك يقول:

- «عيب عليك يا أخي.. وهذه الفقرة: معظم الناس يستعملون الدين كمبرر لأن يكونوا قساة ضيقي الأفق..».

كان مصطفى قد خبر ضباط المباحث جيدًا بعد هذا العمر، ويعرف أنهم شديدو التدين غالبًا ولابد أن يجد المصحف والمسبحة في مكتب كل منهم. ظاهرة لم يستطع فهمها قط وافترض أنها تعكس التناقض، ثم أدرك أنها متسقة مع نفسها.. المرء بحاجة إلى أن يشعر أن الله يسامحه على ما سوف يقترفه في حق المعارضين الأبرياء.

قال شوكت بيه:

- «أنت تعرف أن بوسعنا توجيه حشد من الاتهامات لك بسبب هذه الآراء والتساؤلات..».

قال مصطفى في ثبات:

- «هي تساؤلات.. أكلم نفسي بصوت مسموع».

- «صوت سمعه مائتا ألف واحد دخلوا المدونة. وهذا يجعلك كنزًا حقيقيًا.. ».

لم يفهم مصطفى ومال للأمام... بلل شفته السفلى الجافة بلسانه وحاول أن يعي ما يقال. فأردف شوكت بك:

- «أنت تملك وسيلة ممتازة لاستطلاع الآراء. صفحتك تجذب المتدينين كالمغناطيس ليشتموك أو ليبرهنوا لأنفسهم أنهم أقوى منطقًا. صفحتك تجذب الشيوعيين كالذباب لأنهم سيجدون راحتهم هناك. كل ما نريده هو أن تراسل الجميع... تصنع قاعدة بيانات متكاملة عمن يتصل بك، ومن هم المتطرفون ومن هم الملحدون».

فكر مصطفى بعض الوقت، وخطر له أن يسأل عما يمكن أن يحدث لو لم يتعاون، ثم وجد أن هذا مضيعة للوقت.. سوف يفتضح أمره وتظهر صوره في كل الصفحة، مع قضية إزدراء أديان متكاملة... سوف يسجن، فإن لم يحدث فلسوف يغرس أحد المتدينين خنجرًا في قلبه ليضمن قصرًا في الجنة.

قال بصوت مبحوح:

- «سأحاول يا شوكت بك».

- «لا أريد محاولة.. أريد نتائج. إننا في ظروف عصيبة.. هذه حرب.. ومن ليس معنا هو ضدنا».

ظروف عصيبة!. في كل العصور هناك ظروف عصيبة تستأهل إجراءات استثنائية. نفس الكلمات كان يقولها أي ضابط في قلم البوليس السياسي قبل الثورة، ثم في مخابرات صلاح نصر بعدها... دائمًا الثورة مهددة.. دائمًا البلاد مستهدفة.. والأهم أنهم برغم هذه الخطورة لا يعرفون الحقائق، وهم مشغولون بالبعوضة على الجدار فلا يدركون أن الثعبان تسلل في ركن الغرفة. مشغولون بالتظاهر بأنهم يعرفون كل شيء، فلا وقت لديهم كي يعرفوا أي شيء.

في تلـك الليلة – منذ شـهر – انهالت الدقات على بابـه، وهو اعتاد أن تنهال الدقات على بابه. لا أحد يقرع الجرس أو ينقر بخفة. سـوف يفتح الباب ليرى المخبرين ضخام الجثة ومعهم ضابط يقول في تشف العبـارة الخالـدة منذ عهد القلم السياسـي: «نريدك نصف سـاعة عندنا يـا أخ مصطفى». خفض صوت التلفزيون الـذي كان يذيع تلاوة قرآنية على روح القائد المفدى منصور الديب، وطلب من زوجته أن تتوارى.

لكنـه لم ير هـؤلاء على البـاب.. في الضوء الخافت رأى شـخصًا لـم يعرف من هو.. لكنه أدرك أنه مهشـم الأوصال منهك بشـدة.. كل جـزء فـي جلده ممزق دام.. شـعره شـائط كأنـه قد خرج مـن حريق.. حافـي القدمين.. ثيابه مكسـوة بالرمـال. قال له وهو يتحامل ليسـتند إلى الباب:

– «إدفع لسائق السيارة النصف نقل أجره».

عندما دقق في ملامحه أدرك أنه هو.. هو بالذات..

وسرعان ما كان يهبط في الدرج إلى سائق السيارة الواقفة أمام الدار ومحركاتها تهدر وأنوارها مضاءة.. قال السائق وهو يسعل ويبصق:

– «هـل هـو قريبك؟ اعتـن به.. أعتقـد أنه مخبول أو ممسـوس أو مدروش أو مسطول».

– «أعرف هذا.. ربما هو كل ذلك معًا.. ».

ثم عاد وثبًا إلى شـقته.. وجد محمـودًا قد تمدد على المدخل أمام البـاب وغـاب في نعاس عميق. جره إلى الداخل فسـمعه يغمغم وهو مغمض العينين:

- «جئتك لأنني عرفت أنك صادق.. الحيرة تغمرك لكنها حيرة صادقة، وتبدل الآخرين يذهلك. أنت جائع للحقيقة، وأنا لست في حل من الكلام.. إن ما أعرفه شموس حارقة.. شموس أحرقت خلايا مخي، فلا أشتهي أن يحترق بها الآخرون».

كيف عرفت داري؟ أنا لم أخبرك بعنواني قط...

- «لا توجد أسرار.. أنا ارتقيت التل فقلّ من يمشون معي ورأيت أبعد فأبعد».

همس مصطفى وهو يريح الرجل على الأريكة:

- «فيما بعد.. فيما بعد نتكلم».

عندما جاء الطعام أطعمه.. دس اللقيمات في فمه دسًّا.. وضع كوب الماء بين شفتيه وصبه صبًّا. تركه يغفو عدة ساعات وهو جالس جواره يرمقه في فضول، ثم استطاع أن يجره إلى الحمام حيث أزال أدران جسده وضمد جراحه وآثار حروق السجائر.... تبًّا!... كأنه عائد من أقبية جهنم حيث عذبته الأبالسة. من أين جاء؟.. ومتى ترك المصحة؟

بدل بثيابه ثيابًا نظيفة ثم عاد به إلى الصالة، حيث كان التلفزيون يواصل عرض صور الوفود التي جاءت تعزي في القائد المفدى الذي انفجر قلبه. فتح محمود جفونه التي التصقت بذلك النسيج اللزج غير المفهوم، وقال ويده ترتجف:

- «أنا جئت من الصحراء.. البصاصون ورجال المحتسب تخلصوا من جثتي لكني لم أمت.. ظنوا أنني هلكت، لكنني تواريت هناك في

المكتبة. بين السجلات.. وعندما تركوني مكسوًّا بالرمال كي تأكلني الذئاب، خرجت من المكتبة.. مشيت.. مشيت...».

فكر مصطفى قليلًا.. وضع أنامله على جبينه ثم قال:

- «حسب ما فهمت من كلامك.. أنت كنت في قبضة الحكومة، وهم الذين عذّبوك بهذا الشكل؟.. ».

- «نعم».

- «وحسبوك قد هلكت فألقوا بك في الصحراء».

- «نعم».

- «ولم تجد سواي كي تفر إليه؟».

- «نعم».

- «هذا يقودني للسؤال: كيف عرفت بيتي؟ لم نتبادل كلمة واحدة في المصحة».

- «لا توجد أسرار.. أنا ارتقيت التل فقلّ من يمشون معي ورأيت أبعد فأبعد».

- «معنى هذا أنه يجب أن ترحل.. أرجوك».

- «أحتاج لعونك والخصوصية والأمان في دارك».

- «كيف أمنح العون وأنا أحتاج له؟.. كيف أمنح الخصوصية وأنا تحت مجهر الأمن منذ كنت طالبًا في الجامعة؟. كيف أمنح الأمان وأنا مهدد؟ اعتدت فيما مضى أن حياتي مراقبة أربعًا وعشرين ساعة. كل

مـن يعقدون رباط الحذاء ويقرءون الصحف ويجلسـون على المقهى في شارعنا هم بصاصون. كل صديق حميم أو حبيبة مخلصة أو قريب وفـي. كلهم بصاصون. والآن تأتي لداري طالبًـا الأمان؟ الدولة كلها ستأتي معك».

- «ليـس الآن.. ثـق فيَّ.. لديهـم ما يكفي من مشـاكل فلن يهتموا بأمرك».

كان مصطفـى يعرف أن الرجل صـادق. بالتأكيد هو صادق. برغم هذا هو مذعور ولا يطيق أن يستبقيه وقتًا أكثر.

قال له محمود وهو يغمض عينيه:

- «أنـت صـادق.. أنـت تملـك الجـذوة والنقـاء فـي داخلـك لذا تسـتحق أن تعـرف.. كنت صادقًا فـي حياتك الأولـى.. وكنت صادقًا في تدينك.. وكنت صادقًا في شكوكك. تستحق أن تستريح، بينما هم اسـتراحوا ورضـوا بالتبدل والنكـران. أنا لا أملك أن أقول كل شـيء أعرفـه، لكنـي سـأطلعك على بعض أشـياء. أنـت بحاجة إلـى معرفة ما ينتظـر هنالـك. معرفـة الجـواب عن الأسـئلة التي حاصرت البشـر منذ الخليقة، فاسـتعانوا بالعرافين والسـحرة ورجال الدين كي يجدوا الإجابة. تحسـبني أعـرف الإجابة.. تحسـبني رأيت مـا وراء الجدار. للأسـف لا.. أنا لا أعرف الكثير، لكن بوسعي أن أخبرك بكل ما أعرفه وهو ليس ضئيلًا..».

جف ريق مصطفـى وهو ينتظر الكلمات التالية، فقال محمود وهو يتأهب للنوم:

- «أريـد ثيابًا وبعـض المال.. أريد أن تتصل لي بهذا الرقم الهاتفي وتخبره أنني راغب في الاتصال به».

ثم تناول قلمًا وخط بعض أرقام على ورقة... رقم هاتف محمول..

- «في المقابل سوف أخبرك بما قد يريحك».

أنـت تعـرف يا سـيدي المحقـق أن رقـم الهاتـف كان رقـم هاتف ريتشـارد دواير فـي القاهرة... كاتب الخيال العلمـي الذي صار يعمل في البنتاجون. لا أعرف كيف حصل على الرقم، لكن مع محمود لم يكن المرء يسأل عن كيف عرف كذا وكذا...

تعرف كذلك يا سـيدي المحقـق أن مصطفى بذل جهدًا جهيدًا كي ينهي ما طُلب منه بسـرعة، ويتخلص من محمود. أعتقد أن اسـتضافته لمحمـود لم تطل أكثر من يوم ونصف. وكان يشـعر أنه سـيدفع الثمن غاليًا فيمـا بعـد.. مشـاهد فيلـم (فـي بيتنـا رجـل) كانت تتسـابق في عقلـه الباطن. لقـد اعتاد الاعتقـال والتعذيب، لكنـه كان يملك قضية إيديولجية في الماضي.. يجب أن تكون متدينًا بشـدة أو ماركسيًّا حتى النخـاع كي تجتـاز ما عليك أن تجتـازه.. اليوم سـوف يعتقل ويعذب لمجرد أنه شهم.

ثم أنه مسـئول اليوم عن أسـرة.. ليس من حقه أن يلعب دور البطل الصامـد الـذي لا يبالـي بالتعذيـب والضـرب والإفـلاس والاعتقال والتشهير وربما الاغتصاب.

عندمـا حانت سـاعة الرحيل - والخلاص - نـاداه محمود وطلب منـه أن يجلـس جواره. وضع كفـه على ركبته وبعينيـن مغمضتين راح

يتكلم ويتكلم لمدة ساعتين... أخبره بأسرار كثيرة خافية عنه وعني. وعرف مصطفى أن عليه أن يكتم ما سمعه .. إنها قنابل ذرية لا يمكن تركها للصبية يلعبون بها..

هنا ينتهي الخيط الذي لدينا عن محمود السمنودي في مصر يا سيدي المحقق. هذا هو ما لديَّ وأقسم على ذلك..

أما عما حدث بعد ذلك فقد سمعت به من صحفهم وكلماته.

* * *

في العام ٢٥٢٥

لو ظل الرجل حيًّا

لو استطاعت المرأة أن تعيش..

فلربما عرفا الحقيقة..

في العام ٣٥٣٥

لن تحتاج إلى قول الحقيقة ولا قول الأكاذيب

كل ما تفكر فيه أو تفعله أو تقوله

هو في القرص الذي ابتلعته اليوم..

في العام ٤٥٤٥

لن تحتاج إلى أسنانك ولن تحتاج إلى عينيك

فلن تجد شيئًا تمضغه

وما من أحد سوف ينظر لك..

في العام ٥٥٥٥

ذراعاك تتدليان مترهلتين إلى جانبيك

وقدماك ليس لديهما ما تعملان

هناك آلة تؤدي كل هذا لك..

في العام ٦٥٦٥

لن تحتاجي إلى زوج ولن تحتاج إلى زوجة..

سوف تختار ابنك وكذلك تختار ابنتك

من قاع أنبوب اختبار..

(أغنية قديمة لزيجر وإيفانز)

كاليفـورنيـا

١ - الليموري

شاقة هي رحلتك إلى شمال كاليفورنيا..

ماريان وآرثر واجها الكثير من الصعاب في الطريق، خاصة أن هذا الجـزء من البلاد شبه مهجور، وهو من بقايا الغـرب الأمريكي الأول الذي يعج بأساطير الهنود الحمر والسحر...

ماريان كانت في الثانية والثلاثين وآرثر كان في الأربعين من عمره، ولم يرزقا بأطفال بعد كل سني الزواج هذه. يساعد هذا على تضفير مشاعر الوحشة والوحدة التي تمر بهما. لا يوجد علاج نفسي أقوى من طفل جميل نضر يلعب حولك، ويمسك يدك بيد صغيرة مرتجفة. لهذا ينجب الناس مرارًا غير مبالين بوضعهم الاقتصادي، ولهذا يصير أطباء العقم أثرياء، ولهذا يمتلك نصابو المنشطات الجنسية القصور والضياع.

ماريان كانت ذات ملامح لطيفة تسر الناظرين، لكنها تعقص شعرها في إهمال وتضع عوينات سميكة، أما هو فرجل قوي العضلات تبدو عليه لمسة من المرارة، وقد فقد الكثير من شعره عند مقدمة الرأس..

يلبس قميصًا من المربعات وسروال جينز فيبدو متسقًا جدًّا مع الجو المحيط به... يقود سيارته وعيناه ثابتتان على الأفق فلا تصدق أنه يراقب الطريق أصلًا.

الآن فقط يمكنهما أن يريا جبل شاستا الرهيب من بعيد وسط الغيوم..

* * *

جبل شاستا المهيب الهائل الذي يطل على شمال كاليفورنيا. يمتد فيما يعرف بحزام سيسيكيو الذي كان الهنود يمشون فيه من وادي كاليفورنيا حتى ضفة المحيط الهادي. يمكنك أن ترى على قمته الثلوج كأنه كليمنجارو أو أي جبل رهيب آخر. إنه في الأصل مكون من أربعة براكين خامدة متلاحمة.. القمع الشامخ الذي تراه هناك اسمه (شاستينا).

جبل شاستا حيث تغفو الأسرار، وحيث يحلق خيال الشعراء منذ ٧٠ قرنًا هي عمر حياة الإنسان في هذا المكان. جبل شاستا حيث تهيم الأرواح والشياطين...

جبل شاستا الذي تزاحمت حوله قبائل المودوك والكاروك واليانا والشاستا الهندية.. ثم وجده الغربيون عام ١٨٢٦. وفي العام ١٨٥٠ جاء زحف الذهب Gold Rush...

هكذا عج المكان بالمغامرين الجائعين للشروة.. يتشاجرون ويسكرون ويصخبون ويجدون الذهب ثم يبددونه في الحانات.

تغيرات كهذه حولت سان فرانسسكو من قرية صغيرة إلى مدينة ضخمة، وحولت قرية لوس أنجلس إلى مركز ترفيهي عالمي.

ومع الخط الحديدي صارت هناك حول جبل شاستا منتجعات وفنادق كأي مكان يعتمد اقتصاديًّا على التسلق. وموسم التسلق يبدأ في إبريل وينتهي في أكتوبر من كل عام، وتسلق الجبل ليس عسيرًا..

جبل شاستا الذي تحيط به الأساطير..

هذا الجبل الساحر هو كذلك بركان غاضب يقذف غضبة شياطين الأرض إلى سطحها، وغضبته تحدث كل ستمائة عام.. أي أن الغضبة التالية ستكون بعد أربعمائة عام أو أقل، ولسوف يراها أحفاد أحفاد أحفادنا إن لم يكن الإنسان قد أفنى نفسه.

هذا الجبل يعج بالأسرار..

قبائل الكلاماث الهندية كانت تعتبر أن هذا الجبل هو موطن روح العالم العلوي.. وقد تصارعت مع روح العالم السفلي التي تعيش في جبل مازاما.. طريقة الشجار هي قذف الحمم والصخور البركانية. في مباريات المصارعة الحرة تتطاير المقاعد فوق رءوس الجماهير، وهنا تتطاير الصخور النارية.

عندما جاء الغربيون كان الإيطاليون أول الغيث، ولهذا نشروا الكاثوليكية في المنطقة..

ثم صار الجبل مع الوقت ملتقى لديانات عديدة.. هناك دير بوذي ذلك الذي شيده هون جيو كنيت.. وهناك قبائل ما زالت تمارس عقائد الهنود الحمر الأصليين. هناك يهود وقد صار هناك اليوم مسلم واحد..

في العام ١٩٨٧ وجد بعض المخابيل الذين يؤمنون بالتناغم الكوني أن جبل شاستا واحد من مراكز القوى المعدودة على مستوى الكرة الأرضية..

خليط غريب من المعتقدات والألغاز..

لكن تبقى حقيقة أنه مكان مهيب ساحر.

* * *

تعرف هذه المقاطعة باسم دونزموير.. الفندق اسمه (مودوك).. فندق صغير في مدينة (ماونت شاستا). الفندق يطل على منحدر وعر، لكنك من شرفة الطابق الثاني تستطيع أن تقف في شرفة خشبية مزدانة بزهور الليلاك تنظر لبعيد، فترى الجبل الرهيب جاثمًا كوحش نائم ينتظر من يوقظه. وحش رأى الكثير من الأسرار ففضل الصمت..

هناك عادة سيئة لدى الجبال هي أنها تبرز كأشباح من قلب الضباب فلا ترى أقدامها جيدًا.. كأن عليك أن تعبر وهدة من العمى الأبيض لا تعرف ما فيها كي تبلغ السفح، ثم تبدأ التسلق، ولم يكن هذا موسم التسلق على كل حال.

أما القمة فمغطاة بالثلج والغموض، وعندما تشرق الشمس ينعكس الضوء على سطح المرآة الأبيض، فلا تطيق أن تنظر لها لعدة ساعات. لحظتها تختلط الأمور، وتشعر للحظة كأنك ترى كليمنجارو في كينيا أو ترى إفرست في نيبال أو... الجبال لا تنتمي لمكان ولا بلد ولا لحظة بعينها.. الجبال تنتمي لنفسها.. الجبال تنتمي للأبدية.

ماريان وآرثر زوجان أمريكيان محبطان.. لهذا لم ينفصلا حتى اللحظة برغم الخواء الرهيب الذي يغمر روحيهما. هو محامٍ ناجح في شركة مهمة، وهي معلمة.. يكسبان الكثير من المال، لكنهما يمران بحالة اكتئاب شديدة.. لم يعد هناك معنى للطموح ولا المال. ليس عدم الإنجاب هو السبب الوحيد.

لدينا جميعًا حلمات تذوق على ألسنتنا، وهذه الحلمات تميز المذاق الملحي والسكري والمر، فلو تلفت هذه الحلمات أو ولدنا من دونها فلسوف يتساوى كل شيء، ولسوف يكون مذاق القهوة شبيهًا بمذاق الكرنب أو مذاق الآيس كريم.. لا شك في أن أرواحنا تملك حلمات مماثلة يمكنها تذوق السعادة. في لحظة أدرك الزوجان أنهما لا يملكان حلمات تذوق للسعادة. لا شيء يقدر على جعلهما يبتسمان... لا معنى للغد..

وجاء اليوم الذي صحت فيه ماريان من نومها - هناك في نيويورك - وقالت لزوجها في يأس:

- «متى يأتي الليل لننام من جديد؟ رباه!.. ما أطول الأيام!».

هنا فقط أدركا أن حالتهما سيئة فعلًا. وطلبا رأي الطبيب النفسي فقال في حكمة:

- «جربا السفر بعض الوقت.. إن لعبة تبديل الوجوه تنجح دومًا..».

جربا كل شيء.. جربا السفر للخارج وكان دخلهما يسمح بجولة في الكاريبي، لكن المرء يسافر ومعه فرشاة شعره ومعجون أسنانه

ولا ينبغي أن يأخذ معه همومه.. للأسف هما اصطحبا الاكتئاب والهموم معهما إلى البهاما. وعندما عادا كانا أكثر تعاسة..

قال الطبيب النفسي:

- «جربا العقاقير المضادة للاكتئاب... فلنعبث في كيمياء المخ قليلًا».

والتصقت أقراص البروزاك والتوفرانيل بكل شيء في عالمهما. لكن الكيمياء لا تعمل في كل الظروف، أو لربما لم يصل العلم بعد إلى عقار له قوة ما يشعران به من ألم.

قال الطبيب النفسي:

- «جربا أن تنجبا طفلًا.. فالأطفال أزهار الحياة ومن دونهم تغدو نفوسنا كصحراء نافاهو».

لكنهما فشلا في ذلك... يبدو أن الاكتئاب والشعور بالخواء يقتلان البويضات والحيوانات المنوية ويفسدان سيمفونية الهرمونات العظمى التي كتبها الخالق. كانا متحابين، لكنهما لم يستطيعا أن يصلا بسيمفونية الاتحاد إلى الذروة المرجوة... وبدا لهما حل التبني سخيفًا..

قال الطبيب النفسي:

- «جربا الدين.. إنه يملك كل الإجابات، ولسوف تشعران بالدنو من شمس السعادة الدائمة».

كانا من عائلتين غير متدينتين، وقد اعتادا أن يعتقدا أن الأديان اختراع قديم لم يعد يتناسب مع العصر. محاولة عبور المحيط

الأطلسي في منطاد، أو إشعال النار بحجرين.. لم يستطيعا التصديق، وخطر لهما أن العلم صار هو الدين الجديد العصري... لكن العلم عاجز عن علاجهما..

أخيرًا قال الطبيب النفسي:

- «جربا طبيبًا آخر».

وأغلق سماعة الهاتف في عصبية. الطبيب يكره بجنون ذلك المريض الذي يصر على عدم الشفاء، والذي يشعره بالهزيمة والفشل طيلة الوقت.

هكذا بدأت رحلة الزوجين في البحث عن شيء يروي الظمأ الروحي. شيء يبلل الجفاف الذي يضنيهما.. هذه حاجة أمريكية معروفة، ومن أجلها ظهر عشرات النصابين... هناك حشد من المعالجين الروحانيين والشامان والتانترا والذين يتصلون بطاقة الأرض بأقدامهم. هناك ألف أسلوب آسيوي للتأمل وألف طريقة هندية للصلاة وألف شاكرا وطاقة تشي.. هناك أكثر من مذهب ديني انشق عن البروتستانتية وصار له وجوده الخاص..

لا تنس أنك في الولايات المتحدة حيث هناك من يحسبون أنك يوم القيامة ستحاكم أمام يسوع المسيح وجوزيف سميث مؤسس المورمونية، وهناك من يعبدون إلهًا من المكرونة والكفتة...

في الولايات المتحدة سوف تضل الطريق حتمًا وأنت تفتش عن الطريق. سوف تضيع روحك وأنت تفتش عن خلاصها. سوف تهلك وأنت تبحث عن الخلود.

وقالت ماريان لزوجها:

- «لا جدوى.. نحن عاجزان عن الحياة.. عاجزان عن السعادة... عاجزان عن الإنجاب.. عاجزان عن الموت».

قال لها:

- «حتمًا ثمة حل في مكان ما.. هناك توجد الإجابة».

هنا جاء من يقول لهما أن يجربا الليموري المقيم عندجبل شاستا..

- «من هو الليموري؟».

إنه رجل لا ينتمي لعالمنا البتة.. لا يعرف أحد متى ولا كيف جاء، لكنه يبدو كأنه ليس من عالمنا هذا. يتكلم كثيرًا عن ليموريا مما جعلهم يطلقون عليه اسم الليموري. ملامحه تعطي انطباعًا قويًا بأنه شرق أوسطي، كما أن لكنته الإنجليزية شنيعة، لكن هذا يعطيه مصداقية لا بأس بها.. كل ما هو روحاني وغير أمريكي يقنع الأمريكيين بشدة. اعرض عليهم فيلمًا فرنسيًّا أو إيطاليًّا يقول كلامًا فارغًا ولسوف يطرون مستواه الثقافي المذهل. هات هنديًا أو فلبينيًّا يتكلم عن التأمل والاتصال بالكارما، ولسوف يتبعونه بلا تردد.

الأهم هو أنه لا يطلب مالا ولا هبات...

كل ما يريده هو أن يتكلم فيصغي الناس له.. كأنه يحمل رسالة عاجلة يريد نقلها قبل الطوفان..

كلامه رموز غامضة تحتاج للكثير من الفهم، لكنه يحمل رسائل كثيرة تتكلم عن الغد وعن أنفسنا..

- «وماذا عساه يقدم لنا؟».

- «لربما يقدم لكما الحقيقة».

- «وماذا نفعل بالحقيقة؟».

- «ما أنتما فيه وفقدانكما القدرة على الحياة والسعادة.. أنتما لا تعرفان السبب. هو قد يخبركما».

- «هو لا يمنحنا الشفاء؟».

- «يشير لكما إلى الدرب».

هكذا كانت الرحلة الشاقة إلى دونزموير. وجدا غرفة في فندق (مودوك) كما قلنا.. إنهما على مرمى حجر من الجبل، لكن عليهما أن يجدا دليلًا يقودهما إلى السفح حيث ذلك الكوخ البسيط...

قال لهما موظف الفندق إن هناك رجلًا يدعى جون الصغير، وهو من أصل هندي قديم يمت لقبائل الكاروك. هذا الرجل يتقاضى مالًا مقابل أن يقودهما إلى الليموري.

وقد كان. جون الصغير نحيل القامة فارع الطول جدًّا - فلماذا يدعونه باسم الصغير؟ - له شعر طويل أملس ينحدر على كتفيه، ويلبس قميصًا من قماش الجينز ويلوك عودًا من القش طيلة الوقت. الوجنتان البارزتان ولون البشرة والوجه الكالح.. كل هذا يشي بأصله الهندي.

- «هل تريدان مقابلة الليموري؟».

- «نعم».

فكر بعض الوقت في جدية ثم قال:

- «ليكن!».

وبعد برهة من الصمت قال:

- «أنا سأقودكما له!».

وهي معلومات لا جدوى منها..فهو جاء على هذا الأساس أصلًا، كأنك تطلب الإسعاف فيأتيك المسعفون ليسألوك: هل تحتاج لمعونة طبية؟ وقد لحق به الزوجان إلى سيارتهما.. دس نفسه في المقعد الخلفي وهو يلهث، فركب الزوج وزوجته في المقعد الأمامي وأمسك آرثر بالمقود. قال الهندي وهو يعقد ذراعيه خلف رقبته ليغفو:

- «انطلق نحو الجبل. سأخبرك بطريق مختصر».

وكان على السيارة البائسة أن تدور حول المنحدر، ثم تجري في طريق وعر يقودك إلى السفح بالضبط حيث تشعر كأن الجبل يجثم فوقك ويراقبك في شك. كأنك تختلس نظرة من تحت ثوبه الطويل.. تتوقع صفعة على وجهك في أي لحظة. أيها الفضولي المتلصص.. ماذا تتوقع أن تراه تحت جلباب جبل؟

هناك رأيا الكوخ الجاثم وسط الصخور والضباب. وهناك رأيا زحام الواقفين.. يبدو أن الداخل لم يتسع للكل فاضطروا للوقوف بالخارج محاولين سماع كلمة. لم يكن كوخًا ضخمًا أو متسعًا كما لم تكن هناك أي علامات على الفخامة.. هناك سيارة خربة بلا عجلات تقف في الفناء ينام فيها قط أو اثنان، وهناك بقايا نباتات لم تلق رعاية كافية، وهناك برميل عملاق في ركن المكان..

أطفال يلعبون بكعك من طين، ورجل مسن يحاول أن يبصق دون أن يموت. ثمة رجل يحاول تسليك أذنه وامرأة تجلس على عتبة باب ترضع طفلًا. هناك فريق من ثلاثة يحمل أحدهم كاميرا وهناك مذيعة تحمل مكبر صوت، لكنهم لا يلقون أي نجاح.. من الواضح أنه غير مسموح بالتصوير أو عمل لقاءات صحفية.

ليس بالمكان الذي يوحي بوجود إجابات. ليس بالمكان الذي يمنح الخلاص. لقد ذهبا لكثيرين من الشامان والمعالجين الروحانيين، فلو كانا في مصر لترددا على المشايخ إياهم صانعي الأحجبة حارقي البخور، وقد ألفا الجو الذي يريانه في كل مرة. هذه المرة بدا الأمر أقل مما يجب.. أكثر بساطة مما يجب. لا يوجد شيء روحاني هنا على الإطلاق.

لماذا يطلقون عليه الليموري؟

لأنه يتكلم كثيرًا عن ليموريا. الأمريكان يعرفون هذه الإشارة ويفهمونها لأنهم يحسبون أن جبل شاستا هو موطن هؤلاء الذين فروا من قارة ليموريا، وفي العام ١٩٣١ كتب ويسار سبينل كتابًا يصف فيه تواجد الليموريين في جبل شاستا. إنهم بيننا لكننا لا نعرفهم.

لو كنت تعرف ليموريا من كتب الظواهر (الفورتية) Foretean فلك أن تتجاوز الفقرات التالية، أما إن لم تكن تعرفها فدعني أخبرك منذ البداية أنها هراء.. الدراسات الجيولوجية تؤكد أنها هراء.

أنت تعرف قرد الليمور، فإن لم تعرفه فأنت ستجد صورته في أقرب موقع إلكتروني أو دائرة معارف. هذا القرد موجود في مدغشقر

بأفريقيا وموجود في ماليزيا جنوب شرق آسيا فقط... كيف؟ ما سبب هذه الفجوة الجغرافية في تواجده؟

هل كانت مدغشقر وماليزيا جزءًا من قارة كبرى واحدة في المحيط الهادي، وهذه القارة غاصت تحت المحيط في عملية تغيرات جيولوجية درامية قاسية؟ الإزميل الذي شكل الأرض بجبالها ومحيطاتها منذ ملايين السنين. ربما هو نفس الإزميل الذي غاص بأطلنطس في المحيط، أو فصل ساحل أمريكا الشمالية عن غرب أفريقيا، أو ربما هو نفس الإزميل الذي اقتطع القمر من المحيط الهادي وجعله يدور حول الأرض للأبد....

كان ذلك الزمن متحمسًا لنظريات الجسور الأرضية التي اختفت، وقبل علماء محترمون من وزن إرنست هيكل هذه الفكرة. كانت هناك قارة كبيرة يعيش فيها قرد الليمور، ثم غاضت في المحيط فلم يبق سوى طرفيها – مدغشقر وماليزيا – وفيهما قردة الليمور الباقية. وهذا يفسر لماذا أطلقوا على القارة اسم ليموريا.

لم يستطع العلم أن يبرهن على وجود القارة – في رأيي لأنها لم توجد قط – لكن القارة وجدت الخلود في كتابات هيلين بلافاتسكي التي قرأت كتاب ديزان لدى رهبان التبت، وقد كتبتْ كلامًا فارغًا عن جنس خاص كان يسكن تلك القارة، عن قوم طولهم يتجاوز المترين ويبيضون.. وقد غضبتْ عليهم الآلهة فأغرقت القارة. بلافاتسكي لها نظرية خاصة عن جذور الجنس البشري، وتعتبر الليموريين هم الجذر الرابع.

بعد هذا جاءت كتابات ويليام سكوت إليس وبراموِيل. ثم جاء فردريك سبنسر ليزعم أن الليموريين هربوا من قارتهم إلى الولايات المتحدة ويعيشون في أنفاق خاصة تحت جبل شاستا، ومن حين لآخر يمشون على السطح في ثياب بيض..

هناك أكثر من جماعة دينية تبنت هذا المفهوم، وفي رأيي أنه كلام فارغ قطعًا. فلا يمكن ألا تعرف حكومة الولايات المتحدة ما يدور في جبل من جبالها، وهؤلاء.. أليسوا على أرض أمريكية؟ فهل هم أمريكيون لهم حقوق وعليهم واجبات أي مواطن أمريكي؟ أم متسللون يجب اعتقالم وترحيلهم؟

القصة لا تستقيم كما ترى، لكن وجود ليموريا المعنوي الرمزي قوي جدًّا ولا يتزحزح. عندما تتكلم عن خرافة لمائتي عام فمن الصعب أن يتذكر الناس أنها خرافة..

لماذا يطلقون عليه الليموري؟

لأن مجيئه وأصله وحقيقته طلاسم. ولأنه اختار هذا الموضع الغامض الغريب ليقيم فيه.. وهكذا ذكر الجميع بخرافة ليموريا، كما أنه كان يتكلم عن ليموريا من حين لآخر في تأملاته.

* * *

عندما استطاعا أخيرًا اجتياز المدخل واختراق الزحام لبلوغ القاعة الرئيسة، كان هناك رجلان يقفان على الباب يمنعان دخول أكثر من خمسة أشخاص للمكان في كل مرة..

ماذا يريدان منه؟ لم يعرف ماريان وآرثر ما يقولان ولا لماذا جاءا هنا. هل يطلبان منه أن يمنحهما السعادة؟ ما معنى الحقيقة؟

لقد فطنا الآن إلى أنهما قطعا سباقًا هائلًا من أجل هدف لا يملكان أدنى فكرة عنه. تجاهد كي تتسلق السور، بينما أنت لا تملك أدنى فكرة عما يوجد في الجانب الآخر.

أخيرًا يريان القاعة البسيطة، وكانا يتوقعان أن يريا رجلًا نصف عار ذا لحية طويلة شائبة يتربع فوق عرش عال وهو في وضع زهرة اللوتس.. هذا هو المشهد المتوقع لأي (جورو) يحترم نفسه.

لكن الليموري كان يجلس بكامل ثيابه البسيطة إلى منضدة خشبية عتيقة. أمامه طبق فيه قطعة من الجبن، ونصف رغيف يبدو أنه قضم منه لقيمات.. هناك دورق امتلأ بالماء، وهناك جواره رجل أمريكي في الأربعين من العمر، له لحية قصيرة مشذبة بعناية، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه، يضع عوينات شفافة بلا إطار تضيف لمظهره فخامة لا تعرف مصدرها. كان الأمريكي يمسك بجهاز كمبيوتر محمول صغير يدون عليه أشياء، ويراقب الليموري باهتمام ونوع من الافتتان.

أما الليموري نفسه فكان رجلًا أشيب الشعر امتلأ وجهه بالتجاعيد، على أن أهم شيء يثير انتباهك في وجهه، هو تلك الخيوط العنكبوتية الزرقاء التي تغلف أنفه وتحيط بمحجريه وتتدلى على جانبي فمه. كان مخيفًا يذكرك بمسخ من مسوخ أفلام الخيال العلمي. الأغرب هو أنه يغمض عينيه في عناد، وقد سد أذنيه بسدادات كالتي يستعملها البعض أثناء النوم. فكيف يسمع إذن؟

كان المشــهد مهيبًـا. وقـد جـف ريقهما وهمـا يدنوان مـن الرجل الجالس..

قال الأمريكي:

- «اقتربـا.. هـو ليس كائنًا غريبًا وليس عرافًـا ولا متنبيًا.. هو رجل امتلك حدة بصر تفوق الآخرين».

هنـاك مقعـدان خاليـان... كل شـيء كان رخيصًا فقيـرًا لدرجة لا تصـدق.. جـذب كل زوج مقعـدًا وجلس. فقال الليمـوري بإنجليزية فظيعة ولكنة شرق أوسطية واضحة جدًّا:

- «عندما تشـرق الشـمس من الماء فإن خط الظل يمر بين مخالب أبـي الهـول. لا أحـد يدخل هنـاك ولا أحد يعبـر حتى يتحقـق الزمن، وحتى تنشط التغيرات في هذا النطاق من معرفة البشر».

تبادلا النظرات في رعب.. ما معنى هذا؟...

لـولا الهيبـة والتوجس والقلق والغموض والتحفـز لقالا إنه يعبث بهما..

أردف الليموري قائلًا:

- «كلما دنا الوقت دنت التغيرات.. ولسـوف تنفتح الأبواب لتروا السجلات جميعًا. ثمة إله واحد وعلم واحد... ثمة حقيقة واحدة...».

ثم همس بصوت كالفحيح:

- «الشـيء قادم مـن جهة الصيـن.. الصين المنسـية.. الصين التي سـوف تصحـو. ولسـوف تحلـق الصقور فـوق عرين الأسـد.. تنتظر

لحظة الخلاص عندما يدبّ العطن ويزحف الطحلب فوق تضاريس اللحظة، وعندها ترتجف الحملان... من حق الأسود أن تفترس الحملان.. قدر الحملان أن تؤكل لأنها حملان. الأسماك الكبيرة تلتهم الصغيرة.. ذلكم ديدن الكون وتلكم سنة الوجود.. الشر سرمدي.. الشر قديم.. الشر ضروري كالخير.. الشر إذن هو الخير.. حاول الزيت أن يمتزج بالماء.. كلاهما مستساغ طيب لكنهما لن يمتزجا أبدًا».

لولا الهيبة والتوجس والقلق والغموض والتحفز لقالا إنه يهذي..

بعد هذا سكت.. ساد صمت طويل فظلا يترقبان أن يواصل الكلام لكنه ظل كما هو.. بعد قليل أدركا أنه لن يضيف شيئًا. تبًّا.. هذا شيء محبط.. تذكر آرثر السيرك الذي شاهده في طفولته وكيف انتهى كل شيء قبل أن يبدأ، فلم ير ما ظل يحلم عدة أشهر برؤيته، وكيف راح يعوي ويضرب الأرض بقدمه غير مصدق أن كل أحلامه انتهت لهذه النتيجة التعسة. اليوم لا يستطيع أن يضرب الأرض.. إنه رجل ناضج للأسف..

قال الأمريكي الجالس وهو يرمقهما بعينيه الواسعتين:

- «انتهى.. أرجو أن تعطيا الفرصة لآخرين».

- «وهل هذا كل شيء؟».

- «الآن!».

ثم أضاف بصوت هامس:

- «لو انفتحت الأبواب من أول مرة ومع طرقة واحدة، فعلى الأرجح لا يوجد وراءها سوى الخواء.. الغرف التي تحوي الكنوز تحتاج لمحاولات شاقة طويلة».

مد آرثر يده يمسك بكف ماريان ونهضا...

لم يكن يعرف ما يعتقده حقًّا.. لولا الهيبة والتوجس والقلق والغموض والتحفز لقالا إنهما خدعا..



٢ - النزلاء

لابد أن من اخترع العلاج الكيماوي كان من ضباط هتلر.. لابد أن هملر طلب منه ابتكار هذا العقار اللعين ليعذب به اليهود. الحق إنك لم تتغير كثيرًا.. صحيح أنك فقدت بعض الوزن وشحبت، لكن أحدًا لم يلحظ التغيرات القاسية.. لم يدرك أن الجدار مخوخ من الداخل سينهار في أي لحظة، كما يحكي قرآن المسلمين عن عصا النبي سليمان التي أكلتها الأرضة.

من حسن الحظ أن يكون المرء رث الهيئة منذ البداية.. هكذا لا يدرك الناس الانهيار الذي أحدثه السرطان والعلاج الكيماوي في داخله.

أنت راحل عما قريب إلى ما وراء الجدار لتعرف. المشكلة هي أنك لن تعود لتحكي ما رأيت، ولكم تمنيت لو أصدرت كتابًا عنوانه: «أنا قد مت ورأيت كذا وكذا..»، لكن هذا الكتاب ببساطة مستحيل وإلا لوجدناه فعلًا، بعد هلاك كل تلك الأجيال منذ تعلم الناس الكتابة وتعلموا الموت.

سـارة ويليامسـون تدنـو منك.. فتاة ذات شـعر أحمـر وأنت مولع بالشـعر الأحمـر.. هناك نمش علـى خديها وأنت مولـع بالنمش على الخدين.. ممتلئة قليلًا وتضع عوينات شفافة بلا إطار، ولطالما تمنيت أن تحب فتاة ممتلئة قليلًا تضع عوينات شـفافة بلا إطار. سـوف تترك هذا الشيء الرائع ليظفر به توم أو ديك أو هاري..

لا بـأس.. هذه ظـروف غير معتادة.. من الصعـب أن يصاب المرء بسـرطان البروسـتاتا في الخمسين، وأن يكتشـف أنه غير قابل للعلاج الجراحي... لم يظفر بأنثى منذ كان في الخامسـة والعشـرين، لهذا لم يستفد قط من تلك الغدة، ومن القسوة أن تكون هي قاتلته. هذه ليست عدالة شعرية. يفهم تمامًا أن يصاب مدمن الجنس بسرطان بروستاتا، ويصاب السـكير بتليف كبدي، ويصاب الشاذ أو مدمن المخدرات أو العاهرات بالإيدز، ويصاب مجنون موسـيقا الروك الصاخبة بالصمم. هذه هي العدالة الشعرية، أما هو.................؟

*   *   *

كان بارتريدج قد عاد إلى الولايات يائسًا بعد ما اختفى ذلك الرجل الـذي اخترق السـجلات الأكاشـية. الرجـل الذي حمـل على وجهه نسـيج شـرنقة كأنه قد اقترب من طور جديد في حياتنـا، وكنت مفعمًا بالأسئلة، ثم قالوا لك إنه اختفى!

ـ «اختفى؟ أين؟».

ـ «كيـف لنا أن نعرف؟ ذهب للموضع الذي تذهب له الأقمار مع المحاق».

- «ماذا تعنون؟».

- «صار لغزًا كونيًّا لأن رجال المباحث اعتقلوه.. لن يجده نور الشمس.. لن تجده روح أمه لو كانت متوفاة.. لن يجده الوباء.. لن يجده الحظ.. لو حاول الأمل أن يبلغه فلسوف يعتقلونه معه».

كاد يجن غيظًا.. لقد أمسك بأول الخيط فإذا بالحمقى يقطعونه.

حاول كثيرًا واتصل بالسفارة الأمريكية والملحق الثقافي وأجرى الكثير من الاتصالات. لا جدوى.. ثم قيل له إن الرجل مات على الأرجح من قسوة التعذيب. هذه دولة من العالم الثالث حيث التعذيب ليس نزهة بالضبط.

- «مخابيل!.. مخابيل!».

لقد امتلكوا كنزًا فبددوه بنزعات بوليسية غبية.. الجندي الروماني الذي أتلف رسوم أرشميدس بالطبشور على الأرض تم ذبحه في ثانية. المقصلة تقطع رأس لافوازييه العبقري مكتشف غازي الأكسجين والهيدروجين في ربع ثانية، وهو العقل الذي احتاجت الطبيعة إلى مليون سنة كي تأتي به.

لقد مُنح البشر مفتاحًا لكنهم ألقوه في الوحل.

وهو.. مصيبته لا يمكن التعبير عنها بكلمات. كان يؤمن أن الرجل رأى شيئًا.. يؤمن أنه رأى بصيصًا من الحقيقة..

التجربة في المصحة جعلته يشعر أن هذا ليس نصابًا.. ليس مخبولًا... بل إنه يفضل لو ترك وشأنه فلا يسأله القوم عن شيء. وهذا

ليس شـأن النصابيـن ولا الكذابين ولا المخابيل.. إنهـم يتعاملون مع ما يعرفـون كغـاز كريه الرائحة يجب أن ينتشـر في كل مـكان ويتغلغل في كل شق.

هكذا عاد بارتريدج إلى الولايات المتحدة مثقلًا بالهموم..

لـن يعـرف أبدًا... سـوف يتفاقم السـرطان ويغزو عقلـه، وفي يوم سـيدخل في غيبوبـة طويلة يمـوت بعدها ويحرقون جثتـه وينتهي كل شيء.. سيتداول بعض الباحثين كتبه ثم ينسون كل شيء عنه.

يا للقرف!

هرع للحمـام كي يفرغ معدته.. العـلاج الكيميائي مع الإحباط قد حولا أحشـاءه إلى بركان، حتى خطر له عدة مرات أن السرطان وحده قـد يكـون أكثـر رحمة. لم يعـد يطيق أي نـوع من الطعـام. هناك غلبه الدوار فسقط جوار المغطس لثوان.. ثم تحامل على نفسه وزحف إلى غرفة المعيشـة. أعد لنفسـه كأسًـا من الويسـكي لأنه لم يعد يخشى أن يصاب بتليف الكبد، ثم مد يده المرتجفة ليفتح جهاز التلفزيون.. أريد صوتًا بشريًا في هذه المقبرة..

هنـاك تقريـر خبـري قصيـر.. تقريـر عـن عـراف أو مشـعوذ فـي كاليفورنيا. يطلقون عليه اسم الليموري ويقولون إنه يعرف الكثير. كاد يغيـر القنـاة، لولا أنه رأى فجأة بعض اللقطـات ذات الطابع الإخباري السقيم المعروف. صورة رديئة مهتزة باهتة. هناك رجل ينظر للكاميرا وزحام و...

هذا الوجه!!

لا شك في ذلك.. الخيوط التي تملأ الملامح وشعر الرأس الأشيب ونظرة الذعر في العينين.. الوجه الذي رآه في المصحة ولم ينسه قط... الرجل لم يمت.. بل وإنه فر من جلاديه وجاء إلى الولايات. كيف؟

جلس على الأريكة والكأس في يده لم تمس.. لم يضع كل شيء بعد. لم يعد لديه مبرر للبقاء هنا. يجب أن يرحل إلى حيث ذلك الرجل ليعرف منه ما يعرفه. لو كان عليمًا فهو النصر والسلام قبل الرحيل لعالم الظلال، وإن كان مدعيًا أو مخبولًا فهي الراحة الأخيرة.. أنت تترك السر كما هو. لم ولن يعرفه أحد.. سوف يريحك نوعًا أن تموت وأنت تعرف أن الصندوق ما زال عصيًّا على من يحاولون فتحه، وأنك لن ترحل ليظهر من يفتح الصندوق ببساطة بعد دقائق، ليظفر بكل شيء.

اتجه ليعد حقيبته وأدرك أنه سيمضي بضعة أيام عند جبل شاستا الذي تكلم عنه التقرير. هذا ليس موسم التسلق لذا ستكون الفنادق شاغرة.. يمكن للعلاج الكيماوي أن يتريث بعض الوقت فهو غير مفيد على كل حال. كأنهم يكرهون أن يموت مريض السرطان دون أن يتقيأ ويصاب بالإسهال قليلًا. بضع أيام من دون قيئ أو إسهال لن تؤذي أحدًا.

* * *

في فندق فورلوك القريب من جبل شاستا، كان رجل أمريكي في الأربعين من العمر، له لحية قصيرة مشذبة بعناية، وقد بدأ الشعر

يتساقط عن مقدمة رأسه، يضع عوينات شفافة بلا إطار تضيف لمظهره فخامة لا تعرف مصدرها. أنت تعرف هذا الرجل.. لقد رأيته مرارًا.. اسمه ريتشارد دواير وهو كاتب خيال علمي، وفي الآن ذاته يؤدي مهمة استشارية للبنتاجون.

منذ فترة طويلة يقيم دواير هنا.. إنه في إجازة مفتوحة يمولها البنتاجون، يقضي الليل في غرفته الضيقة التي ملأها بالمذكرات والكتب، ومن النادر أن ينام.. صار النوم حلمًا مستحيلًا، لدرجة أنه كان يتعاطى المنومات ليحلم بأنه نائم وهذا كان يمنحه لحظات من السكينة. اللمحات العابرة التي كانت تصل له من الرجل كانت كافية كي تحرمه النوم. ثم في ساعات الصباح الأولى النادية يذهب إلى الكوخ. الكوخ الجاثم وسط الضباب الذي ابتاعه لصديقه الليموري.

وجوه مألوفة يراها هناك، يبدو أن المد الإعلامي قد جرفهم، والموج قد ألقى بهم على شواطئ الكوخ الغامض الذي يعيش فيه الليموري.

أحيانًا يقابل جاره في الفندق المدعو ويليام مولر وهو أمريكي ذو جذور ألمانية كما يشي الاسم، ولا تعرف ما يفعله في الحياة بالضبط، لكنه مهتم بالرجل فعلًا. هناك زوجان شابان يترددان على الرجل كثيرًا.. هناك رجل تبدو عليه سيماء أساتذة الجامعة ويدعى بارتريدج على ما يبدو.

كانت هناك امرأة هسبانية في الخمسين تعنى بالليموري وتطعمه قدر الإمكان وتغسل ثيابه. الحقيقة أنه لم يكن يطلب أي شيء ولو

تـرك عدة أسـابيع لما أكل لقيمة أو شـرب جرعة من المـاء، لذا كانت مهمتها الأصلية هي منعه من قتل نفسه جوعًا...

كانـت تدس الطعام في فمه فكان ينظر لها في فتور ثم يبدأ الالتهام في صمت وحزن.

عمليـة معقـدة جدًّا هي التي قـام بها دواير كي يخـرج محمودًا من البـلاد. كان محمـود قـد صارحـه برغبتـه فـي أن يقيـم فـي الولايات المتحـدة.. كتب هذا في قصاصة ناولها إيـاه، وكان يعرف أن تصرفاته مراقبة والعدسات ترصد أنفاسه، لذا دسها خلسة.

كان دوايـر يريـد هذا.. يتمناه لأسـباب شـخصية أولًا، ثم أسـباب تتعلق بالوطن بعد هذا..

لم يعرف ما يفعله كي يحقق هذه الرغبة..

ظل في القاهرة عدة أيام يتسـلى بزيارة المتحف المصري، وهو لا يعـرف الخطوة التالية.. لابد أنه حفظ موضـع كل قطعة أثرية أكثر مما يحفظها أي دليل سياحي معتمد. وعندما اتصل به الجنرال أندرو هيل يطلب منه العودة، قال له:

- «الأمر أهم وأخطر من كل ما توقعناه، واعتقادي أننا وجدنا وريدًا ثريًّا يستحق الانتظار من أجله.. يستحق أن نحاول إخراجه من البلاد».

- «ألهذا الحد؟».

- «لقد رأيت أوراق العملة التي في حافظته، وأشهد أنها غير زائفة».

ولهـذا عندما تم الاتصال كان مسـتعدًّا... محمود السـمنودي حي وإن حسـبه النظام مات من التعذيب، ويبدو أن هذه واحدة من ألاعيبه

النفسية. وهو متوار عند صديق له في مكان ما من القاهرة. يجب الاتصال بالسفارة ويجب أن تتم إجراءات إخراج الفتى من البلاد، مع حالة الارتباك العامة التي اجتاحتها بعد وفاة القائد الوغد ومجيء قائد جديد، وارتباك جهاز الاستخبارات، ثم إنك تتعامل مع شخص يحسبه الجميع قد مات.

هكذا خرج محمود السمنودي من البلاد بجواز سفر مزور، وهكذا دخل الولايات المتحدة، حيث تمت إجراءات استثنائية سهلها البنتاجون، شبيهة ببرنامج حماية الشهود.. وفي النهاية استقر في المكان الذي طلب أن يكون فيه بالاسم: جبل شاستا في كاليفورنيا. هذا أثار توجس المخابرات لأنه يحمل رائحة النصب والخبال.. الصنوين اللذين لا يفترقان في هذه الأمور.. هذا هو جو دوائر المحاصيل والأطباق الطائرة التي تخطف الناس وطاقة التشي والتانترا وكل الهراء الذي استطاع الإنسان أن يحيط نفسه به.. لكن بدا واضحًا أن محمودًا يتوق إلى الذهاب هناك كأنه يقترب من عنصره الطبيعي..

طلب دواير منهم أن ينتظروا..

ولسبب ما راح الناس يتحدثون عن العراف غريب الأطوار الذي استقر هناك، ولسبب ما صار هناك من يدعونه بالليموري ....

مع الوقت تحول الرجل الوقور دواير إلى واحد أقرب إلى المريدين، أو (المطيباتية) الذين يحرسون حرم مشايخ النصب عندنا.. يوشك أن يشعل البخور ويقول: «أشتاتًا.. أشتاتًا». إنه أقرب لمدير أعمال وسكرتير لليموري.

كان قد تعلم أن محمودًا لا يتكلم إلا بمقدار. لا يمكن انتزاع أي شيء منه ما لم يخرجه هو. صنبور غمره الصدأ فلا يمكن فتحه، لكنك تظل جواره تنتظر القطرة التالية في صبر..

يقول محمود وهو مغمض العينين:

- «الحكمة شمس تشع على الجميع ولا تدخر ضياءها حتى إذا وجدت النفوس حقيرة منحطة. لكنكم لا تصدقونني بل تصدقون هراء المتلعثمين القابعين فوق جبال الجليد. الحكمة في الأكواخ وفي الأزقة وفي الجحور، لكنكم لن تجدوها فوق قمة إفرست ولا في أديرة التبت ولا مياه الجانج كما تتوهمون. الحكمة تأتي لمن يبتغيها حقًّا.. لمن يريدها حقًّا.. شريطة أن يستحقها حقًّا فهل استحققتم الحكمة؟».

يبتلع دواير ريقه ويضغط على أعصابه..

لقد سئم هذه الكلمات العامة التي يطرز بها المشعوذون كلماتهم.. العالم مليء بالكلمات.. لو صارت كل كلمة حبة قمح لما وجد جياع في الكون. لو صارت كل كلمة قطرة ماء لغمرت القارات. ما يريده دواير هو حقائق...

يريد أن يعرف ما حل بكاتي زوجته.. كيف عاشت اللحظات الأخيرة.. الذعر والألم اللذان اجتاحا عقلها.. قال محمود من قبل إن عارضة فولاذية هوت فوقها واحترقت حية.. لم تقتلها الصدمة العصبية بل شعرت بكل لحظة من النار كأنها ساحرة تحترق في (سيلم).. يريد أن يعرف هذا.. يريد أن يشعر ويعذب نفسه بكل لحظة ألم عاشتها.. يريد أن يحترق مثلها..

قال له من قبل كلامًا كثيرًا عن الحادي عشر من سبتمبر.. وهو الكلام الذي ظل دواير يحتفظ به في صندوق مغلق في ضميره... لم يجسر على الكلام أو توجيه أسئلة أخرى، لكنه أدرك أن هناك أسرارًا خطيرة داخل هذا الرأس الشائب.. لقد تمت صفقة بين الرجلين.. سأخبرك بكل شيء إذا أخذتني من هنا. وقد نفذ هو الجزء الخاص به من الصفقة، فهل يفي محمود بوعده؟

هكذا صار دواير مريدًا كما قلنا. ينظم دخول الداخلين ويدون الإشارات الغامضة التي يرددها الرجل، ثم يحاول أن يفسرها في غرفته بالفندق. ومع الوقت بدأ يدرك أن كلمات محمود صادقة في أحيان كثيرة. فقط هي غامضة جدًّا ومخيبة للأمل في البداية.

هم في البنتاجون يريدون نتائج.. يريدون معلومات أو تلميحات، وهو منذ ثلاثة أشهر يطالبهم بالانتظار. لم يحن وقت فتح البئر بعد...

يقول محمود مغمض العينين بإنجليزيته الرديئة:

- «الشر ينتصر في كل مرة.. ولكن لأنكم تريدون له أن ينتصر.. من يسقط منكم في الدرب فلأنه نظر إلى الوراء ليرى المسافة التي تفصله عن الآخرين.. سقط لأن من سبقوه لم ينذروه بالمستنقع الذي يقطع الطريق.. البريء مجرم ملوث اليدين بجريرة اللص والقاتل. كما أن الأثرياء مسئولون عن فقر الفقراء، فالأبرياء مسئولون عن أرواح الخطاة المعذبة. الشمس لن تظفر بالسعادة ما لم يكن البشر ينعمون بنورها.. فالشمس تحتاج إلى البشر إذن..».

ثم يرفع عينيه اللتين لا تريان نحوه ويرشف جرعة من الماء ويقول:

- «أنت تفتش عن السر، والأسرار كعدد ذرات رمال الشاطئ... المعرفة تختلف عن الحكمة، ومعرفة عدد رمال الشاطئ أو عدد أشجار الغابة لن تقودك إلى الحكمة. ربما تقودك إلى الضياع الأبدي.. ثمة أمور يحسن أن تبقى تحت غطاء، والخطر كل الخطر أن يراها أمثالك، ولربما كان ثمن الحقيقة نهايتك لأن الشمس إصر على كاهل الواهنين.. ».

ثم أدنى فمه من أذن دواير وهمس:

- «آل بولسون... ابحث عن الاسم... الشريحة B-87ay التي يجهل معظم رجال البنتاجون سرها. في البنتاجون يعرفون رجال زيتا... لا مبالاة الإنسان بأخيه الإنسان... الشر ينتصر في كل مرة.. ولكن لأنكم تريدون له أن ينتصر. في الطرقات يتوارى الخطر... في المنعطفات.. في السهول.. في الأخاديد وكل خور منسي. شر الأكوان يمضي في موكب النصر مرتديًا أكاليل الغار كل يوم، بينما لا يبقينا أحياء سوى أمل واه في أن ننتصر نحن يومًا. منذ الخليقة والضعفاء ومهيضو الجناح ومعدومو الحيلة يشتهون نصرًا واحدًا وكذا استمرت الحياة.. خدعة تلو خدعة.. جزرة تلو جزرة.. ولولا الأمل الخافت لقطع كل منا حلقوم أخيه».

كان دواير يرتجف... للمرة الثانية يتكرر ذات الكلام.

يجب أن يبحث جيدًا عن هذه الأشياء، ولكن ليس عن طريق رجال الجنرال. لو كان هناك فأر ميت متعفن في القصة، فليس من الحكمة أن يخبرهم أنه شم رائحته...

وماذا عن كاتي؟

- «على المرء أن يشرب من الأقداح مهما كانت ملوثة لعينة الرائحة إن أراد أن يتحاشى الظمأ.. وعليه أن يتعلم الاغتسال بالمياه الآسنة كي يبقى طاهرًا...».

- «وكاتي؟».

- «من يصطاد حيث لا يوجد سمك.. هذا لن أدعوه صيادًا».

- «وكاتي؟».

- «المرأة تعذبت طويلًا لكنها ظلت تسترجع صورة زوجها وابنتها... ثلج الذكريات الرحيم تساقط فوق الروح المحترقة فمنحها بعض السلام، وعندما رحلت لم تدر أنها رحلت. رأت النور فلحقت به. ثمة شبح ابتسامة تراقص هناك على الثغر قبل أن يتفحم».

دواير يجفف العرق عن جبينه، ويحاول ألا ينفجر في البكاء....

محمود لا يعرف أن لدى دواير ابنة... في كل مرة يتلقى دواير دليلًا جديدًا على أن هذا هو الشيء الصحيح. الرجل يعرف حقًا.

* * *

في فندق فورلوك القريب من جبل شاستا هناك سمسار يدعى ويليام مولر، وهذا السمسار جاء من بعيد.. من أقصى البلاد. رجل متأنق وسيم يشرب أجود أنواع الخمور ويصاحب أحلى النساء ويركب أفخم السيارات، وهو بحاجة ماسة إلى أن يظل كذلك.

عندما سمع عن الليموري وعن قدراته الغامضة بدأ يهتم.. الاهتمام تحول إلى شغف.. الشغف صار نوعًا من العشق. لو افترضنا بشكل ما أننا وجدنا رجلًا يتوقع تقلبات البورصة وتقلبات العملات، فإننا نكون قد وضعنا قدمنا على الدرجة الأولى التي تجعلك أقوى رجل في العالم.

لكن الحياة ليست بهذه البساطة.

تمنى لو دخل إلى الليموري ليمسك بورقة ويسأله:

- «ماذا عن أسهم شركة وسترن بيوتكس؟... ».

فيرد الليموري في ثقة:

- «سترتفع في نهاية الشهر..».

- «وشركة وايد فيل؟».

- «أسهمها تنهار بدءًا من ٣٠ يوليو.. حركة بيع نشطة غير معتادة».

ألن يكون هذا رائعًا؟.. يلوك السيجار ويجرع النبيذ البورجندي، ويحلم بالثراء. لكن الكارثة هي أنك تذهب للقاء هذا المخبول فتجده مغمض العينين شاردًا، ويكون عليك أن تسمع إلى ساعات من الكلام الفارغ الشبيه بأحلام الماريجوانا:

- «البشر يعكرون مياههم ليخدعوا الناس الآخرين فيحسبونهم أعمق. أن تذبل الأوراق في الخريف.. هذا هو الناموس.. ومن يحزن بسبب الناموس؟».

ثم يبتلع ريقه ويضرب على المنضدة ويقول بصوت جهوري:

- «أنـا لا ألجـأ إلـى المنطـق.. المنطـق يسـتمد منطقه منـي. نحن ووجودنـا أحلام شـعراء اصطنعوها وزيفوهـا. الهبوط من الجبل هو الرعـب ذاتـه.. هذا هو موعد الموت وتهشـم الأعنـاق، بينما الصعود إلى قمته ينهك قواك لكنه لا يقتلك. الدخول في النوم مخيف، عندما تنزلق نحو الهاوية.. ».

بالطبـع بالنسـبة للسمسـار النهـم للمـال، يبـدو هـذا كلامًـا فارغًا ومضيعـة للوقت. هـل هذا العـراف مخبول لا أكثـر؟... الناس تضيع وقتهـا هنا. أما لو كان صادقًـا فلماذا لا يحق للمرء أن يهدد هذا الرأس القبيح الأشيب بمسدس ليجيب عن الأسئلة؟

- «ابتعـدي عنـي أيتها السـعادة فأنا لـم أتعذب بعد بمـا يكفي كي أستحقك.. العقل هو نصل السكين الذي يمزق... ».

كان مولـر يغلـي غيظًـا بعـد أسبوع ذهـب فيه إلـى الكوخ مـرارًا، وفـي النهايـة قرر أنه لن يتحمل هذا السـباق المرهق.. لو خير في أمره لاسـتأجر عصابة تخطف الليموري أو تهدده. هو عملي جدًا.. ملول جدًّا... ضيق الصدر جدًا.. يمقت الكلمات جدًّا.. لقد ترك كل أعماله في سياتل من أجل هذا السخف، وقدر أنه لن يتأخر أكثر من ثلاثة أيام أخرى ثم يعود وهو يلعن هذه الرحلة الفاشلة..

فـي النهاية جـاء يـوم كان يجلس فيه إلـى تلك المنضدة الخشـبية العتيقـة يصغي، عندمـا قال الليموري فـي لهجة رتيبـة والعصابة على عينيه وقد دس سدادتي الأذن في أذنيه:

- «اسـمع وتعلـم.... الخيـول السـود تتعثـر مـع اكتمـال القمر.. والفرسان يترجلون.. الحكماء ترجلوا قبل الهاوية..».

ثم راح يلتقط الخيوط اللزجة الكثيرة المحتشدة حول جانبي فمه وحول تجاعيد الإوزة عند ركني عينيه.. لقد التصقت شفتاه تقريبًا فراح يحركهما لتتحررا...

ابتلع مولر ريقه في غيظ... كل هذا الهراء... يوم آخر من الفشل...

لكنه عندما عاد للفندق، تذكر شيئًا مهما... لقد استثمر الكثير في أسهم شركة تدعى (بلاك فيردي).. أسهم الشركة في ارتفاع ومؤشرات البورصة كلها في صالحها.

أمس كان الاتصال بوكيله في البورصة، وكل الصحف الاقتصادية قالت إن أسهم (بلاك فيردي) آمنة تمامًا... لكن فيردي Pferde بالألمانية معناها (الخيول)... هواية تشفير الكلمات وجعلها غامضة جعلت الرجل يرمز لشركة بلاك فيردي بالخيول السود، في مزج غير عادل بين الإنجليزية والألمانية.

تتعثر مع اكتمال القمر.. متى يكتمل القمر؟

ممسكًا بكأس البورجندي ولفافة التبغ اتجه إلى الشرفة الصغيرة فأزاح الستار، ووقف للحظة يرمق قرص القمر المكتمل العملاق الفضي الذي يبرز في حياء من وراء جبل شاستا..

عندما فتح التلفزيون واختار النشرة الاقتصادية، كان الخبر الأول عن هبوط مرعب في أسهم شركة (بلاك فيردي). أجرى عدة اتصالات وهاتف وكيله.. لا شك في الخبر... لقد تعثر الحصان الأسود مع اكتمال القمر، والحكماء ترجلوا قبل الهاوية..

هو لم يكن حكيمًا ولم يبع ما لديه من أسهم في الوقت المناسب.. لكنه سيكون. من الواضح أنه لن يفارق دونزموير عما قريب.

* * *

يقول الليموري:

- «فقط في ليموريا ابتعدت حتى رأيت النهار. بينما هنا أجد السقف دانيًا ووطيئًا فلا أجسر على رفع رأسي.. هنا أنا لا أرى أبعد من أنفي. في ليموريا يمكن أن تصفو النفس لتفهم. تسألون أين ليموريا أقول لكم هي في نفوسكم وليست في تلك الفجوة الوهمية في المحيط.. علماؤكم قالوا والعلم ليس صنو الحكمة».

اقتربت منه ماريان أكثر وهمست:

- «السعادة.. لقد فقدنا القدرة على السعادة».

- «لأن السعادة لا تمنح إلا لنفوس تعرف قيمتها. نحن نرث حكمة القرون ومعها نرث غباء القرون كذلك.. الميراث لا يتجزأ. مثل الفَراش الناعم الذي لا حفيف لجناحيه يداعبني اشتهاء الموت، فأغمض عيني وأرى... إن النوم رحيم رفيق بي، أنا الذي تعذبني الرؤى والكوابيس وهول ما رأيت. سفينتي جابت الكثير من الخلجان بحثًا عن السلام لكن لا توجد خلجان ترضى بأن تلقي مراسيها عندها.. ».

همستْ في ذعر:

- «هل الموت هو الإجابة إذن؟».

- «المـوت قد يكـون إجابة.. والخلود إجابة أخرى..الإنسـان في بحثه عن الحكمة سحق جسده واستخف به فذاق العذاب السرمدي.. الخلود هو الحل، ولا خلود إلا بنثر بذوركما في الأرض... روحاكما تتوقان للخلود، بينما حاول الزيت أن يمتزج بالماء.. كلاهما مستساغ طيب لكنهما لن يمتزجا أبدًا. والنبت لن يرتوي».

ثم عاد إلى الصمت، فقال لهما الرجل الوقور الذي عرفا أن اسـمه دواير:

- «انتهى!».

هتف آرثر عازفًا عن النهوض:

- «لقـد اقتـرب من الاعتراف بوجودنا.. أشـعر أنه رآنـا... كلماته تقول شيئًا».

- «انتهى.. لقد تكلم فعلًا وقال كل شيء.. والآن هناك غيركما من يرغب في اللقاء بلهفة».

نهض الزوجان في تردد ومشيا نحو الباب..

نظـرة أخيرة وجهاهـا إلى العـراف الجالس ثم غادرا الغرفة. شـقا الطريق وسط الزحام في الخارج.. وسط الضباب، والسيارة الخربة بلا عجـلات في الفناء حيث ينام قط أو اثنـان، وبقايا النباتات التي لم تلق رعاية كافية، والأطفال الذين يلعبون بكعك من طين، والرجل المسـن الـذي يحـاول أن يبصق دون أن يموت. وسـط عدسـات المصورين الجالسين في الخارج يدخنون ويلتهمون الهامبرجر.

كانا حائرين.. تشابكت أناملهما غير عالمين ما يجب عمله. العودة للبيت والعمل من جديد.. لقد أغرقهما الرجل في ألغاز غامضة لا معنى لها..

فجأة سمعا صوتًا شبه مألوف فنظرا للخلف..

كان ذلك الرجل الوقور الذي يجلس دائمًا مع الليموري قادمًا.. يحمل دفترًا صغيرًا تحت إبطه ويلهث ويحاول اختراق الزحام دون أن يركل الأطفال الذين يلعبون أو يدوس على أيدي الجالسين على الأرض أو يطوح سلال طعامهم...

قال لهما وهو يضع يدًا على كتف كل منهما:

- «لقد تلقيتما الإجابة.. هنيئًا لكما!».

قال آرثر في خيبة أمل:

- «الإجابة هي الفَراش الناعم الذي يشبه الموت إذن؟».

- «بل هي احتياجكما للخلود.. أنتما بحاجة لطفل تستمران من خلال جيناته».

بعد كل هذا الجهد؟ ثمة نبؤات عبقرية يمكن أن تصل لها وأنت في فراشك... لو جئت بصبي في الصف الثالث لقال نفس الكلام.

قالت ماريان وهي تتخلل شعرها بأظفارها :

- «كأننا لم نفكر في ذلك ألف مرة... نحن لا ننجب لكن بوسعنا إجراء تلقيح صناعي أو طفل أنابيب أو استنساخ أو تبني طفل، لكن ليس الافتقار للأمومة والأبوة هو ما نعانيه».

- «تلك نقطة.. هو يرى أن هذه مشكلتكما الأولى».

- «والثانية؟».

- «أنتما اختياران غير مناسبين لبعضكما!... تكتشفان هذا متأخرًا جدًّا. لقد تحدث عن امتزاج الزيت بالماء... أنا صرت أفهم كلماته المعقدة بسهولة نوعية، وعرفت أنه يرى خير قرار تتخذان هو أن يبحث زوجك عن زوجة تناسبه وتبحثي أنت عن زوج يناسبك... ».

لكننا متحابان يا أحمق.. متحابان!.. والتفّت الأنامل أكثر.. وارتجفت الشفاه..ثم تلاصق الصدران في ذعر..

- «هو يرى أنكما تعسان لكنكما تتظاهران بالحب!... لو أطلقتما لعواطفكما ولعقلكما العنان لانفصلتما!.. بعبارة أخرى أنتما لم تتحملا كآبة الاضطرار إلى لعب دور الزوجين المتحابين للأبد، لهذا ادلهمت السماء وغمركما الاكتئاب».

ارتجف فك آرثر ومد يده يلمس ياقة دواير وقال ضاغطًا على أعصابه:

- «هناك أحمق يستحق لكمة في فكه.. العراف أو الذي فسر كلام العراف».

قال دواير في برود:

- «تلك كلماته.. خذها أو ارفضها.. نحن في بلد حر».

قالت الزوجة وهي تجذب زوجها من كمه:

- «دعه يا آرثر.. هو لم يرتكب ذنبًا... الحماقة ليست جريمة يعاقب عليها القانون».

تخلى آرثر عن غريمه، وراح يستنشق في عمق من منخريه..

استفزاز قاتل أن يأتي من يخبرك أنك لا تحب حبيبتك وهي لا تحبك. أن يأتي من يؤكد أنك تخدع نفسك بينما أنت تعرف يقينًا أنك لا تخدع نفسك..

إذ ابتعدا عن الكوخ قال لزوجته:

- «سوف نعود.. لقد كنا نقتفي أثرًا زائفًا.. رأينا سرابًا فعبرنا الولايات كي نبلغه، وكان من الأفضل ألا نفعل.. سنعود إلى العمل والاكتئاب والوحشة..».

قالت ماريان:

- «ولربما كان محقًّا ونحن لا ندري».

- «ماذا تقولين؟».

- «لا شيء.. كنت أحلم بصوت مسموع».

ولسوف تمر أيام عديدة حتى يعاودا التفكير في كلمات الليموري. هل هو على حق أم أنه بذر بذرة الشك في أرض بريئة؟ .. تراها كانت نبوءة أم نفثة سم عكّرتْ نهر حب صاف؟

لن يعرفا أبدًا. لكن من المؤكد أنهما سينفصلان بعد عام، وأن كلًّا منهما سينشئ علاقة جديدة.. آرثر سيتزوج وهي ستعيش مع صديق. يبدو أن الزيت وجد زيتًا والماء وجد المزيد من الماء. ولسوف تكون لهما ذرية. ولسوف يأتي اليوم الذي يندمجان فيه في الحياة ويضحكان وينسيان تلك اللحظات القاسية..

لقد حان الوقت كي يخرج آرثر وماريان من قصتنا.

٣ - فليتكلّمْ!

عندما جلس بارتريدج فـي الغرفة الضيقة، يرمق الرجل الأشـيب الـذي يلتهـم اللقيمـات ثـم يجـرع بعدهـا المـاء، كان يتسـاءل.. هل هو - بارتريدج - أحمق؟ هل عبر الخطوط الحمراء إلى عالم التخبط والغباء؟

شـعوره بدنو المـوت جعله يتصرف بلا منطق علمـي، أو ربما هي ثانويات الورم تعبث في خلايا دماغك. الخلايا التي انتفخت وأترعت بالعلـم حتى أوشـكت على الانفجـار، ثم جاءت خلايـا الورم تعبث بهـا.. تلتهم ما شـاءت منها أو تفقـأ ما تريد بدبـوس... تتواثب بينها.. تأخـذ رحيق العلم المنسـكب على الأرض فتثمل بـه، لكنها لا تمنحه لآخرين. تعفّن كل هذا العلم وتخمر فجعلك تهذي...

ربما هو الهذيان الأخير..

لا يـدري. لكنـه ما زال يرتقب سـماع كلمات من فم هذا الأشـيب الغامـض. المصـري كما يعرف هو والليموري كمـا يدعونه هم. يريد كلمـات شـبه واضحة لا تتخلها شـفرات أرقـام غبية تضلله، أو تشـير

لكتب لا وجود لها.. ربما على أرفف تلك المكتبة الأكاشية التي وصفها إدجار كايس مرارًا، هناك كتب لها أرقام أخرى لا نعرفها.

جوار الليموري يجلس سكرتيره الدائم.. ذلك المدعو دواير الذي يقول إنه كاتب خيال علمي. يبدو أنه مهتم ويؤمن بشدة.. لطالما اندهش بارتريدج من القادرين على الإيمان والتصديق. موهبة لم يملكها قط.. قال من عرفوه إنه يدافع عن داروين كأنه نبي، لكنه كان بحاجة إلى براهين كأي شخص آخر..

كان العرق يغمر جبين بارتريدج، وكذا الشعور بالغثيان برغم حقن الأليزابرايد التي أخذها. ترتجف فخذه بلا توقف ويجف ريقه.. الحق أنه مريض فعلًا...

هيا تكلم أيها الليموري قبل فوات الأوان..

يقول محمود وهو مغمض العينين كالعادة:

-« أيتها الوحدة.. أنت موطني الوحيد.. أنت رفيقي الدائم حينما أفتقر للوطن.. الناس هم غربتي.. وأنا ارتكبت الإثم عندما تخليت عنك، لكني لم أطق أن أموت بالسر وحدي... تخليت عن هبة الصمت المبهج والهواء الذي لا رائحة له. أردت أن أمنح اللهب للعميان المدثرين في الظلام..».

قال بارتريدج وقد نفد صبره:

- «هل يتطور الإنسان؟ هل يتحور إلى طور آخر؟».

يقول محمود:

- «أحلامي أعاصير تحطم السفن التي تجسر على الدنو... عليكم أن تتمردوا وتجدوا موطئًا لأقدامكم بين القتلة والقراصنة. الشر قوي ينتصر في كل مرة، لكن عدم تصديقنا لذلك هو ما يجعلنا بشرًا وأحياء. سوف يصحو الشر، ويفنى البشر بنيران العلم. يتوارى الإنسان من جديد بينما تزدهر الأرضة والحشرات.. الدورة لا تتوقف. ومن الألم يأتي الحلم.. هل تنتشي المرأة بالولادة؟.. لا.. لكنها الضرورة. ومن يرتق الجبال ير كل شيء.. ».

عاد بارتريدج يكرر:

- «هل من دليل على أننا نتطور وسوف نتطور؟».

- «هناك حيث وقفت أرمي ببصري وراء الغمام، رأيت سفن الحقيقة تبحر مبتعدة.. لكني لحقت بها سباحة وعرفت».

وفجأة مد يده يعتصر ياقة بارتريدج بقوة لا تصدق. أجفل البروفسور وحاول أن يبتعد.. خاصة أن الوجه المكسو بالخيوط ورائحته جعلاه ينكمش رعبًا واشمئزازًا.. العينان المغلقتان بإحكام على بعد سنتيمترات من وجهه، وسمع الليموري يقول:

- «رحلتك عسيرة.. القطار ينتظرك لكنه لن ينتظر أكثر لأن صبر المسافرين قد نفد. لك أزجي كلماتي فحاول أن تفهم.. لا وقت يضيع في الغباء».

وراح يهمس في أذن بارتريدج بكلمات لم يسمعها أحد.

فقط رأى دواير أن نظارة البروفسور انزلقت فوق قصبة أنفه واتسعت عيناه.. العرق ينبت من جديد على جبينه.. يخرج منديلًا

بحجم ملاءة صغيرة ليجفف العرق الذي غمر قذاله. وفي النهاية هز محمود رأسه فنهض الرجل منهكًا متداعي الأوصال..

قال محمود لاهثًا وقد بدا منهكًا بدوره كأنه قد تسلق سلمًا عاليًا:

-« الحياة مع البشر عسيرة لأن الصمت اختبار مستحيل. لكن هل من أم تطلب أجرًا لعنايتها بصغيرها؟.. لا تبصقوا أبدًا عكس اتجاه الريح.. ».

كان يتكلم بينما بارتريدج يبتعد...

* * *

في غرفته بالفندق هرع بارتريدج إلى حقيبته الموضوعة جوار الفراش.. فتحها بيد ترتجف، وأخرج علبة من علب الدواء وتناول قرصين، ثم هرع إلى الحوض وملأ كوبًا من الماء ابتلعهما به.

كان مذعورًا وقد جف ريقه تمامًا. هذه الرجفة.. هذه الرجفة.. أنامل شخص أصيب بالجنون.

وقف يرقب وجهه المتعب في المرآة.. جمجمته الضخمة والشعر الثائر على جانبي الرأس كأنه غوريلا أخرى، فلا غرابة أنه كان من المتعصبين لنظرية التطور.. هو في الخمسين من عمره، ومن الواضح أنه سيظل كذلك للأبد...

سارة.. سارة.. يا صغيرتي.. ليتني أستطيع الاتصال بك لأخبرك بما عرفت. ليتك تصغين وتصدقين. لكن المشكلة هي أنه واهن جدًّا لا يستطيع رفع سماعة الهاتف.. لا يستطيع قول شيء..

الليموري أخبره بأشياء.. وقد أدرك أنها صادقة من دون دليل. كأن الليموري هو الدليل... المنطق الدائري الذي يلتهم نفسه. لقد تكلم كثيرًا، وقد أدرك بارتريدج أنه لم يكن مخطئًا عندما ذهب إلى مصر وراء ذالك الرجل ثم لاحقه حتى كاليفورنيا. يجب أن يكتب بسرعة ما قيل.. بسرعة قبل أن ينسى شيئًا..

هنا داهمته نوبة أخرى من القيئ..

هرع إلى الحمام وركع على ركبتيه يفرغ معدته في المرحاض...

أمعاؤه تعتصر.. معدته تتقلص.. يسقط على الأرض..

هناك شيء خطأ.. واضح أن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة..

هل هي الأخيرة؟

هي كذلك فعلًا...

لكنه قد عرف الكثير ولن يموت مثقلًا بالفضول بل بالرعب والهلع..

الظلام يزحف عليه وأنامله ترتجف.. سوف تغفو خلايا مخه المثقلة بالعلم أخيرًا.. لأول مرة يستريح هذا المخ الجبار منذ خمسين عامًا.. لعل هذه رحمة، هو ما كان ليطيق الحياة بعلمه الجديد ساعة أخرى.

سارة.. سارة.. ليتك هنا..

* * *

تغرب الشمس على جبل شاستا الرهيب، فتطول الظلال.. ويرتمي ظل الكوخ أمامه كئيبًا مستطيلًا. معظم القوم قد رحلوا بينما قرر البعض أن يناموا حيث هم، ووضعوا أكياس النوم في الحديقة. الليموري يُمنح ساعات من الراحة ليلًا.. ومن الواضح أنه ينام هناك في ركن الغرفة التي يجلس فيها.

أين يقضي حاجته؟ متى يستحم؟ لا أحد يعرف.. فقط في الصباح يجدونه جالسًا على المنضدة، وسرعان ما يلحق به ذلك الرجل الذي يتابعه كظله: دواير.

الناس كلها تملك أسئلة، والبعض يجمع أجزاء اللغز.. كلمة من هنا وكلمة من هناك.. ربما لو كنت محظوظًا تجد الإجابة بعد أسبوعين...

لكن هناك يقينًا لدى الجميع يريحهم. الرجل يريد أن يتكلم فقط.. لم يطلب طعامًا ولا شرابًا ولم يتخذ لنفسه أجرًا.. لم يطلب هبات لـ(معبد ليموريا) أو (ضريح بلافاتسكي). هذا منحه مصداقية حقيقية. فإما أنه صادق وإما أنه مجنون فقط.. احتمال أن يكون نصابًا غير وارد. وتلقائيًّا راحوا يجلبون له بعض الخبز والجبن ليظل حيًّا يومًا آخر.

هناك في ضوء الغروب يقف ذلك الرجل...

رجل في الأربعين من العمر، له لحية قصيرة مشذبة بعناية، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه، وله عينان واسعتان متسائلتان.. يضع عوينات شفافة بلا إطار.. اسمه دواير، وقد اهتزت مسلمات كثيرة لديه. مسلمات تتعلق بالعدل والوطنية والستار ذي النجوم اللامعة.

في ضوء الغروب القرمزي يقف ذلك الرجل...

يقف خارج الكوخ يفكر مليًّا.. عيناه زجاجيتان شاخصتان كأنه ضبط زوجته متلبسة بالخيانة. ليتها فعلت ولم تمت.. لكنه قد عاش كل لحظة من نهايتها.. تعذب واحترق مثلها، وسره أن ذكراه بعثت بعض الراحة في نفسها...

«ثمة أمور يحسن أن تبقى تحت غطاء، والخطر كل الخطر أن يراها أمثالك، ولربما كان ثمن الحقيقة نهايتك لأن الشمس إصر على كاهل الواهنين.. ».

في ظلام الليل الوليد يقف ذلك الرجل...

لقد دخل على الليموري فودعه هذا الأخير.. لم ينظر نحوه لكنه قال:

- «لتكن رحلتك سريعة بلا ألم... ».

هكذا عرف ما سيحدث، وعرف أنه سيحدث....

أمسك بالهاتف المحمول وأجرى اتصالًا:

-« جنرال أندرو هيل... قلت لك إن كل المعلومات صحيحة.. كل ما قيل عن الشريحة B-87ay صحيح... آل بولسون شخصية حقيقية.. زيتا حقيقية.. أنت بحثت وتأكدت.. هذا إن لم تكن تعرف منذ البداية. لا أستطيع الكلام بحرية خشية أن يكون الخط مخترقًا، لكن دعني أخبرك أنني عشت لحظات كاتي الأخيرة واحترقت مثلها.. تكلم الليموري كثيرًا عن الغد وعن قنبلة هكسا وعن غزو الصراصير

لـلأرض والغـزو الصينـي ونهاية الشـمس.. كنـت معه في كل شـيء وكل نبـوءة، لكـن دعني أخبـرك أن ما حدث في سـبتمبر كان الأغرب والأبشـع، ولهذا قـررت أن أصمت للأبد. من أجـل أمريكا ومن أجل الجميـع.. ثمـة أمور لو نطق بها المرء لانهار كل شـيء، وأحسـب أن الليموري لمح بما سوف أفعله.. إنه يعرف.. أما أنا فقد صارت الحياة مستحيلة، وما من جهاز عصبي يتحمل ما أتحمله اليوم بعد ما عرفت. أنت تحملت يا سيدي الجنرال.. ربما لأنك جنرال، وربما لأنك تضع نفسـك في مصـاف الآلهة وتعيش في الأوليمب، أمـا أنا فكاتب واهن الأعصاب تفعمه الشكوك والملانخوليا.. لا تبحث عني يا سيدي.. ».

ثم ابتلع ريقه وتأمل الهاتف قليلًا وأضـاف:

- «لا تبحث عني يا سيدي.. فقط كن على يقين من أنني لن أوجد».

لابـد أن الـكلاب خرجـت تبحـث عنـه.. لابـد أن ألـف طائـرة هليوكوبتر وألف سيارة سوداء وألف قمر صناعي وألف عميل انطلقوا جميعًا يبحثون عنه. لن يجده أحد.

طوح بالهاتف المحمول بعيدًا..

ألقى نظرة أخيرة على الكوخ الراقد يغفو في الظلام، والذي تناثرت من حوله معسكرات من فضلوا المبيت، والنيران مشتعلة في أكثر من بقعة يصطلون عليها أو يعدون حساء ساخنًا أو بعض الشاي.

ثم راح يمشـي وسـط الأرض الوعرة والضبـاب مبتعدًا.. الضباب الذي يجعل رؤية قدميه مستحيلًا. من بعيد يلوح جبل شاستا المخيف

العملاق ككابوس.. ديناصور غاف من ملايين السنين ولربما يستيقظ..
لا تنس أنه بركان يثور كل ٦٠٠ عام.. لن يثور الآن على الأقل..

يعرف دواير أنه سيمشي طويلًا حتى تنهك قواه.

سوف يتسلق الجبل في الضباب والظلام وهذا تعريف آخر للانتحار.. بالفعل هو انتحار.. من قال العكس؟ ربما تلتهمه الذئاب أو القيوطي. ربما يسقط فينكسر ظهره.. ربما يتدحرج فينفجر رأسه.. ربما يبلغ القمة - لا يدري كيف - عندها سوف يظل هناك إلى أن يقتله البرد والجوع والظمأ...

لقد انتهى دور دواير في الحياة..

«ثمة أمور يحسن أن تبقى تحت غطاء، والخطر كل الخطر أن يراها أمثالك، ولربما كان ثمن الحقيقة نهايتك لأن الشمس إصر على كاهل الواهنين..».

بالفعل هي كذلك...

يسمع صوت كاتي تقول:

- «قبّل سارة من أجلي. إن الفولاذ يحترق. المصعد صار بئرًا للشيطان.. لا أقدر على الفرار ولا أقدر على الوثب من النافذة كما فعل محظوظون آخرون. تمن لي أن أموت الآن.. تمن لي أن تقتلني الصدمة العصبية قبل أن تتمسك النار بلحمي فيذوب. قل لي إن العالم الآخر أكثر رحمة.. قل لي إنني لن أحترق في هذا العالم والعالم الآخر كذلك... ».

صرخ بصوت عال وسط الظلام:

- «كاااااتي!».

تسرب الظلام إلى فمه وبطن أحشاءه بالسواد لكنه واصل الصعود. تعثر في وهدة، والتفت الأغصان حول ساقه ووخزته الأشواك.. سقط في حفرة بها صخور أدمته.. اصطدم رأسه بشيء ما. نهض من جديد وراح يتحسس طريقه..

دعا الله أن يتم الأمر بسرعة. لا يريد المزيد من الألم. لقد امتلأ صدره بالسواد، فلا سبيل للخلاص إلا بأن يفنى هذا الصدر ويتحلل... سوف يخرج منه السواد كمحتويات صندوق بندورا ليغمر الكون بالظلام والشر..

راح ينشد (علم النجوم اللامعة) النشيد الوطني الأمريكي:

- «هل ترون معي في ضوء الفجر المبكر.. ما حييناه بفخار في ضوء الشفق الأخير؟».

وهو يتعثر وينهض من جديد...

إنه الآن يخطو أولى خطواته فوق سفح الجبل، متجهًا لأعلى.. يعرف يقينًا أن زحفه لن يطول. لابد أن هناك حفرة عميقة امتلأت بالظلام والضباب والموت، وهذه الحفرة تنتظره في شغف كحضن حبيبة ترتقب.. هل يرى رجالًا مدثرين بثياب بيض سابغة يمشون من بعيد، ويخرجون من مستوى الأرض ومن وسط الضباب؟ بالتأكيد لا.. إنها هلوسة الاقتراب من النهاية. إنه الموت..

* * *

مع ضوء النهار لم يكن محمود ينتظر قدوم أحد..

لن يأتي دواير اليوم، فهو مشغول بأمور أخرى لا يمكن الكلام عنها.

تناول لقيمة من الخبز الجاف وبللها بالماء.. منذ زمن سحيق لم يأكل سوى الخبز. نسي الزمن الذي كان المرء يأكل فيه الخضر واللحم. يشعر كأن خلايا جسده ذاتها قد تبدلت. شفّت.. صارت تغتذي بالنور والماء كالنباتات.. سوف يورق يومًا ما.

بدأ المريدون يدخلون.. يقفون على بعد منه، و هو أول يوم لا يوجد فيه دواير لينظم الدخول.. فقط هناك المرأة الهسبانية تحاول أن تضفي بعض النظام على الواقفين. راح يتكلم ويتكلم حتى جاء المساء، وتبدلت الوجوه والروائح واللكنات والثياب والأحلام...

عندما أدركوا أنه مرهق بشدة بدءوا ينسحبون...

- «هي إز تايرد».

- «إيل إيه فاتيجيه».

- «كيستا أنسادو».

- «إر مودو إست».

وهكذا نهض مترنحًا إلى ركن الغرفة، حيث كوم بعض الملاءات، فارتمى تحتها وغط في سبات عميق.. كان قد علم نفسه ألا يحلم وألا يتذكر، لأن كل ما يعرفه أليم موجع... لا سبيل للنوم إن لم يحول عقله إلى عقل هر غاف... يحلم بما تحلم به الهررة.

مع أول شعاع من ضوء الفجر الحاني البليل فتح عينيه.

رأى مجموعة من الأقدام من حوله، عليها أحذية براقة لامعة..

رفع عينيه فرأى مجموعة ممتازة من السترات السود والوجوه الكالحة والنظرات الحادة، والعطور الفاخرة وربطات العنق الأنيقة، وانتفاخات تحت الإبط تشي بالمسدسات. رأى النوايا المدلهمة والأفكار الشريرة والميول العدوانية. رأى التصميم الفولاذي والفضول الزائد والأهمية المفرطة. رأى الوجه المظلم لأمريكا وهو يختلف بالطبع عن وجه ميكي ماوس ودونالد داك.

قالوا له:

-« تعرف من نحن؟ ».

لم ير داعيًا للكذب فقال:

- «نعم».

- «تعرف لماذا جئنا؟».

- «نعم».

-« رأيت هذا في سجلاتك؟».

- «نعم».

- «وتعرف أن دواير اختفى؟».

- «نعم».

- «هل هو حي؟».

- «لا».

- «ولسوف تأتي معنا؟».

- «لا».

- «العم سام بحاجة لك».

- «لا».

-« لا تبالي بمصير الولايات المتحدة؟».

- «لا».

- «منحناك اللجوء ويمكننا طردك في أي لحظة».

- «لن تفعلوا.. أنا أثمن من أن تطردوني».

-« بالقوة سوف نأخذك عندنا».

- «نعم».

- «سوف نوجه لك أسئلة».

- «نعم.. لكن لا إجابات».

- «يمكننا إرغامك على الإجابة».

- «لا».

- «لدينا سبل ناجعة».

- «ولديّ الموت.. يمكنني أن أموت متى شئت».

كان على الأرض في وضع القرفصاء وسط الأحذية البراقة اللامعة. يتساءل متى يرحلون ليرجع الهواء... متى يرحلون ليستعيد

القدرة على الحلم.. متى يرحلون ليعود لبيته في الوحدة.. متى يرحلون ليغوص في الأبدية..

قال كبيرهم وهو يضع نظارته السوداء:

- «نحن قريبون.. نعرف أنك سوف تغلّب العقل. لن تذهب لأي مكان ولن تفعل أي شيء من دوننا. عندما تقرر الكلام فلسوف تأتي طائرة تقلك إلى واشنطن.. أنت لنا.. ».

ثم رحلت الأحذية السود مبتعدة في تؤدة وثقة، وبقي هو على الأرض يرمق الظلام. لسنا نبالغ إن قلنا إنه كان يتوقع هذا كله. نهض بصعوبة وجلس على المقعد المتهالك أمام المنضدة.. كان يشعر أن هذا هو مثواه الأخير فعلًا.

دخل أول السائلين وكان رجلًا له ملامح صينية، وجلس على المقعد المقابل له فقال بصوت رتيب:

- «الأقمار قد تلد الشموس أحيانًا.. يجب أن نأخذ ونحن نمنح.. نتكلم ونحن صامتون.. الشيء المستحيل الوحيد هو المنطق.. لا يوجد منطق للأشياء، الشر ينتصر في كل مرة. هذا هو المنطق».

سأله الصيني:

- «وماذا نفعل نحن الأخيار الواهنين الذين لم نؤت أنيابًا؟».

- «تعلموا أن تكون لكم أنياب أو موتوا.. فئتان تقتتلان فتأتي واحدة على الأخرى.. كذا يعم السلام، لكن أحدًا لن يعي الدرس. الخوف صنو البشر الفطري.. الخوف من الوحوش. من الظلام.. من الغد ومن أنفسنا. فقط من قهروا خوفهم بلغوا الذرا.. ».

عندما انتهى النهار، وعندما انفض الجمع عنه كان يعرف ما ينتظره وما عليه أن يقوم به. جلس إلى المنضدة وكتب رسالته الأخيرة التي يحكي فيها قصته، ومنها عرفت ما استجد في حياته منذ فر من البلاد حتى اللحظة القادمة. طلب من المرأة الهسبانية المخلصة أن ترسل هذا الخطاب لي.

لقد حان الوقت لليموري كي يصمت.

لو أرادوا أن ينتزعوا منه الكلمات وأن يسكبوا محتويات قلبه ككيس النقود على المنضدة.. لو أرادوا أن ينزعوا الأسرار المتوارية في عقله، ولو أرادوا أن يجعلوه ترسًا من تروس البنتاجون.. فلن ينجحوا..

يستطيع أن يغيب في السجلات الأكاشية كما فعل في مصر ويبدو ميتًا، لكنهم لن يصدقوا أنه مات.. هم يعرفون أنه مارس هذه الحيلة من قبل، ولسوف ينقلونه لمركز طبي ويراقبونه أربعًا وعشرين ساعة إلى أن يفيق، أو لن يعتقوه إلى الأبد وحتى تتعفن جثته.

يستطيع أن يموت فعلًا، ولن يكلفه الأمر سوى حز شرياني معصميه بالسكين، أو البحث عن حبل متين يعلقه من سقف الكوخ، لكنه قد تجاوز تلك المرحلة القديمة. كان في الماضي أكثر خرقًا وأقل شجاعة.. أما اليوم فهو يعرف أن قتل النفس جريمة كبرى وجحود.. نفسك أو نفس سواك..

ثم أنه يعرف ما سيحدث... يعرف النهاية التي اختارها لنفسه، ويعرف أنه لن يقدر على تبديلها. المستقبل ليس في حتمية الماضي،

لكنه يفتح لنا دروبًا تغرينا بأن نمشي فيها، ونحسب أن هذا خيارنا الكامل. للمستقبل كالماضي حتمية..

كان يعرف ما سيحدث..

وكان يعرف أين توجد المطرقة الثقيلة في هذا الكوخ.. يعرف أين توجد السكين الحادة.. يعرف أين توجد قطعة الحجر...

* * *

تمكن الأطباء أخيرًا من وقف النزف..

شريان اللسان سخي بالدم كما كان اللسان سخيًّا بالكلمات، ويصعب أن تمنع الدم المتفجر كالشلال منه.. لكن صار من المستحيل أن تعيد لهذا العضو المبتور وظيفته. لن يتكلم محمود ثانية كما هو واضح.. سوف يكتفي بأن يطلق أصواتًا عجيبة كالوحوش..

الحق أن الجنرال أندرو هيل ورجاله لم يتوقعوا قط أن تبلغ رغبة الصمت لدى محمود هذا المبلغ. لم يتوقعوا هذا الحماس، وبدا لهم الأمر شبيهًا بأسطورة أوديب الذي فقأ عينيه بدبابيس الشعر حتى لا يرى أنه تزوج أمه.. هنا يقطع الرجل لسانه حتى لا يتم استنطاقه.

أما الأدهى فهي تلك الكسور الشنيعة في الكفين. يبدو أنه هوى بالمطرقة على عظام الكفين مرارًا بعد ما وضع الكف على قطعة حجر.. يبدو أنه جعل تلك المرأة الهسبانية تساعده.. لأنه من المعقول أن يهشم اليد اليسرى وهو يمسك المطرقة باليمنى. فكيف يمسكها باليسرى بعد ذلك إذن؟

لقد فعل كل ما هو ممكن كي لا يتكلم أو يكتب أو يشير بأنامله أو يرسم أو يدق على مفاتيح الكمبيوتر..

هناك في المستشفى يرقد محمود ناظرًا للسقف وأنبوب رايل يخرج من أنفه، وقد لفوا كفيه بالضمادات. بينما وحدة الدم الرابعة تتدفق في أوردة ذراعه. لا أحد يصدق ما حدث. لا أحد يصدق كم القسوة والعنف اللذين ادخرهما هذا الرجل لنفسه حتى لا يتكلم إلا بإرادته الكاملة.

كان في شبه غيبوبة من الألم.. يصحو ويئن، ثم تغرقه المسكنات في غيبوبة أخرى.

هناك من فقأوا أعينهم ليعاقبوا أنفسهم على الزواج من محارمهم مثل أوديب كما قلنا، وهناك من أخصوا أنفسهم بأنفسهم حتى لا يتورطوا في الزنا، وهناك من قطعوا إصبعًا كي يتهربوا من التجنيد أو حتى لا يعوقهم الإصبع أثناء صنع الخزف كما فعل زوربا اليوناني. كلهم يقبعون تحت عباءة سوداء عملاقة هي خليط من القسوة والجنون والتفكير العملي الخالي من العاطفة.

لكن أقساهم جميعًا وأكثرهم جنونًا وتجردًا عاطفيًّا هو من تجاسر على أن يخرس نفسه للأبد...

هذا الذي تخلى عن إنسانيته كي يظل إنسانًا. الذي تخلى عن إنسانيته كي يسمو فوق الإنسان. الذي تخلى عن إنسانيته كي يملك إرادة الصمت..

رجال كثيرون تبدو عليهم الأهمية وقفوا خارج الحجرة..

مناقشات كثيرة دارت.

الجنرال أندرو هيل دخل الغرفة وراح يرمق محمودًا. هو - الجنرال - رجل له مظهر عادي، و يمكنك كما قلنا أن تحسبه بائعًا في محل. في الخمسين تقريبًا له شعر حليق بالطريقة العسكرية المميزة، ويلبس بذلة مدنية عادية. بالنسبة له بدا محمود أقرب إلى حالة متقدمة من مرض باركنسون.. لو كان مريض باركنسون مقطوع اللسان طبعًا، وككل من رأى محمودًا أثارت دهشته واشمئزازه تلك الخيوط اللزجة التي تغلف ملامحه. لقد حاولت الممرضات تنظيفها باستمرار لكنها ظلت تتكون بسرعة غير عادية.. كالعادة قيل إنها عدوى فطرية لكن الفحص تحت المجهر لم يثبت هذا قط.. جربوا كل الطرق الممكنة لمعرفة كنه هذه الخيوط التي توحي بخيوط الشرانق فعلًا.

وقف يراقبه في صمت وتصادمت إرادتان..

كانت نظرة قاسية خالية من التعاطف. هذا صندوق أسود يحوي أسرارًا مهمة.. كل أسراره دقيقة.. يجب فتح هذا الصندوق بطريقة لا تحطمه. لن نقع في خطأ الذي ذبح البطة التي تبيض ذهبًا متعجلًا ما في بطنها. لابد أن هذا الرجل سوف يتكلم.

قال الدكتور ويلارد:

- «ليس المهم أن يتكلم.. المهم أن يريد هذا».

- «وهل من فارق؟».

- «كل كلمـة ثمينة جاءت منه كانت بإرادته الحرة. لو أرغمته على الكلام فقد ينهار تمامًا.. قد يعطيك الأكاذيب..».

- «ثمة عقاقير يمكنها أن تعطيك الصدق ولا شيء سواه».

- «عندهـا.. كيـف تعرف ما يعرفه؟.. لقد سـد نوافـذ روحه ورفع الجسور وأغلق قنوات الاتصال. كيف التفاهم؟ بقراءة الأفكار؟».

* * *

الدكتور ويلارد كان يملك تصورًا معقولًا:

- «هناك طريقة إغماض الجفنين وفتحهما لإعطاء إشارات... نعم ولا مثـلًا.. هل نحـن في النهار؟ لو أغمض جفنيه فمعنى هذا لا.. كان الجستابو ليفعلون الشيء ذاته لو وجدوا أنفسهم في ذات الموقف».

قال الجنرال في ضيق:

- «الكذب وارد. الملل وارد.. الخداع وارد».

- «قد نعلمه الكتابة بأصابع قدميه..».

- «الكذب وارد. الملل وارد.. الخداع وارد».

- «ربما نبتكر جهازًا للتخاطب باللمس مثل الذي يتكلم به ستيفن هوكنج».

- «الكذب وارد. الملل وارد.. الخداع وارد».

لكنهـم كانـوا يعرفون ما سيفعلون. الأمر أقرب إلى جهاز كشـف الكذب.. عندما يوصلون الأقطاب إلى رأس محمود، سوف يوجهون

له أسئلة من طراز (نعم - لا). موجات الدماغ هي التي ستخبرهم بالإجابة. موجات نعم تختلف عن موجات لا.. موجات (نعم) هادئة رخوة مسالمة قنوع.. موجات (لا) متمردة عاصية عدوانية عصبية لا ترضى بشيء.. هذه أجوبة لا خداع فيها ولا تلاعب. فلو كان محمود أكثر حكمة لدمر أذنيه حتى لا يسمع.. لربما فجر رأسه كذلك حتى لا تتجسس الأقطاب عليه...

في النهاية لا يجب التصديق المطلق بهذه الإجابات. لا يمكن لدولة محترمة أن تبني خططًا عليها، فالأمر في النهاية أدنى إلى ألعاب المشعوذين، لكنها تلقي الكثير من الضوء على أركان القاعة المظلمة بلا شك.

وهكذا جلس خبيران من البنتاجون يعدان قائمة طويلة من الأسئلة التي سوف يتم استجواب محمود بصددها... على هذه الأجوبة أن تقدم ما كان على ريتشارد دواير أن يقدمه:

١ـ سوف تظل الولايات المتحدة هي الأقوى في القرن الواحد والعشرين؟

نعم ـ لا

٢ـ سوف تحدث كارثة اقتصادية شبيهة بكارثة الكساد الكبير great depreesion التي حدثت في ثلاثينيات القرن العشرين؟

نعم ـ لا

٣ ـ سوف يبقى البترول مصدر الوقود الأساسي في القرن الواحد والعشرين؟

نعم ـ لا

٤ـ سوف يجد العلم بديلًا رخيصًا للبترول قبل عام ٢٠٥٠؟

نعم ـ لا

٥ـ الإرهاب الديني سوف يبلغ الولايات المتحدة؟

نعم ـ لا

٦ـ الجالية العربية في الولايات المتحدة سوف تشكل خطرًا في الأعوام القادمة؟

نعم ـ لا

٧ـ التنظيمات الدينية المتطرفة سوف تجتاح أوروبا؟

نعم ـ لا

٨ـ السلاح النووي الموجود في بقايا الجمهوريات السوفيتية سوف يستخدم؟

نعم ـ لا

٩ـ السلاح النووي الموجود في بقايا الجمهوريات السوفيتية سوف يصل للمنظمات الإرهابية؟

نعم ـ لا

١٠ـ النازية سوف تنهض في أوروبا من جديد؟

نعم ـ لا

١١ـ سـوف تجد الولايات المتحدة سـلاح دمار شامل جديدًا بعد القنبلة الهيدروجينية والنيوترونية؟

نعم ـ لا

١٢ـ شركة مايكروسوفت سوف تفلس؟

نعم ـ لا

١٣ـ أوكرانيا ستعود لروسيا؟

نعم ـ لا

١٤ـ ستزداد قوة الين الياباني؟

نعم ـ لا

١٥ـ الأفارقـة السـود سـوف يثورون ثورة شـاملة فـي الولايات المتحدة؟

نعم ـ لا

١٦ـ الحزب الجمهوري سوف يعود للحكم؟

نعم ـ لا

١٧ـ حرب جديدة سوف تهدد وجود إسرائيل؟

نعم ـ لا

١٨ـ الـدول العربية سـتتفكك بالكامـل وينتهـي أي خطر على إسرائيل؟

نعم ـ لا

١٩ـ سوريا ستوقع معاهدة سلام مع إسرائيل؟

نعم ـ لا

٢٠ـ هل مات ريتشارد دواير فعلًا؟

نعم ـ لا

٢١ـ هل تعرف ما حدث في سبتمبر ٢٠٠١ فعلًا؟

نعم ـ لا

الإجابة عن هذا السؤال الأخير بنعم كانت تعني أن الليموري لن يرحل أبدًا، لأنه يعرف الكثير جدًّا. عندما ينتهي استجوابه يجب أن يصير (لا شخص Unperson) كما في رواية ١٩٨٤. وهكذا تستمر الأسئلة. عدد هائل منها يقترب من ألف سؤال، ثم تزداد الأسئلة عمومية وتعقيدًا:

١٠٠١ ـ يحدث غزو عاقل من الفضاء على غرار قصص الخيال العلمي؟

نعم ـ لا

١٠٠٢ـ وباء فيروسي شامل يجتاح الأرض؟

نعم ـ لا

١٠٠٣ـ الصين تغزو العالم في القرن ٢٢؟

نعم ـ لا

١٠٠٤ـ الشمس تصمد مليون سنة على الأقل قبل التحول إلى ثقب أسود؟

نعم ـ لا

١٠٠٥ـ سوف يمر الإنسان بطور تطور جديد؟

نعم ـ لا

١٠٠٦ـ تتطور القردة العليا لتلحق بالإنسان؟

نعم ـ لا

١٠٠٧ـ سوف يتقدم تجفيف المحيطات لزيادة رقعة الأرض؟

نعم ـ لا

١٠٠٨ ـ تقنيات الزراعة الجديدة سوف تنجح في القضاء على مشكلة الغذاء العالمية؟

نعم ـ لا

١٠٠٩ـ سوف تغادر مجموعتنا الشمسية درب التبانة لتلحق بمجرة أخرى؟

نعم ـ لا

١٠١٠ـ العلم سوف يصل لسرعة الضوء دون أن تتلاشى كتلة الأجسام؟

نعم ـ لا

١٠١١ـ سوف تنقرض اللغة الإنجليزية وتحل محلها لغة أخرى؟

نعم ـ لا

١٠١٢ ـ سوف يكون الانتقال الآني ممكنًا؟

نعم ـ لا

١٠١٣ـ كائنات أدنى سوف تحكم العالم؟

نعم ـ لا

١٠١٤ـ كمبيوترات الذكاء الصناعي سوف تستولي على العالم على غرار قصص الخيال العلمي؟

نعم ـ لا

١٠١٥ـ سوف يمكن زرع المخ من إنسان لإنسان؟

نعم ـ لا

١٠١٦ـ سوف يصير العلم قادرًا على صنع البروتوبلازم؟

نعم ـ لا

١٠١٧ ـ هل سيكون أول لقاء من النوع الثالث لقاء مع فيروس أو بكتريا؟

نعم ـ لا

وهكذا.. لا يمكنني تذكر القائمة المخيفة المرهقة التي أعدها هذان الخبيران، فقد أعداها بمساعدة عالم فيزياء وعالم بيولوجي بالإضافة لخبرتهما العسكرية، والاستعانة بما دونه الفقيد دواير من أفكار أتى بها من كرمة الخيال العلمي. لقد كانت التجربة مثيرة فعلًا..

سوف يتلقون الرد عن كل هذه الأسئلة، وهذا سيقود لأسئلة أخرى أعقد وأكثر تخصصًا.. أمريكا لن تظل على قمة العالم فمن سيكون؟ هل الصين؟ هل روسيا؟ هل ألمانيا؟.. وهكذا..... أمريكا ستظل على قمة العالم فهل تبتكر سلاح دمار شامل جديدًا؟... هل يعتمد على الذرة؟ هل هو هيدروجيني؟ هل هو بيولوجي؟

لو صدقنا هذه النبوءات فهي تختصر الكثير من الوقت. سوف يحتاج العلم الأمريكي إلى خمسين عامًا ليصل لكذا، بينما يمكن تقصير الفترة مع هذا الرجل الأسير. لكن هذا لن ينسينا بالطبع أن علينا ألا نعول كثيرًا على هذه النتائج.. في النهاية هي نبوءات عراف، وفي النهاية هذا ليس علمًا، وفي النهاية هي ليست أرضًا صلبة نقف عليها..

- «لم تخطئ أي نبوءة من نبوءاته.. هذا جدير بالاهتمام».

- «وجدير بالحذر كذلك لأن الخطأ وارد».

قال د. ويلارد إنهم يطورون برنامج محاكاة على الكمبيوتر. مهمة هذا البرنامج هي دراسة الاحتمالات المستقبلية ومد الخطوط إلى أقصى مدى لها. جبر المحددات في أعلى صورة له. يقوم الكمبيوتر بمقارنة نتائجه بالنتائج التي حصل عليها من محمود، ويصل لنسبة صدق مئوية. كل نبوءة نالت أكثر من ٧٦,٨١٧٪ جديرة بأن ينظر لها كحقيقة محتملة جدًا. وفي النهاية تطرح أمام لجنة خماسية عالية المستوى.. لو حدث كذا فما هي خطتنا لمواجهته؟

قال الجنرال وهو يدرس الأسئلة:

- «سوف نبدأ الاستجواب يوم ٥ يوليو بعد عيد الاستقلال.. أعدوا أوراقكم وأسئلتكم.. أعدوا أجهزتكم وأقطابكم وأسلاككم.. أعدوا شكوككم ومنطقكم وصبركم. إن الليموري سوف يتكلم».

* * *

هذا هو الجزء الذي عرفناه من الصحف الأمريكية بعد أعوام فالخبر تسرب لها كما تعلم. كل شيء يتسرب في الولايات المتحدة، ربما باستثناء الأسرار الحقيقية فعلًا. كانوا حذرين وقتئذ.. متوجسين مذعورين. ليس مما يخدم قضيتهم أن يقال إنهم يستلهمون سياستهم من عراف نصف مخبول، كما كان هتلر يفعل. السيف أصدق أنباء من الكتب.. هذا صحيح.. لكن من ير الأمور من الخارج لا يستطيع أن يحيط بها بشكل شمولي. كانوا يعرفون أنهم يتصرفون بحيطة وذكاء.

أنت تعرف يا سيدي المحقق أنني كمن يجمع أجزاء لغز Puzzle فأضع قطعة من هنا وقطعة من هناك. شيء رأيته.. مقال في جريدة.. كلمة عابرة من سلوى عمران.. لكنني مضطر لأن أملأ بعض التجاويف بمادة بينية كالتي تملأ تجاويف الكون. هذه المادة هي خيالي ومنطقي.

هناك هذا الجزء، ثم هناك ظهور محمود من جديد في مصر...

لا أستطيع تفسير هذا الجزء جيدًا كما تعرف، فهو يتجاوز قدراتي على الاستنتاج ولم يفسر قط..

هناك ثلاثة تصورات ممكنة.. التصور الأول: معقول جدًّا وأعتقد أنه الوحيد: المخابرات الأمريكية قررت إنهاء هذه اللعبة وإعادته

لوطنه لسبب لا نعرفه. ربما هي الحرب الغامضة بين الأجهزة وبعضها. ربما هي غضبة الرأي العام لاختطاف الحكومة له، بعد ما اعتبره بعض الناس مخلصهم.. كاهنهم.. بوذاهم.. زرادشتهم.. هكذا صار استبقاؤه مسئولية لا تقدر الحكومة الأمريكية على تحملها.. خاصة أنها اتهمت بتعذيبه بالتأكيد. تعذيبه أو قيادته للجنون الذي بلغ به أن يقطع لسانه. أعتقد أنهم هابوا المسئولية التي تتمثل في احتجاز مواطن بلا تهمة معينة لاستجوابه وسط مجتمع شفاف أصلًا.

التصور الثاني: يشبه الطريقة التي نجا بها من أقبية كبير البصاصين الذي سيشنقني على باب زويلة بعد ما ينتزعون لساني ويقطعون كفي. معظم الخنافس يصطنع الموت لينجو من عبثك ومضايقتك، وبعد رحيلك تستعيد الخنفسة حياتها وتدب مبتعدة. في مصر استطاع بادعاء الموت والغياب في السجلات الأكاشية أن يغريهم بالتخلص من جثته في الصحراء. هل حدث شيء كهذا في الولايات؟. هم يعرفون هذه الحيلة على ما أعتقد لو كان دواير قد أخبرهم بها. ولو لم يعرفوا فهذا يضعنا أمام التساؤل: لماذا لم يحرقوا الجثة أو يذوبوها في الحمض؟... كيف عاد إلى مصر؟.. ربما قرروا نقل جثته إلى وطنه الأم حتى لا يتهموا بقتله، وهي خطوة لا داعي لها لأنه لا وجود له بالنسبة لمصر منذ مات في أقبية المستنطق.

التصور الثالث: خرافي جدًا، هو قدرته على الانتقال من مكان لمكان كما يفعل كل الأولياء في الخيال الشعبي لدى الحرافيش. طبعًا هذا كلام فارغ لكنه ليس أكثر سخفًا من التصور الثاني على كل حال. لا أعرف قدرات تلك السجلات الأكاشية ولا أفهم كل

تفاصيلها، لكن ربما كان بوسع من يدخلها آن يخرج بجسده في مكان آخر من العالم. من يدري؟

كيف لي أن أعرف يا سيدي المحقق؟.. ما أعرفه يقينًا هو أن محمودًا ظهر في مصر من جديد. وكان ظهوره مشكلة شديدة التعقيد. وجود بعض الأشخاص في الحياة يجعلها مستحيلة فعلًا، ولهذه القصة شأن آخر.


مصـــر

١ - الخطاب

اسـمها سـلوى عمران يا سـيدي المحقق. كنت وما زلت أعتبرها جذابة جدًّا.

لحظة حتى أشعل لفافة التبغ هذه......

لا شـك أن هـذه المرأة تملك شـيئًا مختلفًا عـن الأخريات.. ليس الأمـر هـو اختطـاف كاهنة دلفي مـن المعبـد، ولا الظفـر بأرملة جون كنيـدي.. هنـاك جزء يتعلـق بالمرأة ذاتها. لا شـك أنها قـادرة على أن تجذب الرجال لأنها جذابة.. بلا أي تعقيدات أخرى.

لـن أحكـي تفاصيـل يا سـيدي المحقق. هـذه أمور شـخصية كما تعلـم، ولا أحسـبها تضيـف لتحقيقـك شـيئًا. لكنها كانـت بحاجة لي وكنـت بحاجة لهـا. تحققت نظرتي الثاقبة عن قشـرة الأرض الجامدة التـي تغلي تحتها حمم الماجما... من يقدر على تحطيم هذه القشـرة يخلق بركانًا. لكن خابت نظريتي عن أخلاق الطبقة الوسطى الصامدة كطود، ولست حزينًا بسبب هذا الخطأ.

اعتقدت لفترة أن أخلاق الطبقة الوسطى تصنع حولها سورًا منيعًا قاهرًا، لكنها هي التي جاءت لي.. هي التي انتظرتني على باب المستشفى بعد مشاجرة السينما إياها، وكانت هذه رسالة صامتة بليغة. برغم خبراتي السابقة الكثيرة فقد اهتزت عندي مفاهيم الطبقة الوسطى.. هل هي خادعة لهذا الحد؟ أم أنني قابلتها في لحظة انهيار نفسي كانت وقتها في أمس الاحتياج لي؟.. هل انتصرت أم أنني باغت الجيش بينما قد نفدت إمداداته وعزت المؤن؟.. هل ربحت أم أن غريمي كان منهكًا واهنًا لا يرغب في القتال أصلًا؟

لا أعرف.. ما أعرفه يقينًا هو أنها ذابت فيّ..

صفعة في ظلام السينما... تلك هي المقاومة الوحيدة التي أظهرتها تقريبًا..

لقد توارت ذكرى محمود تمامًا... كأنه لم يوجد قط، أدركت أن هذه المرأة كانت أرضًا خصبة متأهبة للأمومة والحب.. عشتار صغيرة.. إيزيس رمزية.. فينوس افتراضية. فقط هي وقعت مع مخبول يخترق السجلات الأكاشية. لم تكن تريد سجلات أكاشية. كانت تريد رجلًا يحبها. كانت أنثى بشدة.. أحيانًا كان يخيل لي أنني لو لمست يدها لرزقت بطفل. هي بويضة متحورة على شكل أنثى.. هرمونات متجمدة تلبس تايورًا وتنورة وحذاء..

كل هذا جميل لكن هناك مشكلة واحدة ترافق هذا النوع من الحب الناري الشهواني المشتعل: الملل. العنكبوت القاتل..

في كل يوم يتزايد إعجابي بشهوة الطعام باعتبارها أرقى أنواع الشهوات المتجددة. أنت تلتهم الكباب إلى أن تكتفي، وتوشك على

أن تفرغ معدتك لو شممت رائحة شواء مرة أخرى.. تعتقد في لحظة أنك لن تأكل مرة أخرى ما حييت، ثم تمر ساعات فتلفي نفسك جائعًا، ويسيل لعابك إذا رأيت فخذ ضأن مشوية ينز منها الدهن. جرب هذا مع الجنس.. لو ظفرت بمارلين مونرو نفسها فلن تظل كذلك للأبد.. سوف تملها.. وبعد قليل تزدريها. ومهما ابتعدت عنها فأنت لا تشتاق لها ثانية. ربما يسيل لعابك من أجل أخرى. سلوى عمران كانت امرأة شديدة الجاذبية لكنها ليست أفضل من مارلين مونرو. هذا يختلف اختلافًا كليًّا عن الطعام. في كل صباح يسيل لعابنا على نفس شطائر الفول والفلافل.. في كل ظهر يسيل لعابنا على نفس أطباق الأرز والخضر واللحم.. في كل مساء يسيل لعابنا على نفس قطع الجبن والخبز. نفس أصناف الطعام لا تكف عن إثارة شهيتك إذا امتنعت عن الأكل بعض الوقت.

للأسف لم تكن سلوى عمران جبنًا وخبزًا يا سيدي المحقق. ليتها كانت كذلك.

مع الوقت صرت أحمل هم لقائها.. وأحمل هم الكلام معها وافتعال الاهتمام بما تقول.. أحمل هم رسم الرغبة في عيني والافتتان في صوتي.. لقد شبعت وارتويت بلا أمل في الجوع أو الظمأ ثانية. لست قاسيًا بما يكفي، ولا أقدر على ركل القطط الصغيرة أو دهس الكلاب بسيارتي. لهذا لم أكن أفضل واحد يستطيع التخلي عن امرأة تتعلق به. حب الأنثى لك كارثة إذا كنت ذا ضمير...

في محاولة أولى مني لنظم الشعر كتبت هذه الأبيات العامية:

«من غير نفاق.. من دون خجلْ

حبك مللْ.. مللْ.. مللْ

حتدندني اللحن القديم

وبدون مناسبة تضحكي..

وعنيكي تلمع ف الضلام

ببريق بتفتكريه ذكي..

حتقولي بالصوت الحزين:

مش عارفه إيه معنى الحياه؟

وتقولي: بتمرّ السنين

من غير حبيب أحلم معاه...

من غير نفاق.. من دون خجلْ

حبك ملل.. ملل.. مللْ».

لا أعرف لماذا بدا لي شيء مألوف في هذه الكلمات، حتى أنني رددتها على مسمع عواطف الممرضة في المصحة لأتأكد من أنني لم أسرقها - الأبيات - لا شعوريًا. تترسب أشياء في عقلنا الباطن ثم نحسب أننا أصحابها. تتساقط حبوب اللقاح في حدائقنا فنحسب أننا استزرعنا أزهارها. لكن الممرضة أبدت الدهشة وقالت ضاحكة:

- «لا توجد أغنية كهذه يا دكتور ومن المستحيل أن توجد.. هذه كلمات غليظة كالحجارة لا تخرج من الحلق، ولا تدخل الأذن، ولا تداعب القلب، ولا تدغدغ الوجدان».

معهـا حق... كلمـات فظة تفتقر للفن، لكنهـا صادقة جدًّا.. ظاهرة (ديجا فو) تعمل معي ببراعة على كل حال..

اليوم في الخامسة مساء تأتي ألعن لحظات اليوم.. سوف تأتي سلوى عمران للمستشفى حيث أظل في مكتبي لفترة طويلة، وتجلس بانتظار انتهائي ثم نخرج معًا.. نذهب للسينما أو نمشي في مكان هادئ، ثم نتناول العشاء، وبعدها قد تعود معي لمسكني لعدة ساعات أو لو كنت محظوظًا تتركني في سلام وترحل...

نصيحة يا سيدي المحقق لو سمحت لي.. كح كح.. لو كنت يقظ الضمير فلا تبدأ علاقة مع أنثى تريدها. بعد فترة لن تريدها ولسوف يكون الخلاص منها شبه مستحيل. فقط الأوغاد ينجحون لأنهم يعرفون كيف يكونون أشرارًا. بل يروق لهم أن يكونوا أشرارًا.

كانت سلوى قد استعادت فطرة الطبقة الوسطى التي تخلت عنها بسبب الغرائز. الجنس خطيئة ضرورية لاستمرار النوع، لكنه عمل آثم مجرم. الطريقة الوحيدة للظفر بامرأة مثلها هي أن تطلقها من زوجها وتتزوجها أنت.

كانت تذكّرني من حين لآخر بأن بوسعها كمحامية أن تنهي قضية محمود المعلقة، من ثم نتزوج بشكل رسمي. لكني كنت أراوغ وأداهن وأكذب وأتملص... أنت سعيد الحظ يا محمود.. ربما كنت اليوم في القبر تنعم بالموت، ولست مضطرًّا للتعامل مع هذه الشمس التي فقدت وهجها.

من غير نفاق.. من دون خجلْ

حبك ملل.. ملل.. مللْ

هذا هو الوقت الذي وجدت فيه ذلك الخطاب قادمًا من الولايات المتحدة...لا أعرف أحدًا هناك، لذا بدا لي الأمر غريبًا..

فتحت الخطاب ملهوفًا وعلى الفور لمحت خط محمود المميز يخاطبني:

«السلام عليك يا صديقي:

أخشى مع الوقت ألا يعود بوسعي أن أحكي لك قصتي. لهذا أكتب هذا الخطاب وأنا أعرف أنهم سيأخذونني، وعلى الأرجح لن يتخلوا عني ثانية. يخيل لي أنني أعرف الخط العام لما سيحدث، لكن حدسي ليس صادقًا في كل مرة.. أرى أبعد من الآخرين، لكني لا أرى ما هو وراء الجدران..

لو سارت الأمور كما أعتقد فأنا سأكون جوارك عما قريب، أما إن كنت أخطأت الرؤية عبر الضباب فسوف أظل حيث أنا للأبد.

كان النداء أقوى مني كي أذهب هناك. كي أعيش في ذلك الجبل المزدحم بالأسرار. ثم لم أطق الصبر على الصمت فتكلمت. غامضة كانت كلماتي، حتى لا يستوعبها إلا من يستحقها، وهناك من عادوا من لقائي يقولون كم أنا نصاب، وهناك من وجدوا إجابات، وهذه الإجابات لم ترق لهم.. بالأحرى هي آذتهم كثيرًا أو جعلت حياتهم مستحيلة.

مثقلًا بالقول كنت، مثل ذلك الحلاق الذي اكتشف أن أذني الملك كبيرتان.. كتم السر ثم استأمن عليه حفرة في الحقل، وكان أن خرجت

سيقان البامبو من الحفرة تصيح: الملك له أذنا حمار.. أنا صرت مثل سيقان البامبو عاجزًا عن الكتمان. لكني كذلك لا أمنح كلماتي إلا بمقدار.

سوف يحاولون انتزاع أسراري كلها.. سوف يشقون صدري ليعرفوا ما فيه، وأنا قد أزمعت ألا أمنحهم الفرصة. لا أجسر على الانتحار، فقد فقدت شجاعة أن أكون جبانًا!.. أنا أجبن من ذلك!...

ما سوف أفعله يبدو مجنونًا.. لكني آمل أن يعطلهم. ما أعرفه يقول إنه سيعطلهم. ليس للأبد..

سيان إن كنا سنلتقي أو لا نلتقي، فأنا سأطلق سلوى.. أعرف أنها لم تعد تحمل لي أدنى عاطفة. أقول هذا كي أريح ضميرك من عناء فكرة الخيانة. لم أسامحك ولم أغفر لها، لكن مشاكلي أكثر من أن أجد وقتًا لهذه السخافات...».

في السطور التالية حكى لي قصته منذ حسبوه ميتًا حتى فر للولايات، وحتى جاءه رجال البنتاجون يأمرونه أن يتعاون..

لم يحك ما ينتويه ولم يجل هذا بخاطري قط يا سيدي المحقق. فيما بعد عرفت جزءًا كبيرًا من اللغز من الصحف الأمريكية التي تكلمت عن العراف الذي اختفى في ظروف غامضة..

في النهاية ختم الخطاب بأمله في أن نلتقي قريبًا...

لماذا يريدني؟ ماذا أمثل له؟.. لا أعرف حقًّا..

٢ - العائد

لن أخبرك بهذا يا سلوى.. لن أخبرك أن زوجك حيّ وموجود في الولايات.. لن أخبرك أنه يعرف..

لن أخبرك أنهم سوف يعتقلونه وسوف يعذبونه.. على الأرجح سوف يحولونه إلى عجين ولن يرى النور ثانية. على الأرجح سيجربون معه ترسانة الأسلحة الكيماوية منذ عهد هملر النازي كي يتكلم..

لن أخبرك بهذا يا سلوى..

معرفتك أو جهلك لن يغيرا الأمر، وأنا لن أتزوج بك.. لن أدفع ثمن شيء حصلت عليه فعلًا وزهدته ومللته وبلغت روحي الحلقوم منه. مساكين نحن البشر.. نطارد الأوهام في كل صوب، ثم نكتشف أنها أوهام. بعد ثوان نرى أوهامًا جديدة في الأفق فنطاردها..

أنا حسبتها وهمًا مختلفًا يمكن أن يحتفظ ببريقه فترة أطول، لكنها كانت مثل كل من عرفت في حياتي..

هكـذا يا سـيدي المحقـق دارت الحيـاة، وكنت غارقًا في مشـكلة الخـلاص من تلك الرتابة.. الخطوة الأولى هي الخلاص من سـلوى عمران دون أن أدميها.. لا أدري كيف. فكرت في الاستقالة والمعيشة في مدينة أخرى لا تعرف وجهي أو اسمي.. لكن مصر لا تمنحك هذا الترف. لك وجه واحد واسـم واحـد وبيت واحد، وعليك أن تسـعد لأنك وجدت اسمًا متبقيًا لك وسط هذا الزحام، ووسط تسعين مليون شخص يبحثون عن أسماء ووجوه ومساكن.

كان هذا عندما تلقيت هذا الخطاب بريديًّا من محمود، على عنوان المصحة:

«يجب أن أراك.. عنواني هو.......».

ووصف لي مكانًا منعزلًا عند أطراف القاهرة.

إذن هو استطاع أن يصل.. استطاع أن ينجو منهم، ولا أعرف كيف كما قلت لك..

الخط رديء جدًّا يمكن أن تقرأه بصعوبة بالغة، والكلمات عملاقة وقد كتبت بقلم ماركر غليظ، ولهذا لم أصدق أنه كاتب هذا الخطاب.. هل نسـي الكتابة؟.. لم أعرف وقتها أنه كتب الخطاب بأصابع قدمه.. لم تعد يداه قادرتين على الإمساك بالقلم.

ارتجفـت كمـن يمسـك بورقـة ملوثـة بالفيروسـات، وفكرت في أن أحرقهـا فـلا أراهـا بعـد اليـوم ولا يراها رجـال المحتسـب وكبير البصاصين، لكني كنت أعرف يقينًا أنني سـأقابله.. لا أستطيع التملص أو الفـرار.. منـذ صبـاه كانت عينـاه قادرتيـن على أن تحصـلا له على

ما يريـد، وكنـت أرى عينيه تنظران لـي عبر الورق.. مثـل تأثير المزج المعتاد في السينما. كانتا قادرتين.. وعرفت أنني لن أستطيع الرفض. هذا أصعب كشف منزلي قمت به في حياتي.

* * *

قالت لي سلوى عمران:

- «أنـت قلق.. فـي عينيك بئر عميقـة مظلمة.. أنت مشـدود كوتر كمان.. ».

ثم نظرت لي بعينيها العميقتين الجميلتين وقالت:

- «لن أسألك إن كنت تخفي شيئًا.. بل أسألك ماذا تخفيه؟».

قلت لها:

- «أنـا رجـل ناضج غـارق في مشـاكل العمـل والمـال والحياة.. همومـي قـد تختلف عن همومك.. قد لا تفهمينهـا وإن فهمتها فقد لا تبالين بها..».

قالت:

- «حسبت أن عالمينا قد امتزجا وأن أسرارك هي أسراري..».

- «لن يكون هذا كاملًا إلا إذا صرنا بقلب واحد وعقل واحد».

هـذه المرة رأيت فـي عينيها أنها خمنت.. يبـدو أنها رأت محمودًا في عيني..

قالت في رعب:

- «لقد ظهر!».

- «من؟».

- «تعرف من!».

- «نعم».

- «والعمل؟».

قلت في كياسة:

- «هو لا يريدك.. يريد أن يطلقك فقد خمن كل شيء.. ».

نظرت لي في غموض.. برغم كل شيء هي تشعر بالإهانة بلا شك. توقعت أن يهدد ويجلجل للاحتفاظ بها. توقعت أن نتصارع أو نتبارز. توقعت أن يرتمي عند قدميها متوسلًا أو يجرد سكينًا في وجهها مهددًا.. أما هذه الطريقة الراقية المتحضرة الباردة فإهانة أي إهانة... هي ليست مقعدًا في المترو يدعو كل منا الآخر ليتفضل بالجلوس عليه.

لم تكن تحبه.. لكنها أحبت أن يسبب لها المتاعب لو رحلت.

لم تكن تشتهيه.. لكنها أرادت أن يشتهيها..

قالت من بين شفتيها كأنها تبصق:

- «ابن الكلب!».

لا أعرف متى تطالبني بأن أتزوجها ما دامت حريتها صارت مؤكدة، لكني أعرف أن هذه ستكون اللحظة التي أقرر فيها أن أكون قاسيًا..

- «هل ستقابله؟».

- «اليوم.. نعم».

- «لا تذهب».

- «لا أستطيع..».

قالت وهي ترتجف:

- «خذ الحذر.. ربما لم يغفر لك وقد رتب الانتقام».

المسكينة ما زالت تتمنى لو كان محمود متعلقًا بها.. لو أنه من الذوق والتهذيب بحيث يرتكب جريمة. لو أنه جنتلمان لدرجة أن يغرس سكينًا في عنقي... المرأة التي تتخلى عن الرجل فتجده باردًا لا يلاحظ تقريبًا، تتلقى طعنة مروعة في كبريائها.

وهكذا عندما جاء العصر استقللت المترو إلى تلك الضاحية، ثم وجدت سيارة أجرة عتيقة ركبت فيها ووصفت العنوان..

هذا مكان قصي مجهول كأنه خارج حدود الزمن. خطر لي أن سائق سيارة الأجرة إنما يقود خليطًا من آلة زمن وسفينة فضاء. وكان صامتًا كأنه يمشي في جنازة.. قلت له همسًا:

- «تذكر أن تعود بي إلى القاهرة، وإلى العام ٢٠٢٠ كما جئت بي».

البيت عتيق متداع من طابقين.. يبدو واضحًا أن الطابق الأول خال تمامًا. هناك أمام البيت أرض فضاء تناثرت بها بعض سيارات انتهى عمرها الافتراضي وتحولت إلى صفيح صدئ. هناك لعنة الأراضي الفضاء في مصر، وهي كومة قمامة لعينة الرائحة، ترتفع كجبل تلهو

فيه القطط والكلاب والغربان. ملايين الأكياس الممزقة وبقايا الطعام المختمر وسراويل ممزقة وزجاجات وعلب مياه غازية وكوافيل أطفال.

أزحت بوابة حديدية ثقيلة ذات صرير..

صعدت في الدرج المتهدم كريه الرائحة، ورأيت الشقة هناك.. الباب موارب فلا شك أنه هو المكان المقصود. تنحنحت فبرزت امرأة في منتصف العمر من طبقة متوسطة تربط شعرها بمنديل متسخ، وتلبس جلبابًا أزرق. لم ترفع عينيها بل سمحت لي بالدخول، وقالت شيئًا عن أنه ينتظرني..

من هي؟ لا توحي بزوجة أو عشيقة أو خادمة أو سكرتيرة ..

كان هناك.. يجلس على الأرض بطريقة تذكرك بالجلسات العربية والأنتريهات المعدة للجلوس على الأرض. غرفة واسعة فرشت بموكيت رمادي بال، مع عدد من الأرائك الأرضية والكثير من وسائد متناثرة. لقد تقدم في العمر عدة قرون، وشاب شعر رأسه أكثر كأن هذا ممكن.. كأن هناك درجات من البياض، وهو قد بلغ آخرها، كما أن التجاعيد استطاعت أن تجد أماكن فارغة في الوجه ترسم عليها.. أماكن لم تسبقها لها تجاعيد أخرى. جواره بقايا خبز جاف في طبق صغير، وزجاجة ماء نصف مليئة. وهناك أوراق كثيرة وأقلام (ماركر) متناثرة.

حافي القدمين، يلبس جلبابًا طويلًا لكنك تدرك على الفور من منظر ساقيه البارزتين وعظام ترقوته أنه فقد أطنانًا من وزنه. الخيوط الزرقاء النسيجية تغطي الكثير من معالم وجهه. وأدركت هذه المرة

أن عظام يده مهشـمة.. يضمدها بالشـاش بطريقة تذكرك بالمجذومين الذيـن تراهـم في أفلام السـينما. كما أدركـت أن هناك شـيئًا على غير ما يرام في فمه.. لم أتبين لسانه – الذي لم يعد هنالك – إلا مؤخرًا..

كانت المرأة تقف خلفي فلوح بيده بما يعني أن تنصرف. ثم أشـار لـي لأجلس علـى الأرض جواره. هـذه من المرات القليلـة التي رأيته يبتسم فيها.

قلت له في حيرة:

– «لماذا ذهبت للولايات المتحدة ولماذا عدت؟».

لم يرد..

قلت له:

– «ساذا حدث ليدك؟».

هنـا أزاح الجلباب عن سـاقيه، وفـي ذهول رأيته يمسـك بقلم من الأقـلام بيـن إصبعين من قدمه، ثـم يثبت بالقدم الأخـرى قطعة ورق وبدأ يكتب.. يكتب بسلاسة وسرعة ذكرتاني بمشهد رجل من ضحايا الثاليدومايد رأيته على شاشة التلفزيون، وكان يعمل كل شيء بقدمه.. هنا فقط فهمت سبب شكل فمه الغريب.. لم يعد قادرًا على الكلام..

أزاح الورقـة نحوي فأمسـكت بهـا وقرأت المكتـوب بخط رديء لا يصـدق، لكنه ذات الخط الذي كتب بـه خطابه الذي دعاني للقدوم هنا.. يقول المكتوب:

– «ذهبت للولايات المتحدة فارًا من الزبانية.. عدت من هناك فارًا من الزبانية..».

أعدت له الورقة وعدت أكرر سؤالي عما أصاب يده فكتب:

- «تخلصت منها ومن كل شـيء يشي بأسرار داخلي، كان عليَّ أن أهشـم عظام قدمي كذلـك، لكني لم أفكر في ذلك.. بعدها لم أجسـر على تهشيمها. مع الوقت تعلمت الكتابة بقدمي».

- «من هي هذه المرأة؟».

كتب لي:

- «تعنى بشئوني.. مدبرة منزل لو شئت أن تدعوها كذلك!».

- «وكيف تتفاهم معها؟».

كتب لي:

- «هي تقرأ.. لذا أتفاهم معها بخليط من الكتابة ولغة الإشارة».

- «ومن جاء لك بهذا المسكن، ومن جلب لك هذه المدبرة؟».

هـذه المرة آثـر الصمت.. هنا تبدأ حدود السـر التي لم أسـتطع أن أعبرهـا يا سـيدي المحقـق. كمـا قلـت لك: هنـاك جزء مـن اللغز لم يكتمل وقد ملأته أنا بملاط من خيالي. الآن ياسيدي المحقق يحاول محمـود أن يكتب لـي قصته، وأنا لم أقرأها من قبل.. بينما تعرفها أنت كاملة تقريبًا. أرجو أن تسمح لي بلحظات أصغي له فيها..........

....

....

كتب لي أوراقًا كثيرة.. مع خط كبير رديء كهذا يحتاج إلى العديد من الأوراق. على أنه بعد قليل أصدر صوتًا عاليًا كالأنين، فظهرت المرأة ذات الجلباب.. كأنها مدربة على هذا جيدًا، جمعت الأوراق التي طالعتُها في صمت ثم اختفت. بعد قليل شممت رائحة الورق المحترق المميزة قادمة من مكان ما وامتلأت الغرفة بدخان.. لابد أنه آت من الحمام على الأرجح. هذه الكلمات لا تعاد مرتين ولا يطالعها سواي كما هو واضح..

حكى لي قصة الموت..

حكى لي قصة مصطفى الذي توارى عنده..

حكى لي عن دواير الذي أراد أن ينقله إلى الولايات ليحكي له كل شيء..

حكى لي عن جبل شاستا الذي يحاول أن يبصر شيئًا أي شيء وسط الضباب المحيط به..

حكى لي عن بارتريدج الذي يريد معرفة مصير الكون قبل أن يموت.

حكى لي عن الزوجين العاجزين عن السعادة.. وكان علاجهما ألا يظلا زوجين.

حكى لي عن سمسار البورصة الذي فهم متأخرًا جدًّا..

حكى لي عن المكسيكي الذي لم يحسن الاختيار..

حكى لي عن رجل الشرطة الذي تورط مع عصابة مخدرات..

حكى لي عن دواير الذي فهم ولم يتحمل الحقيقة.. وقرر أن يموت في جبل شاستا..

حكى لي عن جبل شاستا والأشخاص المسربلين بالأبيض الذين لا تعرف من هم، ولا تعرف من أين جاءوا..

حكى لي عن الجنرال الأمريكي ورغبتهم في تفريغه من السر..

حكى لي عن انتحاره المروع.. انتحار الكلمات والأصوات.. لقد أخصى نفسه من القدرات اللغوية كلها..

حكى لي عن جهاز الاستجواب الذي أعدوه له..

لابد أنه ظل يكتب عدة ساعات.. وفي النهاية ارتمى منهكًا على أرض الحجرة وراح صدره يعلو ويهبط..

كنت أنا متربعًا على الأرض أطالع آخر الأوراق. وقد غمرني الشوق إلى فنجان من القهوة، لكن يبدو أن المرأة ليست هنا. لم أجرؤ على إشعال لفافة تبغ بسبب طابع المحراب العام للمكان. قلت له في شرود:

- «لاحظت أن كل من لمح بصيصًا مما تعرفه لم ينل السعادة المرتقبة. المعرفة ليست مفتاح السعادة في كل الأحيان كما يعتقد الفلاسفة، بل هي كرة نار تحرق من يمسك بها. ثمة أسرار من الخير لها أن تبقى مغطاة مسربلة في إزارها.. إنك إن كشفت عن عورتها أصابك الهلع أو الاشمئزاز. أنا قد عرفت نساء كثيرات، وصدقني أن المرأة تكون في ذروة فتنتها وهي مكسوة ببعض الثياب. لاحظت أن من عرفوا بعض ما تعرفه أنت آثروا الانتحار أو الطلاق أو ظفر بهم

الموت متعجلًا أو جنُّوا.. دعني أخبرك أن العالم غير مهيأ للحقيقة الكاملة.. غير متأهب لك.. ».

الفنانون والأدباء والمفكرون عبر التاريخ قد دخلوا بطريقتهم السجلات الأكاشية، وقد حاولوا أن يفكروا خارج الصندوق. لكن العالم لم يكن مستعدًّا لاستقبال معظمهم، ولهذا قتل المتنبي، ومات موتسارت فقيرًا، وقطع رأس لافوازييه، وأحرق جورديانو برونو، وشرب سقراط السم، وانتحر فان جوخ وستيفن زفايج وماياكوفسكي ورجائي عليش. وماذا عن جمال حمدان الذي شفّ وارتفع حتى رأى مصر كأنها مرسومة على خارطة وقد كشفت عن كل أسرارها، ورأى ما لم يره الباقون؟ ألم يعتزل العالم ويمت ميتة مؤسفة بسبب موقد بريموس ووجبة من الفول؟.. هم لم يدخلوا السجلات بالكيفية العميقة المتعمقة التي دخل بها محمود، لكن هذا كان كافيًا كي تحترق فتائلهم.. فكيف بمحمود نفسه؟

٣ - نبـوءات

اعتدت أن أتردد على محمود يا سيدي المحقق.

لا أعـرف السـبب حقًّـا لكنه نـوع من الافتتـان الغامـض. لقد كان ينقلني بكلماته لعوالم مظلمة غامضة لم أتوقع أن توجد. الأكثر سحرًا وفتنـة هـو أنـك لا تعرف إن كان يتكلم عن شـيء حقيقـي أم أن الكرم الفاسـد الحامـض في عقله قـد أنتج هذا النبيـذ التالـف.. النبيذ الذي يغمرك بالهلاوس ولا يجعلك تنتشي.

مـع الوقت صـارت زيارته عمليـة روتينية يومية. علـى الأرجح لم أكـن أرى المرأة هناك، وقد أعطاني نسـخة من المفتاح كي أدخل متى أردت. لـذا اعتـدت أن أجلب معي بعض الطعام والعصائر. بل صرت أعـد (ثرموس) مليئًا بالقهـوة.. رحيق الملائكة الذي يمنع رأسـي من الانفجار. كنت أجلب كذلك نظارة القراءة..

هناك نجلس على الأرض، وأراقب قدمه تخط أشياء على الورق.. تنفـد ورقة فيعطيني أخرى. وقد رحت مـن تلقاء ذاتي أحرق الأوراق في الحمام بعد قراءتها كما كانت المرأة تفعل.

لا داعي لأن أقول يا سيدي المحقق إنني كنت أفر فرارًا من سلوى عمران وقتها. لم أعد أميل لها أو أشتهيها أو أحبها أو أسعد برفقتها.. بالواقع صارت تثير مللي وضيقي. يجب أن أذكر كذلك أن عندي ضميرًا.. صحيح أنه غير متطور بما يكفي، أقرب لزائدة دودية في جمجمتي، لكنه كان يعمل أحيانًا بكفاءة غير كاملة. بدا لي غريبًا أن أعبث مع زوجة الرجل ثم أزوره لأتزود بالعلم. صحيح أنه يعرف لكنني لم أستطع قبول هذا السلوك.. لابد من بعض الرياء وخداع النفس كي تنتظم حياتنا.. لا يمكن أن تعترف لنفسك بأنك تتعرى كحيوان وتجلس القرفصاء لتفرغ محتويات أحشائك.. لكن هذا ما يحدث فعلًا، فقط أنت لا تعترف به أو تدع سواك يراه، وكذلك أنا لا أعترف لنفسي بأنني أقابل سلوى عمران ثم أمضي الليل مع زوجها.

كان يفيض بالأسرار كأنه البئر قبل أن تجف.

أسرار أكثرها غير مبهج.. الكثير منها خطر جدًا. بعضها مرعب.

مع كلماته رأيت الأميرة ميران التي تقدم لطلب يدها رجل من عامة الشعب اسمه أفجا – آل.. رأيت انفجار القنبلة هكسا.. رأيت الجماهير تتظاهر في كييف بسبب قانون بيع الهواء، ورأيت الدبابات تسحقهم فتسيل الدماء لتملأ الميدان... رأيت الصراصير تحكم الأرض بينما يتوارى البشر في الشقوق.. رأيت النيازك المشتعلة تهوي من السماء، ورأيت سحابة الغبار التي تحجب الشمس مهددة بتكرار سيناريو الديناصورات.. رأيت ساعة الحشيش المحترق التي قرر بها الطغاة أن يغيبوا الشعوب عن الوعي.. رأيت الرحلات السياحية لرؤية

بـلاد العـرب التي تحولت لمـزار يرتاده الغربيون فـي العطلات لرؤية كيف يمكن أن تنحدر الحضارة...

رأيت احتـراق البرجين في نيويورك.. وكنت مـع الطائرة الماليزية التـي اختفت، وعرفت مـن قتل كنيدي وكيف دبر اغتيال السـادات... دخلت قاعات البنتاجون حيث يرسم الجنرالات أكثر الخطط سرية..

كنت مع جيش قمبيز وهو يختفي عن خارطة الوجود للأبد..

رأيـت النـاس تتخبط في جحر ضيق.. مصر تحاول تسـلق جدران الحفرة الضيقة الملسـاء لكن هناك في كل مرة يدًا تجذبها لتسـقط من جديد.. دوائر القومية ثم الفشـل.. ثم العودة للدين.. ثم الفشـل... ثم القومية من جديد ثم الفشل... حكاية سيزيف....

رأيت الإنسـان فـي صراعه الدائم من أجل أن يظل إنسـانًا.. أحيانًا يحاول أن يسـمو، ثـم ينحدر إلى مجرد كائن يبغـي الطعام والجنس.. رأيت المعابد التي شيدها لعشتار وبعل.. ثم رأيت الأديان السماوية.. ثم رأيته يرتد في أوقات كثيرة فيعبد شيئًا مخيفًا اسمه مولوخ ويقدم له القرابين.. ثم يعيش من دون إله ثم يدرك أنه أخطأ الطريق...

الشر قوي.. الشر قادر.. الشر فاتن.. الشر ضروري ولولاه ما وجد الخير.. الشر ضرب شاذ من الخير...

ورأيت نفسي في كلماته المكتوبة..

لـم تكن صـورة جميلة.. لم أحقـق أي نجـاح أو أي طموح.. هي الأيـام تمضـي ككومـة جمعتها مـن اليميـن ووضعتها على اليسـار.. مشـاجرات.. رواتـب.. أصدقـاء.. نسـاء.. وفـي النهايـة قيـل لي إن

ضيافتي انتهت. من فضلك يا أستاذ هناك من سيجلس إلى هذه المنضدة بعدك.. أرجو أن تنهض...

كنت مشلولًا وحيدًا بلا ولد ولا زوجة ولا أصدقاء، لا تربطني بالحياة سوى امرأة تأتي لتمرضني وتغسل الفضلات عن جسدي، ثم تلبسني الحفاضة وتطعمني. رأيتني مجعدًا كالقرد، عاجزًا كصبي صغير، قذرًا كشيطان.. وقد جفت منابع عقلي وشاخت.. كل هذا العلم قد جف كورقة شجر.. كل ما عرفت وأحببت ورأيت قد تبخر..

رأيتني ألتهم شيئًا أصفر في ملعقة يشبه (السريلاك)، حتى توشك المرأة أن تقول لي: «هم يا جمل!». بينما شفتاي ملوثتان قذرتان..

رأيتني ألفظ أنفاسي الأخيرة لأن المرأة لم تأت ذات يوم، وأنا أرتجف من الجوع والظمأ وأعوي كالكلاب، بينما الديدان تلتهم لحمي بسبب الفضلات المختلطة التي لا ينظفها أحد. مذعورًا أبكي.. أردد في الظلام:

- «سلوى ى ى ى! سلوى ى ى!».

لماذا هذا الاسم بالذات؟ ربما لأنها المرأة الوحيدة التي كادت ترافقني في رحلتي للنهاية. وفي كتابات محمود رأيت نفسي في الأكفان وظلام القبر. انتفخت بطني بغازات الكبريت وزحفت البكتريا تحت جلدي... رأيت أنني أنفجر في الظلام فتتشرب التربة رحيق حياتي...

أنا كربون ونتروجين وهيدروجين.. أنا معادلة كيماوية تبرهن على قوانين بقاء المادة...

أنا لا شيء...

* * *

لقد صيّر محمود حياتي بلا معنى يا سيدي المحقق..

أطلعني على بصيص من غد مظلم بلا أمل..

كل من عرفوا شيئًا مما رآه في السجلات الأكاشية أصابهم اليأس والقنوط، أو غمرهم الذعر من الغد، أو لم يصدقوا.. ما يعرفه محمود لم يخلق للتداول ولا التعامل اليومي. ليس قراءة (بخت) مثل التي يمارسها معك العراف النصاب الذي يحاصرك في المقهى. هذه متفجرات تحرق وتلهب وتدمي وتقتل...

دعني أؤكد أنني ما زلت لا أصدق القصة كلها، وأعتقد أن لها تفسيرًا علميًّا سهلًا، لكني برغم هذا أخشى هذا الرجل كثيرًا.. لو كان صادقًا فعلمه مرعب، ولو كان يهذي فخياله مخيف..

لقد كان محمود خطرًا داهمًا...

خزانة الأسرار التي تحول لها هي صندوق بندورا العامر بالشرور والشياطين. لو انفتح فلسوف ينسف حياتنا نسفًا.. سوف يفتك بالأمل. سوف يفتك بلهفة انتظار الغد... دقة قلبك وأنت ترتقب سماع خطوات الحبيبة في الردهة.. اشتياق العذراء للفجر وهذيانها المرغوب بالفارس ذي الحصان الأبيض... لهفة الفراشة الظمأى لنور الصباح.. سوف يفتك بقدرتنا على الحلم. حتى العلماء سوف يصيبهم الذعر عندما يعرفون بانهيار الحضارة.. بالظلام القادم. في

الخارج يتربص مولوخ وبعل ينتظران الضحايا البشرية التي سيأتي بها الذين كفروا بالله. في الشارع ألف عاهرة أتى بهن للعالم ألف مغتصب صنعهم ألف متحرش بالأطفال.

الحقيقة هي أن العالم غير مؤهل لمحمود ولا ما يعرفه محمود..

الحقيقة أنه تسرب لروحي كالوباء فلم أعد راغبًا في الحياة أكثر.

استطالت لحيتي وتبعثرت ثيابي ولم أعد أرتاد المصحة.

وجاء اليوم الذي قررت فيه أنني لن أرى محمودًا ثانية. لقد آن أوان إنهاء هذه العلاقة للأبد. وعندما أغلقت الباب خلفي ورحلت كنت أعرف أنني لن أعود...

مثل إيكاروس

رائحة الدم المسفوك تذكرك بشيء ما.. ربما شيء عرفته في الماضي، ولربما عرفته في عصر الكهف أو في حياة أخرى كنت فيها سفاحًا يتلذذ بالدم. لا أدري بالضبط..

هناك كانوا يزدحمون. يتزايدون.. تزداد كثافتهم كذباب يحتشد فوق لوح زجاجي ملوث بالعسل. وكانوا يتكلمون ويلتقطون الصور... إبراهيم بيه. أسامة بيه. عادل بيه.. اختر أي اسم وضع بعده لفظة (بيه)..

الجثة وسط المكان غارقة في الدم. الدم دمه ولا شك في ذلك..

أنت تعرف يا سيدي المحقق أنكم جئتم بي، وقد عرفتم كل شيء عني من الأوراق التي تركها الفقيد. بعضها كتبه قبل أن يفقد يده، وبعضها كتبه بأصابع قدمه. كان من السهل أن يجدوني.. لا شك أن المرأة التي تعنى به أصيبت بهلع عندما دخلت الشقة لتجد تلك المذبحة.

* * *

كنت هنا منذ يومين يا سيدي المحقق.

اليوم الذي قررت فيه أنني لن أرى محمودًا مرة أخرى.

لـم أرتد قفازيـن ولـم أحـرص على أن أخفـي تحركاتـي. الجميع يعلمـون أنني أتردد عليه بانتظام وأن بصماتـي في كل مكان.. رائحتي في كل ركن.. أطلقوا كلابكم كي تفتش عني ولسوف تجدني.

كنت أحمل في كيس من البلاستيك سكينين عملاقين ابتعتهما من المـول فـي اليوم ذاته. لابد أن القتل بالسـكين قاس جـدًّا.. قاس على الجـلاد الذي لم يجرب القتل من قبل. وكنـت أحمل ثيابًا لأبدلها كي أتمكن من العودة لداري.

كان ينتظرني..

هنـاك علـى الأرض فـي جلسـته المعتـادة، ورأيـت فـي عينيـه أنه يعـرف.. يعـرف ما أنتويه. قال إنه لن يرتاد تلك البقعـة أبدًا، لكن يبدو لي الآن أنه ارتادها وأنه اسـتعاد هذا المشـهد مرارًا. كان ينظر للكيس الذي أحمله بلا توقف، ثم ابتسم ابتسامة غامضة.

كانـت الخيوط أكثر كثافـة على وجهه وعلى جانبـي فمه، كما أنها كانت تغطي فتحتي جفنيه. لقد شـاب شـعره أكثر إن كان شـيء كهذا ممكنًا. هناك تجاعيد عبقرية وجدت مكانًا في وجهه لا أدري كيف.

هـو يعـرف.. هـو أخبرني بالغـد المظلم الـذي ينتظرنـي ليجعلني قادرًا على القرار.. ليجعل مهمتي أسـهل. هو دعاني إلى زيارته عندما عـاد لمصر، لأنه كان يعرف يقينًا أننـي قاتله.. أنا أداة الانتحار الأخيرة التي اختارها.

جلست جواره وأمسكت بالثرموس وصببت لي وله بعض القهوة. هذه المرة أشعلت لفافة تبغ لأنني شعرت بالحاجة للنيكوتين.

رشف رشفة من الكوب الورقي الذي يحمله وتنهد في نشوة. كان يعرف..

ربما أدرك أن ما تاق له منذ زمن.. منذ ابتلع السم في ظلام السينما ومنذ تسلق السور على سطح البناية ومنذ...... لقد جاءه ما تاق له، وهذه المرة لن يكون بيده.. هذه المرة لن يقال إنه هرب...

لفترة حاول أن يبقى.. أن يخبر الناس بما يعرف، لكنه أدرك أن العالم لا يتحمل ما يعرفه، ولا يطيق الهول الذي يتكلم عنه.. هو نفسه لا يطيق هذا الرأس المثقل بالكوابيس.. رأسه..يتمنى لو اقتطعه وألقاه في التراب وركله وراح يرمقه في تشف...

«رعب أكبر من هذا سوف يجيء

«لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت

«أو ببطون الغابات

«لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم

«أو تحت وسائدكم، أو في بالوعات الحمامات».

كان يعرف.. وعلى الورقة كتب لي بخط رديء:

- «هذه هي اللحظة.. لا تتردد!».

قلت له في بلاهة:

- «لحظة ماذا؟».

ثم كففت عن التمثيل.. هو يعرف وأنا اعرف..

كتب لي:

- «طلبت من المرأة ألا تأتي لمدة ثلاثة أيام..».

ثم كتب:

- «فقط كن خلفي.. لا أريد أن أرى».

كان يعرف يا سيدي المحقق وكنت أعرف. لم أكن أملك أدنى فكرة عما سأفعله بعد هذا.. لا أنوي إخفاء آثاري.. لو سألوني فلن أنكر... هذه ليست قصة بوليسية..

أتمنى كذلك ألا يتم ابتذال قصتي.. ألا تتحول لخبر في الصحف الصفراء: «يقتل صديقه من أجل الظفر بزوجته.. الزوجة وعشيقها يتآمران.. إلخ». هذا يبتذل الأمر كله.. لا أريد سلوى.. ومحمود يعرف هذا، وعلى الأرجح سلوى نفسها تعرف ذلك...

أنا البطل الذي سيعيد الغطاء ليكسو الحقيقة العارية من جديد.. لن يرى أحد عورات الغد. أنا البطل الذي سيعيد للناس قدرتهم على الحياة يومًا آخر. أنا البطل الذي سيحرق صندوق بندورا قبل أن ينفتح.. أنا الذي سيعيد للكون هيبة الصمت وسحره.. أنا الأب الذي سيغلق جهاز التلفزيون قبل أن يعرض الفيلم المرعب التالي - أو المشين التالي - على الأطفال.

الاغتيـال أعنف أنواع الرقابة.. اللحظة المقدسـة التي تخرس فيها صوتًا تكلم أكثر من اللازم.. سـقراط يبتلع السـم والمقصلة تطير عنق لافوازييه.. النار تحرق جورديانو برونو.. أنا سألعب هذا الدور..

عندما يسـألونني سـأتكلم.. لم لا؟.. سـوف يعجلون بنهايتي التي تختلف عما رآه محمود.. لن أواجه الشلل والسقم والعجز وحيدًا. لن أواجه الصحراء الممتدة بلا حب ولا أمل ولا رفيق ولا رفيقة...نهايتي ستكون أكثر سرعة وأقل ألمًا وأكثر جدوى..

هكذا نهضت ووقفت جواره فلم يتحرك..

كان يعرف يا سيدي المحقق... يعرف...

وعندمـا وجهـت الضربـات الأولـى نظـر لي تلـك النظـرة الحادة المتهمة التي لا تطرف العين معها.. عندها فقط تذكرت الانطباع الذي كان يتركه لدى الناس جميعًا أنه ذو عاهة ما.. لعله فقد ساقه الرابعة في حادث، أو فُقئت عينه الخامسة، أو بتر أحدهم أذنه الثالثة!

مُت. لماذا لا تموت؟... فلتنه هذه اللحظات القاسية بسرعة!

المزيـد مـن الطعنـات.. أعتقـد أننـي وجهت عشـرين طعنـة على الأقـل.. ارتكبت أشـياء كثيرة مروعـة ومثلت بجثته .. وهو شـيء بلا تفسـير.. ربمـا لأننـي لا أحتمـل العنف كنـت عنيفًـا جـدًّا. ربما لأن اللحظات قاسـية حاولت أن أنهيها سـريعًا بمزيد من القسـوة.. عندما أصير حيوانًا فعليّ أن أستحق اللقب فعلًا.

وعندما انتهيت كنت ألهث..

ارتميت على الأرض أكافح من أجل الهواء.. كفي متشنجة وقد أضناها الجهد.. استغرقت وقتًا طويلًا حتى أفتح قبضتي وأنزع منها مقبض السكين..

في النهاية غسلت يدي تحت صنبور الحمام، وبدلت ثيابي بثياب نظيفة ونهضت..

لم أحاول أن أزيل بصماتي أو أبدل أي شيء.. مهما طال الوقت فسوف يجدونني ويعرفون. ستتكلم المرأة.. ستتكلم مذكرات محمود.. ستتكلم سلوى عمران.. سأتكلم أنا....

لا جدوى من الفرار.. هذه ليست قصة بوليسية يتم البحث عن القاتل فيها.

فقط أريد أن أعود لبيتي لأنام بعض الوقت، قبل أن يأتوا لأخذي. أريد أن أنفرد بنفسي بعض الوقت فهم لن يتركوني وحدي لحظة بعد ذلك..

* * *

انتهت سجائري يا سيدي.. اسمح لي بلفافة تبغ أخرى منك. من الغريب أن سجائرنا تنتهي مع قصصنا في اللحظة ذاتها.

هكذا يا سيدي المحقق.

كنت أعرف أن محمودًا سيموت.. للحظات خطر لي أن أنكر وألعب دور القاتل الذي يفتش رجال الشرطة عنه، ثم أدركت أنه من

الخير أن أتكلم... كما قلت لك فإن إضفاء لمسة بوليسية على الأمر تفسده وتهينه وتبتذله..

لقد مات محمود لأنه اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم، فلم يتحمل واحترق وذاب جناحاه.. هوى من حالق ليغرق وسط أمواه محيط ثائر طمّ آذيه...

مثل إيكاروس.

تمت

الفهرس

مصـــر

كاليفـورنيـا

مصـــر

«لقد مات محمود لأنه اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم، فلم يتحمل واحترق وذاب جناحاه.. هوى من حالق ليغرق وسط محيط ثائر.. مثل إيكاروس».

أحمد خالد توفيق

للحقيقة ثمن، وللمعرفة ثمن، وقد دفع «محمود السمنودي» مقابل معرفته تبذا وألمًا ومعاناه، منذ طفولته كطفل غريب الأطوار بين أقرانه ثم كرجل لا يرغب أحد في الاقتراب منه.

تدور احداث الرواية عام ٢٠٢٠، وتمتد إلى المستقبل، ثم تعود إلى الماضي لتجتمع كل الخيوط في حجرة داخل مصحة للعلاج النفسي يمكث فيها رجل قادر على قراءة أحداث الأزمنة، قبل أن يجبر نفسه على الصمت.

رواية شائقة للأديب أحمد خالد توفيق، تأخذ القارئ لعالم غامض وتعود به محملا بكثير من الأسئلة وربما ببعض الإجابات، ولكن هل نحن مستعدون ومتأهبون للمعرفة؟



أحمد خالد توفيق: طبيب وأديب مصري. يعمل حاليًا أستاذ طب المناطق الحارة بكلية الطب جامعة طنطا. اشتهرت كتاباته للشباب عبر العديد من السلاسل الناجحة مثل «ما وراء الطبيعة» و«فانتازيا» و«سافاري». ترجم العديد من روايات الأدب العالمي مثل «١٩٨٤» و«٤٥١ فهرنهايت»، كما كان أول من قدم أسماء مثل «ستيفن كينج» و«لافكرافك» للقارئ العربي. صدرت له مجموعة من القصص القصيرة مثل «الآن نفتح الصندوق» و«الغرفة ٢٠٧» و«لست وحدك»، وروايتان هما «يوتوبيا» التي تمت ترجمتها إلى عدة لغات تم ترشيحها لأكثر من جائزة عالمية في أدب الخيال العلمي، ورواية «السنجة». يكتب مقالات دورية في العديد منا لصحف والمجلاتا لعربية.



9 789770 933251

دار الشروق
www.shorouk.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com